آدم أس. ماكهيو

حياة الاستماع

الانتباه في عالمٍ مليءٍ بالتشويش

حياة الاستماع

حياة الاستماع

الانتباه في عالم مليء بالتشويش

آدم أس. ماكهيو

ترجمة: ماجد صبحي زاخر

Originally published in English by InterVarsity Press as
The Listening Life by **Adam S. McHugh**.

Copyright © 2015 by Adam S. McHugh
Arabic Edition Copyright © 2017 by **Ophir**

Printers & Publishers.
Second Print 2019.

Translated & permitted by permission of InterVarsity Press, P.O. Box 1400, Downers Grove, IL 60515, USA. www.ivpess.com.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced,
stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic,
mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews,
without prior permission of the publisher.

حياة الاستماع

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٧م

الطبعة العربية الثانية ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٥٦٩٩/١١/٢٠١٧
ISBN 978-90-5950-254-3

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الإهداء

إلى مارك روبرتس (Mark Roberts)، وستي□ ستَكي (Steve Stuckey)، ودونا هَريك (Donna Herrick)- إلى الثلاثةِ الذين علَّموني كيف أكون مستمِعًا، وذلك باستِماعهم لي.

المقدِّمة

يأتي الاستماعُ أوَّلًا. في هذه الحياة تستمع حتّى قبل أن تدرك ذلك؛ إذ نلاحظُ أنَّ الطفلةَ التي لم تولَد بعْد تستمعُ بالفعل من داخل الرَّحم إلى أصوات الوالدَين، وبعد ولادتها ستمضي الأشهر التالية في سماع الكلمات التي يتحدَّثانها ويهمسانها ويغنِّيان بها إليها، إلى أن يجيء ذلك اليومُ حيث ستبدأ في ترديد تلك الكلمات مقطعًا تلو الآخر.

وإذا أردنا التمكُّنَ مِن لغة أجنبيَّة، فعلينا سماعُ آخرين يتحدَّثون بها قبل أن نتمكَّن من إعادة إنتاج الأصوات التي سمعتْها آذانُنا، وفي السنوات الباكرة للموسيقِّيين، ينغمسُ المبدعون في الاستماع إلى الألحان التي تسكن في نفوسِهم، وستخرجُ يومًا ما من آلاتهم. ونحن نمضِّي زمنًا طويلًا من سنين نشأتِنا بينما نستمعُ إلى المعلِّمين في المدرسة، وإلى والدَينا في البيوت، وإلى القصص التي يخبرنا بها الكتابُ المقدَّس في الكنيسة.

وعند النظر إلى بدايات الكون في سِفر التكوين نفهمُ أنَّه كان يفتقد إلى التنظيم، لكنْ كانت له بطريقة ما أذنًا؛

لأنَّ أوَّل فعلٍ له كان الاستماعَ إلى ‘‘الصوت’’ الذي يخترق الظلام، فالله يأمرُ قائلًا: ‘‘ليكُن نور’’ فيسمعُ الكونُ ويطيع، وبأعمال استماع يزيحُ النظامُ والتناغمُ الفَوضى الكونيَّةَ، ويخلقُ الله في ستَّةِ أيَّام منذ بداية خلقِ العالم المُنصِت أوَّل البشر، وكان عملُهم الأصليُّ هو سماعَ البرَكة ليملأوا الأرضَ بآخرين يحملون الصورةَ ذاتها مُستمعين إلى الله؛ فالاستماعُ أساسيٌّ لمعنى أن نكون بشرًا.

ونجدُ في الكتاب المقدَّس كلِّه أنَّ الاستماع هو العمل المركزيُّ لشعب الله؛ فهُم أولئك الذين يتجمَّعون ويتكوَّنون بصوتِه ويتماسكون بكلمتِه، ويسمعون مواعيده وأحكامه وإرشاداته وتحذيراته وتطميناته ونُصحه.

ويبدأ محورُ حياة صلاة الشعب القديم بكلمة ‘‘شماغ’’ (Shema)، أي اسمع: ‘‘اسمع يا إسرائيل: الربُّ إلهنا ربٌّ واحدٌ’’ (تثنية ٦: ٤). ويتعلَّم الأطفال اليهودُ تَكرارَ هذه الكلمات حين يستيقظون في الصباح وحين ينامون،

فتتشكّل حياتُهم من الفجر إلى المساء حول الاستماع.
ويصير المرءُ تلميذًا بالسماع؛ فالاستماع هو أوَّل عمل تلمذةٍ نراه حين يطرحُ بعضُ الصيَّادين شباكَهم ويتبعون يسوع حين يدعوهم، والاستماع هو العملُ الجوهريُّ في تدريبِهم حينَ يستمعون طوالَ الطريق من الجليل إلى أورُشليم، ويذكِّرُنا بولس أنَّ السماع ينبغي أنْ يأتي قبل الإيمان، بل إنَّ الإيمان ينبثقُ من السماع، ويستطرد متسائلًا كيف يمكن أنْ يؤمنَ شخصٌ بشخص لم يسمعْ عنه بتاتًا: ''إذًا الإيمانُ بالخبر، والخبرُ بكلمةِ الله'' (رومية ١٠: ١٧). وينصحُ الرسولُ يعقوبُ سامعيه أن يكونوا مُسرعين في الاستماعِ مُبطئين في التكلُّم (يعقوب ١: ١٩)، وتحذِّرُنا الحكمةُ القديمة أنَّ ''مَنْ يجيب عن أمر قبل أنْ يسمعَه، فله حماقة وعار''، وهذا هو النموذج الذي تتطلَّبه الحياةُ: أن نستمع قبْل أن نتحدَّث؛ أن نتعلَّمَ قبل أن نُعلِّمَ؛ أنِ نسمعَ الدعوةَ قبل أنْ نقود؛ أنْ نتشبَّع بالكلمة قبل أن نَعِظَ بها.
لكنَّنا في مرحلةٍ ما نبدأ في انتهاكِ هذا النظام الطبيعيِّ

للأشياء، إذ نُعطي أولويَّةَ للتعبير عن آرائنا وتأكيدِ ذواتنا، وهي أولويَّةٌ تفوقُ أولويَّةَ الاستماع، فنقاطع شخصًا آخر لقناعتِنا أنَّنا نعرفُ بالفعل ما سيقولُه، ونبدأ في الاستحواذ على مساحة أكبر من المساحة التي نسمح بها للآخرين، حاسبينَ أنفسَنا خبراء في مواضيع معيَّنة ولا نحتاج إلى تعلُّم شيءٍ آخر. وقد نُملِي على الله ما ينبغي أن يعطيه بدلَ أن نسألَه ما يريدُ هو أن يعطيَه، ونساهمُ بالتحدُّث والمشاركة، ونؤكِّد هُويَّاتنا باتِّخاذ مواقف لفظيَّة، صارخين ومنادين برسائلنا من على الأسطح دون أن نعرف جمهورنا ولا ما يحتاجُ إليه. كما أنَّنا نرى الآخرين بوصفهم مشاريعَ لا بشرًا لهم قصص فريدة يجب سماعُها، ونحسب أنَّ أعظَمَ مهمَّة مسيحيَّة لدينا هي أن نَعِظَ بدلَ أن نتَّخذَ وَضعَ الاستماع الذي يُفترَضُ أن يكونَ لخادمٍ، فنتحدَّثُ كما في مجلَّداتٍ بينما نستمع في قصاصاتٍ.

حين يدوم هذا النموذج المقلوب نجدُ أنفسَنا نبني حياةً تحمينا من الاضطرار إلى الاستماع بحقٍّ، فننتقل إلى

كنائس وأحياء تكتظّ بأناسٍ تتوازى آراؤهم مع آرائنا، متحاشين التنافرَ الذي تخلِّقُه الأصوات المغايرة، بانين أماكن تُردِّد صدى أفكارنا اللاهوتيَّة والاَجتماعيَّة، ونحجِّر معتقداتنا ونتوقَّف عن طرح الأسئلة، وكان الرجاء العظيمُ لشبكة الإنترنت هو أن يسودَ الحوارُ، وينضمَّ أناسٌ يختلفون في لاهوتهم ومنظورهم وسياساتهم ليتعلَّموا وينموا ويتواصلوا مع أولئك الذين لا يتَّفقون معهم، لكنْ يبدو أنَّ وسائلَ التواصلِ الاجتماعيِّ ساعدت الناسَ ليتواصلوا مع مَن لهم ميولٌ مشتركة، فكانت النتيجة المؤسِفة هي الوصول إلى معتقداتٍ مكثَّفة وراسخة أكثر تطرُّفًا، لذا صِرْنا نستقرُّ قابِعينَ في أركاننا الصغيرة الخاصَّة التي تحملُ الحقيقةَ التي نؤيِّدُها.

ما يصوِّرُه الكتابُ المقدَّس من بيتٍ للإيمان يصيرُ تفريقًا للمعسكرات، ويتحوَّلُ إلى أناسٍ يستدفئون بنيرانِهم، ويصيحون بهتافات الحربِ الخاصَّة، ويستَمِعون فقط إلى قادتِهم، ويتعاملون فقط مع

المعسكرات الأخرى عند قذفهم بالسهام.

يقول أستاذُ علمِ النفس دي□يد بَنِر (David Benner) إنَّ عقبةً كبيرةً من العقبات التي تواجه النموَّ في قدراتِنا على الاستماع هي أنَّ معظمنا يعتقد بالفعل أنَّنا مستمعون جيِّدون[١]، ويستندُ هذا الكتابُ إلى فرضيَّة أنَّ معظمنا لسنا مستمعين جيِّدين، ويقول معالجون أعرفُهم إنَّ الكثيرين مِن عملائهم يلتقونهم لمجرَّدَ أنَّهم لا يجدون مَن يستمعُ إليهم في إطار علاقاتهم الأهمِّ، ودونِ الانتقاص من قيمة العلاج المتخصِّص، أقول إنَّ حقيقةَ إنفاقِنا ملايين الدولارات سنويًّا ليستمع إلينا الناس إنَّما تشيرُ إلى فقرِنا في هذا المجال؛ فالكلُّ يتكلَّم، لكنَّ قليلين جدًّا يُسمَعون حقًّا.

نحتاج إلى تعلُّم كيفيَّة الاستماع لأنَّ كلَّ الكلام الذي في العالم لن يجعل علاقاتنا بالشكل الذي نريدُه، ولن يحوِّلَنا إلى نوع البشر الذي نريد أن نكونه، ولن يرتوي توقُنا إلى الحميميَّة بواسطة محادثاتٍ باتِّجاه واحدٍ وتفاعلات تبدو كأنَّها مسابقاتٌ يتنافسُ فيها طرفان؛ فلن

تتحقّقَ رغبتُنا في أن نتغيَّر بالتعبير عن كلَ الضوضاء التي في نفوسِنا، ولن تُكتشف هُويَّاتُنا بالوصول إلى صَوتِنا الخاصِّ بمفردنا وبمعزلٍ عن الآخرين، بل سنصلُ إلى صوتِنا الخاصِّ بمساعدةِ آخرين ليَجِدوا هم أيضًا أصواتهم.

نتعلَّم كيفيَّة الاستماع لأنَّنا نريد تعلُّمَ كيفيَّة الحبِّ، وكيفيَّة ممارسة حُسن الضيافة، وكيفيَّة استقبال البشر في حياتنا حقًّا. نريد أن نكونَ مُستمعي قصصٍ لا مجرَّدَ قَصَّاصين، كما نريد أن نجدَ الهدوء والسكونَ الداخليَّ الذي سيجعلنا ننفتح على التغيير، ونريدُ أخيرًا تعلُّم كيفيَّةِ الاستماع لأنَّنا نريد أن نكونَ أكثرَ إنسانيَّةً.

لم آخذ موضوع الاستماع على محمَلِ الجِدِّ إلَّا حين أدركتُ أنِّي لستُ وسيمًا بما يكفي للحصول على انتباه النساء بأيَّة وسيلة أخرى، ولستُ فخورًا بالاعتراف بهذا. ففي الجامعة استعرتُ من صديقةٍ نسخةً من كتاب ''الرجال من المريخ والنساء من الزهرة'' *(Men Are from Mars, Women Are from Venus)*[٢]، بل أخذتُ الكتاب من

غرفتها في المدينة الجامعيَّة دون إخبارِها بذلك؛ إذ كنتُ أشعر بِحَرج من قراءته، ولا يزال هذا الكتاب عندي. لقد تعلَّمتُ من ذلك الكتاب أنَّ النساء مستَمعات وأنَّ الرجال حلَّالو مشكلات، وصرفتُ النظرَ عن ذلك بوصفه صورةً نمطيَّة، لكنِّي استخدمتُ أفكارَ الكتابِ في ذلك الوقت من أجل التوقُّف عن محاولة حلِّ كلِّ شيء ولأكون فقط متاحًا مع الناس، فكنتُ أخطِبُ وُدَّ الناسِ بتواصل العينَين، وإعادة صياغة عباراتِ مَن يتحدَّثُ معي لأعبِّر عن فهمي لما يقولُه، وأيضًا بتعبيرات الإنصات النشط الموحِية باستماعي المتأنِّي.

من السهل الاستماع في بداية أيَّة علاقةٍ؛ ففي الأشهر الأولى لا يمكنُك توقُّع المحادثات المستقبَليَّة حين تجلس هناك صامتًا مُمسكًا لسانَك، بينما تستجمعُ قوَّة إرادتك مانعًا نفسَك من مقاطعة شخص ما يقولُ شيئًا ما تختلف فيه معه، وفي تلك اللحظات تَبدو حقيقةً غايةً في الظُّلم أنَّ لدينا أذنَين وفمًا واحدًا، لكنْ حينَها يبدأ حقًّا عملُ الاستماع الحقيقيِّ، لكنَّه أمرٌ آخر تمامًا أن تستمرَّ في

ممارسة انضباط الاستماع قبْل أن تتحدَّث.

يحرِّكُ هذا الكتابَ سؤالٌ، وهو: كيف يمكن أن تتغيَّرٍ علاقاتنا؟ وكيف يمكننا أن نتغيَّر إذا تعاملنا مع كلّ موقف بنيَّة الاستماع أوَّلًا؟ وماذا لو تعاملنا مع علاقتنا بالله بوصفنا مستمِعين؟ ماذا لو نظرنا إلى علاقتنا بالطبيعة بوصفها علاقة استماع؟ وماذا لو تعاملنا مع علاقاتنا باستخدام آذاننا بدلَ أفواهنا؟ وماذا لو سعينا إلى الاستماع إلى مشاعرنا قبل أن نأمرَ تلك المشاعر ونعظَها؟

مع أنَّ الاستماعَ مركزيٌّ فِي خدمتي الرعويَّة، فلا تزال رسالة الاستماع رسالةً أحتاج إليها، ويُقال إنَّ الرعاةَ يقدِّمون العظات التي يحتاجون هم إلى سماعها أكثر من أيِّ شيء آخر، وها أنا أكتب هذا الكتاب لأنِّي أحتاج شخصيًّا إلى سماع محتواه، وأحتاج إلى تذكير نفسي أنَّه ما من شيء قد غيَّرني كما فعلَ الاستماعُ؛ إذ لم يكنِ المحتوى الذي تلقَّيتُه بالاستماع- من كلمات الآخرين وقصصهم وهمساتِهم- هو ما غيَّرني، بل عمل

الاستماع نفسه؛ فهناك شيء ما بشأن السكون والانتباه إلى شخصٍ ما، أو إلى ''شخصه الكريم''، سامحًا له بإدارة الحديث ومُمسكًا بدفَّة المحادثة ليحرِّكَها إلى حيث يريد الذهاب؛ فذلك في ذاته أمرٌ مغيِّرٌ.

في قانون القدِّيس بَنديكتوس (St. Benedict)، هناك نصٌّ مشهور قاد حياةَ مجتمعات الرهبنة منذ القرن السادسِ، نجدُ فيه الكلمةَ الأولى استمع، وأقولُ هنا أنِّي أودُّ حقًّا لو نعيدُ الاستماع إلى مكانته- إلى بداية الكلِّ، في كلِّ جانبٍ من جوانب الحياة والإيمان؛ فليس الاستماعُ أمرًا نعمله فقط في المراحل الإعداديَّة من الحياة، كما لو كان مرحلةً نكبرُ عنها حين ننمو ونصل إلى عمرٍ معيَّن، وليس مجرَّد دواءٍ لذيذٍ نحتاج إلى حقن المزيد منه في علاقاتنا، بل ينبغي للاستماع أنْ يكونَ في قلب روحانيَّتِنا وعلاقاتنا وخدمتنا بوصفنا جسد المسيح وعلاقتِنا بالثقافة وبالعالم، ونحنُ مدعوُّون لنتعامل مع كلِّ شيء بهدف الاستماع أوَّلًا، ودعوتُنا هي للاشتراك في حياة الاستماع.

جدول المحتويات

المقدِّمة ٩
الفصل الأوَّل: حياةُ الاستماع ١٧
الفصل الثاني: الملكُ المستمع ٣٩
الفصل الثالث: الاستماع إلى الله ٦٣
الفصل الرابع: الاستماع إلى الكتاب المقدَّس ١٠٣
الفصل الخامس: الاستماع إلى الخليقة ١٢٥
الفصل السادس: الاستماع إلى الآخرين ١٥٧
الفصل السابع: الاستماع إلى المتألِّمين ١٩١

الفصل الثامن: الاستماع إلى حياتك ٢١١
الفصل التاسع: مجتمعُ الاستماع المعكوس ٢٤٥
الخاتمة ٢٥٧
الملاحظات ٢٥٩

الفصل الأوَّل

حياةُ الاستماع

في أغلب الأحوال لن تتضمَّن قائمتُك للكتب المغيِّرة للحياة أيَّ نوع من القواميس؛ فذلك يحتاج إلى نوعٍ غريبٍ من الهوس اللغويِّ، وقليلون يجرأون على التصريح به. لكنِّي أعترف أنَّ واحدًا من أهمِّ الدروس التي تعلَّمتُها كان من أحَدِ القواميس، وكان قاموسًا ضخمًا متخصِّصًا يُفصِّل أصول الكلمات، وأكادُ أجزمُ أنَّ نسخة القاموس التي ألقيتُ بها على طاولة المكتبة قد أحدَثتْ تشقُّقًا في أرجل الطاولة، لكنَّها سرعان ما بدأت في شفاء الكسر الذي كان في ذهني. وقبل أن أفتحَ القاموسَ كنتُ أعرفُ أنَّ للاستماع قوَّةً لشفاء الانقسامات، إذ يمكن أن يقلِّل الاستماعُ الهوَّةَ ما بين الناس الذين يعانون صراعًا، وهو قادرٌ على تحويل الطُّرقِ المسدودةِ إلى فُرصٍ للتعلُّم، واكتشاف حلولٍ من مواقفَ تبدو مستَعصِية. لكِنْ لم تكُنْ لديَّ أدنى فكرة أنَّ

للاستماع القدرةَ على شفاء الشقِّ ما بين هذين العدوَّين الذين يُضربُ بهما المثل في الاختلاف: السماع والعمل.

يوضَع هذان المتنافسان المريران أحدُهما في مواجَهةِ الآخر في بعض مقاطع الكتاب المقدَّس، مع إعلان أنَّ العمل هو المُفضَّل، حيث يقول بولس الرسولُ إنَّه ليس أولئك الذين يسمعون الناموس بل مَن يعملون الناموس هم الأبرار. ويحذِّر الرسولُ يعقوبُ أولئك السامعين الخادعين أنفسَهم الظانِّين أنَّهم لا يحتاجون لأنْ يكونوا فاعلين. ويُنهي يسوع عِظَتَه على الجبل مُشبِّهًا مَن يسمعون كلماته ولا يعملون بها ببيتٍ بُني على الرَّمل. فأمامَنا تحذيراتٌ واضحةٌ أنَّه لا يمكن الوثوق بالسَّماع وحده، وأنَّ العمل هو علامةُ الأُمَناء، ويبدو الأمر كما لو أنَّ السماعَ هو مجرَّدُ قناةٍ ضيِّقة تصبُّ في بحر العمل العميق، ومع ذلك علَّمني القاموسُ المتخصِّصُ أنَّ التميُّز الحادَّ ما بين السماع والعمل هو ليس نتيجة تقسيم بشريٍّ لأمرَين ينتمي أحدُهما إلى الآخر، بل علَّمَني الدرس التاليَ: أنَّ للكلمتَين "يستمع" (Listen)

و"يُطيع" (Obey) الجذرَ اللغويَّ الأصليَّ نفسَه، ففي اللاتينيَّة لم تكُن لكلمة "يُطيع" أنْ توجد دون كلمة "يستمع". والكلمة التي نترجمُها في الإنكليزيَّة "طاعة" (Obedience) تعني حرفيًّا "الاستماع من أسفل". فالطاعة هي استماعٌ عميق- استماعٌ كما من شخص متكامل، سماعٌ بأذنَيك وبقلبك وبذراعَيك ورجلَيك.

لا تتوقَّفُ هذه الرحلة اللُّغويَّة الشيِّقة عند اللاتينيَّة، إذ يظهرُ الاتِّصالُ العميق ما بين الاستماع والطاعة في اليونانيَّة والعبريَّة أيضًا، وهما اللغتان الأساسيَّتان للكتاب المقدَّس، ويمكن أن تُترجَمَ الكلمتان "يستمع" أو "يسمع" بسهولةٍ إلى "يطيع" أو "يولي عناية". علاوة على ذلك، فإنَّ جذرَ الكلمات التي تُترجَم في العهد الجديد اليونانيِّ إلى "يطيع" و"طاعة" هو يستمع.* وهنا نرى أنَّ الاستماع والطاعة لا ينفصلان فهما متَّصلان اتِّصالًا وثيقًا، حتَّى إنَّنا نحسبَ الذين لا يعملون بناءً على ما يسمعون أشخاصًا لم يستَمِعوا

استماعًا حقيقيًّا، أو كما صاغها الأستاذ هوارد هندريكس (Howard Hendricks): ‘‘بحسب الكتاب المقدَّس، أن تسمع ولا تفعل يعني أنَّك لم تسمع أصلًا’’. ١

الاستماع بوصفه طاعةً

يظهرُ التفاعلُ ما بين الاستماع والطاعة في حياتنا كلَّ الوقت، فلِلصَّوت القدرةُ على ‘‘إصدار الأوامر’’ لنا، واستدعاء استجابةٍ فينا، فارضًا علينا الانتباه، وعلى خلاف المنبِّهات البصريَّة، تتميَّزُ بعضُ الأصوات بأنَّه لا مفرَّ منها، إذ تجتاحُنا وليس لدينا ‘‘جفون للأذنَين مثل العينَين’’ يمكننا أن نغلقهما لتَحمَينا من تلك الأصوات[٢]؛ فحاسَّة السمع لدينا هي منظومة التنبيه لأجسادنا، ويقولُ عالمُ الأعصاب سيث هورويتز (Seth Horowitz) إنَّ عقولَنا تتعاملُ مع الأصوات المهدِّدة في زمنٍ مقداره عُشرُ ثانية، ‘‘رافعةً معدَّل ضرباتِ قلبِك، ومسبِّبةً انحناءَ كتفَيك، جاعلةً إيَّاك تفتِّش حولَك لترى ما

إذا كان ما سمعتَه سينقضُّ عليك ويأكلُك"[٣]، فأجسادُنا تستجيبُ لاإراديًّا لأصوات معيَّنة أو تطيعُها. فإذا صرخ أحدُهم متألِّمًا، فإنَّنا نلاحظ أنَّ أجسادنا تهتزُّ لحظيًّا متحوِّلةً إلى اتِّجاه الصارِخ، وصوت سيَّارةِ الإسعاف خلفَنا تجعلنا نتحرَّك إلى جانب الطريق كما لو كان الأمرُ غريزيًّا، وصوتُ آلات تكسير الصخور يقطعُ حبلَ أفكارِنا مجتاحًا عالمَنا دون استئذانٍ، وفي كلِّ ذلك نرى أنَّ الصوتَ يدعونا إلى الانتباه[٤]، وحين ينطقُ شخصٌ ما باسمِك في غرفةٍ مزدحمةٍ صاخبة، حتَّى إذا لم يتحدَّث إليك، تجد نفسك تتوجَّه إلى مصدر الصَّوتِ، ثمَّ هناك الموسيقا أيضًا، فيمكن أن تدفعَنا أغنيةٌ ما بلحنِها حتَّى إنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نتحرَّكَ بها، ونعرفُ جميعًا القوَّة التي للموسيقا في تشكيل حالاتنا المزاجيَّة وإثارة مشاعرنا، بل في جعْلنا نتَّخذ القراراتِ ونأتي بتصرُّفاتٍ، وتصبح الموسيقا أمرًا تستجيبُ له أجسادُنا ومشاعرُنا، ويكون الرقصُ (تحريك الجسدِ) هو طاعتُنا للموسيقا.

في حديثنا اليوميِّ نتواصل باستمرار بشأن احتواء الاستماع على أكثر من مجرَّدِ حاسَّةِ السَّمع؛ فالشكوى التي أسمعُها من الوالدَين أكثر من أيَّة شكوى أخرى هي أنَّ أولادَهم لا يستمعون إليهم، ولصديقي مارك (Mark) طفلٌ مفعمٌ بالحيويَّة في الثانية من عمره، ويقول مارك إنَّ ابنَه ‘‘يمرُّ الآن بمرحلة توكيد استقلاله عنَّا، ويمارسُ ذلك بالقيام بعكس ما نقوله تمامًا. ويبدو الأمرُ أصعب وأصعب أنْ نجعلَه يستمع الآن’’. وحين يقول الوالدون إنَّ أولادَهم لا يستمعون إليهم يعنون بذلك أنَّهم لا يطيعونهم. ومَن منَّا لم يختبر الموقف حيث تقود سيَّارتَك وتأخذ طريقًا مختلفًا عن ذلك الطريق الذي اقترحه مَن يجلس إلى جوارك ثمَّ تتوه وتأتيك كلماتُه موبِّخةً: ‘‘كانِ عليك أن تستمعَ إليَّ!’’ بمعنى: ‘‘كان عليك أن تعملَ ما قلتُه لك’’، لذلك لا يمكنُ افتراض أنَّ الاستماع ممتعٌ دائمًا!

يقولُ عالِمُ النفس والباحث في شؤون الزواج جون غوتمان (John Gottman) إنَّ واحدًا من المعايير الرائدة

لقياس الزواج السعيد هو ما إذا كان طرفا الزواج يسمحان لنفسَيهما بأن يتأثَّرا بالشخص الآخر[٥]، أتُغيِّرهُما علاقتُهما أم يصيران أكثر رسوخًا وتمسُّكًا بطرقهما القديمة؟ التأثُّر بشخص آخر هو إشارة أكيدة إلى الاستماع الحقيقيِّ؛ لأنَّهً يعني أنَّ اختياراتك وأعمالك تتبعُ ما تلتقطه أُذُناك. ومن الواضح أنَّ الاستماع مهمٌّ في الزواج، ويا له من أمرٍ غريب!

يقولُ عالِمُ العهد الجديد سكوت ماكنايت (Scot McKnight) إنَّ كلمة يستمع تظهرُ في الكتاب المقدَّس أكثر من ألف وخمس مئة مرَّة، وإنَّ أكثر الشكاوى المُعبَّر عنها في الكتاب المقدَّس هي أنَّ الشعب لا يستمع[٦]، وإشعياء ٤٨: ٨ حادٌّ في هذا الصدد، إذ يقول:

"لم تَسمعْ ولم تَعرفْ، ومنذ زمان لم تنفتحْ أذنُك، فإنِّي علِمْتُ أنَّك تغدر غدرًا، ومِن البطن سُمِّيتَ عاصيًا".

حين تنغلق أذناك، فإنَّك لا تخضعُ لأوامر الله، وتُسمَّى

عاصيًا.

ليس الاستماعُ أمرًا سلبيًّا أو توقُّفًا مؤقَّتًا، وليس مجرَّدٍ مكمِّلٍ دونَ قيمةٍ إلى أن تبدأ مرحلة العملُ وتُحلَّ المشكلةُ؛ فالاستماعُ بحسِب الكتاب المقدَّس هو استماعٌ من كلِّ القلب ومن كلِّ الجسد- استماعٌ تصلُ ذبذباتُه ليس فقط إلى طبلة الأذن بل ينتشرُ صداه في نفوسنا ويرنُّ في أطرافنا، والصورة المشهورة التي يقدِّمُها يوحنَّا عن يسوع بوصفه "كلمة الله" تعني أنَّ حياةَ يسوع المتجسِّدة بأكملها، وليس فقط أمثاله وعظاته، هي تعبيرٌ عن ذهن الله، فحياته هي حديثٌ الله إلينا، ومطلوبٌ منَّا في المقابل أنْ نستمع بكلِّ حياتنا. ولا نكونُ مستَمِعين حقًّا ما لم نستجِب ليسوع بكلِّ قلبنا وفكرنا ونفسنا وقدرتنا، ويحدث هذا النوع من الاستماع في حالةٍ مستمرَّة من الحركة.

السماع والاستماع

إلى الآن أستخدمُ السماع والاستماع بالتبادل، ولغرض التسهيل سأتحرَّك جيئة وذهابًا ما بين هاتَين الكلمتَين

في هذا الكتاب، والكتاب المقدَّس لا يميِّز بين الاثنتَين تمييزًا حاسمًا، رغم أنِّي أظنُّ أنَّ الربَّ حين يقول على فم إشعياء: ''اسمَعوا سمعًا ولا تفهموا'' (إشعياء ٦: ٩) أنَّه يقدِّم هنا تمييزًا، فالسمع عمومًا هو إحدى الحواسِّ الخمس، وهو الحاسَّة التي تعتمدُ على آذاننا وعلى تعامُل عقلنا مع الأصوات التي يستقبلُها، وهي حاسَّةٌ لحظيَّةٌ لاإراديَّةٌ، فالسماع هو أمرٌ يحدث لنا، إذ تُجبرنا الأصواتُ على الانتباه، و''نطيعُها'' غريزيًّا بواسطة استجابات جسدنا.

على الجانبِ الآخر، الاستماع هو أمرٌ نختاره؛ لأنَّه يعني ممارسةَ الانتباه المُركَّز. فإذا كان السمع هو عملَ الحواسِّ، فالاستماع هو عمل الإرادة. في الاستماع، تثبِّت ليس فقط أُذُنَيك بل أيضًا ذهنَك وقلبَك ووضعيَّةَ جسمك على شخصٍ أو شيء سواك. لذا هو طاعة مُختارة، مثل جنودٍ يصطفُّون في اللحظة نفسها التي يدعوهم فيها ضابطُهم إلى الانتباه.

يُقدَّم الاستماعُ أحيانًا بوصفه بلسمًا لجعْل علاقاتنا تستمرُّ في سلاسةٍ وسلام، ولجعْلنا أكثر درايةً باحتياجات الناس من حولنا. ورغم أنَّ الأسباب التي تتعلَّق بالعلاقات ‘‘ما بين الأشخاص’’ قيِّمة وأساسيَّة، فأعتقد أنَّ هناك أيضًا أسبابًا عميقة ‘‘داخل الشخص’’ تشجِّع على تعلُّم كيفيَّة الاستماع. فحين كان الاستماعُ صعبًا عندي، كانت هذه المُحفِّزات الشخصيَّة هي ما جعلتني أستمرُّ، وقد كرَّستُ نفسي وأعدتُ تكريسَها للاستماع لأنَّه يحوِّلني إلى نوع الشخص الذي أتمنَّى أن أكونَه.

بداية التلمذة استماعٌ؛ فعلى كلمةِ يسوع طرحَ أتباعُه الأوائل شباكَهم وتبعوه، وبالتأكيد ينبغي للتلمذة أن تتضمَّن أكثر من حدث استماع واحد، بل هي رحلةٌ مستمرَّةٌ من الاستماع، والتلاميذُ هم مستمعون يسيرون مع معلِّمهم. وإذا اعتقدنا أنَّ كنيسة اليوم تنقصُها التلمذة، فيجب التركيزُ على تعليم الناس كيفيَّة الاستماع.

يحتلُّ الاستماعُ أهمِّيَّة تجعل يسوع يخصِّص أوَّل

أمثاله له (مرقس ٤: ١-٢٠)، وفي بشارة مرقس يضعُ يسوعُ إطارًا لمثل الزارع بالكلمة الافتتاحيَّة "اسمعوا!" وبالتعبير الختاميِّ "إنْ كان لأحدٍ أذنان للسمع، فليَسمعْ"، والقصَّة التي تتحدَّث بشأن مُزارع ينثر البذار دون تمييز على أنواعِ مختلفة من التربة هي قصَّةٌ تتناوَلُ فعلًا أنواعًا مختلفةً من السامعين؛ فهناك سامعو الطريق، وهم أولئك الذين لا يسمعون حقًّا بل يغضُّونَ النظر عن كلمات يسوع رافضين إيَّاها، وهناك المستمعون الصخريُّون الذين يَدَعُون الكلمة تخترق قليلًا، لكنَّهم يرفضونها بعد ذلك بسبب الأصوات المعاكسة من صراع واضطهاد. وثالثًا نجد المستمعين الشائكين، الذين يستمعون لوقتٍ أطول، لكنَّهم ببطء يسمحون للقوَّة الماكرة للأصوات المغوية- وهي تكديس الثراء وبريق الأمور الماديَّة- بأن تخنق الكلمة. وأخيرًا المستمعون الحقيقيُّون المثمرون، أولئك مَن يقبلون الكلمة بعمقٍ في نفوسِهم، حيث تعمل عملَها الصحيح من الإزهارٍ والإثمار.

بحسب تعبير يسوع، يبدو أنَّ هذه المجموعة الأخيرة من الناس هُم مَن لهم ''أذنان للسمع''، وهو التعبير الذي يُربَط به الاستماع بالفهْم على ما يبدو، معامِلًا الآذان بوصفها أعضاء فهم. فأولئك مَن لهم آذان سامعة لهم مستوًى من التواصلً المتناغم بالمعاني العميقة المضمَّنة في تعليم يسوع، ولاحقًا في بشارة مرقس يحذِّر يسوعُ أتباعَه ليحترسوا بشأن ما يستمعون إليه؛ لأنَّ الكيفيَّة التي يستمعون بها ستحدِّد مدى ما يفهمونه.

يبدو أنَّ ما يفصل الأنواع المختلفة من المستمعين هو مقدارُ المجهود الذي يبذلونه في الاستماع، وما ينقصُنا من فهم يمكن أن نعوِّضه بطرْح الأسئلة. فالمستمعون الحقيقيُّون هم أولئك الباقونِ بعد أن ينفضَّ الجميعُ، أولئك الذين يتزاحمون حول يسوع ويسألونه تفسيرَ المثل، وهذه هي نوعيَّة المستمعين التي يريدُها الله: أولئك الذين يسعَون ويتعقَّبون ويتساءلون بلا هوادة، فهُم يجلسون مع كلمات يسوع كما مع صديقٍ قديمٍ تعرفه لكنَّك لا تعرفه حقًّا. وفي جلوسهم مع كلماتٍ

يسوع يمضغون ويهضمون ويستمرُّون في السعي نحو وضوح أعظم وعمقٍ في الفهم، ولا يطرحونَ الأسئلة الواحد تلو الآخر، إلى درجةٍ قد تُصيبُهُم بالإرهاق.

مَثَل الزارع، كما وضَّح الكثيرُ من علماء الكتاب المقدَّس، يصف ليس فقط الأنواع المختلفة من السامعين، بل هو يقود أيضًا إلى التقسيمات ذاتها التي يصفها. فأمثال يسوع تغربلُ أولئك ثقيلي السمع الذين يريدون التسلية ورؤية هذا المعلِّم الشهير، وهؤلاء يتبدَّدونَ بعد انتهاء يسوع من تعليمه، بينما يبقى المستمعون الحقيقيُّون.

قدَّمتُ هذا المثل في تعليمي لطلَّاب الجامعة لسنوات عديدة، وكنتُ أتعجَّبُ كيف يعكسُ سياق المحاضَرة السياقَ الأصليَّ للمثل، فبعد أن تنتهي المحاضَرة، يتوجَّه معظم الطلَّاب عائدين إلى المدينة الجامعيَّة، لكنَّ هناك طالبًا أو اثنين يبقيان ويطرحان سؤالًا تلو الآخر، أو يكتبان ملاحظاتهما في محاولة جاهدة لفَهْم ما يقوله يسوع، وتضمينات ذلك في حياتهما. وكنتُ دائمًا

أتساءل ما إذا كان هذان الطالبان هما مَن لهما آذان للسمع.

يحوِّلنُا الاستماع إلى تلاميذ، أي أولئك الذين يتعلَّمون ويتبعون ويخضعون للربِّ، ويحوِّلنا الاستماعُ أيضًا إلى خُدَّام، فمَن يكونُ الخادمُ إنْ لم يكُن مستمعًا مطيعًا؟ ويمكننا إعادةُ صياغةِ كلمات يسوع الشهيرة عنِ الخدمة محتفظين بالمعنى نفسه كالتالي: ‘‘أنتم تعلمون أنَّ رؤساء الأمم يُخبرون الناس ماذا يعملون، وأنَّ عظماءهم يتوقَّعون أن يسمعَهم الناسُ، فلا يكون هكذا فيكم، بل مَن أراد أن يصير فيكم عظيمًا ينبغي أن يستمع، ومَن أراد أن يصير فيكم أوَّلًا، يكون للجميع مستمِعًا’’ (انظر مرقس ١٠: ٤٢-٤٣)، فليسوع، يبدو الملكوتُ معكوسًا والموائد مقلوبة، وأولئك مَن يكونون في وَضْعِ أن يُخبِروا الناسَ بما يَعمَلون يصيرون مستَمِعينَ، وإذا كان الاستماعُ في عالَم الأمم يتدفَّق من أسفل إلى أعلى، ففي ملكوت يسوع يكون من أعلى إلى أسفل.

كثيرًا ما نحاول نوال السيطرة بكلماتنا، والاستماع إذا تمَّ جيِّدًا يتنازل عن القوَّة، فتعهُّد الاستماع هو أَحَدُ أفضَلِ علاجات السُّلطة والامتياز؛ فالمستمع الخادم لا يتسلَّط على المحادثة، بل يحوِّل الخُدَّامُ الانتباهَ بعيدًا عن أنفسِهم مركِّزين انتباهَهم على احتياجات الآخرين واهتماماتهم، والدعوة إلى الخدمة هي في قلب البشارة؛ لأنَّها دعوةٌ لنتَّضعَ ونخليَ أنفسنا من ذواتنا وأهدافنا، مُخضِعين أنفسَنا للربِّ وللآخرين. والاستماع الخادم هو ممارسة الحضور الذي فيه ننحِّي جانبًا ما يمكن أن يشتِّت انتباهَنا وما نظنُّ أنَّه يجب أنْ يحدث في لحظةٍ أو في محادثةٍ ما، فهو عملُ اتِّضاع، نعترف فيه أنَّه بغضِّ النظر عن الشخص الذي نستمِع إليه فقد أتينا لنتعلَّم، والاستماع الخادم هو عملُ تسليم، نضع فيه أسلحتَنا الكلاميَّة جانبًا، وكلَّ أفكارنا المعدَّة سابقًا، وكلَّ نصائحنا السريعة ورغبتنا في توجيه دفَّة الحديث إلى أنفسِنا، إذ نُرخي قبضتَنا على شروط المحادثة واتِّجاهِها.

نعشقُ الكلامَ عن الاستماع، فهو أسهلَ من الاستماع نفسه، وهناك الكثير من التملُّق وخدمةِ الشفاه المُمارَسة نحو الاستماع، لكنَّ الاستماع هو خدمة الأذن والذهن والقلب، فالاستماع هو عمل من أعمال الخدمة والخدمة شاقَّة، وما مِن مكافآت في الخدمة، فحين يقومُ خادمٌ ما بوظيفته لا يلاحظ أحدٌ، وإذا كانت رغبتنا هي أنِ نحاكي يسوع ونصير خُدَّامًا، فينبغي لنا أن نتعلَّمَ كيفيَّةَ الاستماع.

أصواتٌ كثيرةٌ جدًّا

كانت الأمور تتَّسمُ بالغرابة، فبعد أن كان يِسوع قد جذبَ وراءه بعضًا من تلاميذه ليصعدوا الجبل؛ ورُغمَ أنَّه صعد الجبل وكان وجهُه طبيعيًّا، فقد صار وجهُه الآن مختلفًا: صارَ ناصعَ البياض، ويلمعُ مثل ألماسة في الشمس، ثمَّ هجمِ على الحفل ضيفان لم يدعُهما أحدٌ، وكانا مألوفَين ألفةً غريبةً- إذ كانا رجلَين يبدو أنَّهما مستَمتِعان بوُجودهما على قمم الجبال ووجهاهما يلمعان، لكنَّ بطرس كعادته في وجه الحالات المثيرة،

كانت لديه خُطّة، فقال: ‘‘يا ربُّ، لمُّ الشمل هذا لهو أعظم لمِّ شملٍ في التاريخ، أنت وموسى وإيليَّا تحتفلون معًا وتتكلَّمون عن الذكريات الماضية، فما رأيُك إذا ثبتُّ أنا ويعقوب ويوحنَّا بعضَ الخيام ليستمرَّ هذا الاحتفال؟’’ ثمَّ تلى ذلك صمتٌ غريبٌ كما يليق بالكتاب المقدَّس.

لحُسن الحظِّ، جاءت سحابةٌ متكلِّمةٌ وجعلت الموقف أقلَّ غرابة. عبرت فوقَهم، وأرعد صوتٌ من داخل السحابةِ يقول: ‘‘هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا’’، ثمَّ انصرف موسى وإيليَّا من الحفل (انظر مرقس ٩: ١-٨).

مع كلِّ ما في التجلِّي من البصريَّات الدراميَّة والحضور النبويِّ، فإنَّ القصَّة تتعلَّق في النهاية بالاستماع، لا سيَّما بشأن مَن ينبغي لنا أن نستمعَ إليه؛ فالصوت الأوَّل الذي ينبغي لنا الاستماع إليه هو صوتُ يسوع، لأنَّ لصوتِه شهادةً إلهيَّة، وينبغي أيضًا الحذر بشأن كيفيَّة الاستماع، فالحياة في هذا العالم متعدِّدة

الأصوات تعدُّدًا بالغًا، وهي ملآنة بأصوات لا حصر لها تدعونا للتَّجاوُبِ معها.

قبل بضع سنين تناولتُ غداءً لا يُنسى مع صديقيَّ مايك وكلاوديا، وكانا قد عادا مؤخَّرًا من مالاوي، البلد الصغير في جنوب شرق أفريقيا. كنَّا جالسين إلى مائدة في أحد تلك المطاعم الَتي تقدِّم قائمة طعام من سبع وعشرين صفحة، وكانت تلك المائدة هي نافذتي المطلَّة على الصدمة الحضاريَّة؛ فما إن التقط مايك وكلاوديا قائمة الطعام حتَّى ظهر عليهما قَلقٌ قطٌّ أبهرته أضواء سيَّارة إبهارًا صادمًا، وجاء النادل وذهب عدَّة مرَّات محاولًا أخْذ طلباتنا لكنَّ مايك وكلاوديا لم يستطيعا أن يُقرِّرا ماذا يأكلان، إذ أصابهما العجزُ جرَّاء التنوُّع الشديد في الاختيارات، وشرحَتْ كلاوديا قائلةً: ‘‘في مالاوي، لديك اختيار ما بين دجاج أو دَجاج من نوع آخر، أمَّا هنا فتوجد اختيارات كثيرةٌ جدًّا! والكلُّ يبدو جيِّدًا’’.

لدينا مائدة لا نهائيَّة من الاختيارات، وكلُّها تبدو طيِّبةً،

وسواء أدركنا ذلك أم لم ندركه، تُغرينا باستمرار نغماتُ أصواتٍ متنافرةٍ تصارعُ من أجل الحصول على نفوسنا، وكلٌّ منها يغوينا بوعود الشبع، ويقول خبراءُ التسويق إنَّ الأميركيِّين سُكَّان المدن الكبيرة يتعرَّضون إلى خمسة آلاف إعلانٍ يوميًّا[٧]، وفي عالم مثل هذا لدينا الحرِّيَّة أن نكون مستمعين انتقائيِّين. فإذا لم ينفِّذ صوتٌ ما وعودَه، يمكننا دائمًا الاستماع إلى صوتٍ آخر يقدِّم إلينا شبعًا أكثر، ونتيجة لذلك يصيرُ معدَّل انتباهنا أقصر وتصيرُ أذواقُنا صعبةَ الإرضاء، ويمكن أن نصيرَ مستهلِكين يستحيلُ إرضاؤهم؛ لأنَّنا نظنُّ أنَّ هناك دائمًا صوتًا أكثر جاذبيَّة يتحدَّث في مكان آخر، واعدًا إيَّانا بسعادةٍ أكثر.

تتحدَّدُ إلى درجة كبيرة نوعيَّةُ البشر التي نصيرها بالأصوات التي نختارُ الاستماعَ إليها، لكنَّنا في الواقع لا نملك اختيار أن نستمع مقابل ألَّا نستمع، فكلّنا يُطيع أصواتًا معيَّنة، لذا فليس السؤال ''هل أستمع؟''، بل ''إلى أيِّ الأصوات سأستمع؟''، لكنَّ الأمر ليس مجرَّدَ

مسألةِ اختيار الاستماع إلى الأصوات الجيِّدة بدلَ الأصوات السيِّئة، فيا ليت الأمر بسهولة الملاك الهامس والشيطان الواقفين على كتفَينا! بل المسألةُ مسألةُ ما إذا كنَّا سنختار الاستماعَ إلى أصواتٍ مختلفة- أصواتٍ لا تبدو مثل أصواتِنا، فهل سنستمع إلى أصوات ثقافاتٍ وأعراق وخلفيَّات ومعتقداتٍ أخرى؟ هل سنستمع إلى الأصوات التي تربكنا وقد تجعلنا نشعر بالقلق أو الذنب؟ إذا اخترنا الاستماع فقط إلى الأصوات التي تردِّد صدى أصواتنا سنكون محدودين في نموِّنا ومتقزِّمين في روحانيَّتنا، فاختيار تحويل مؤشِّر الراديو إلى محطَّة أو اثنتَين فقط قد يكون مريحًا لكنَّه ليس مغيِّرًا؛ فالأصوات التي نريد سماعَها ليست دائمًا الأصوات نفسَها التي نحتاج إلى سماعِها.

أبوابٌ مفتوحة وأبوابٌ مُغلقة

يلتقطُ سفرُ الرؤيا لغةَ مَثَل الزارع، مكرِّرًا عبارةَ يسوع المشهورة: "مَن له أذن فليسمعْ". وفي رسالةٍ إلى كنيسة لاودكِيَّة يعلن يسوع قائلًا: "هَنذا واقفٌ على

الباب وأقرعُ. إنْ سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي" (رؤيا ٣: ٢٠)، فالمستمعون الحقيقيُّون يسمعون صوتَه ويدعونه ليدخل.

ويعطينا هذا النصُّ صورةً أخرى: الاستماعِ بوصفه حُسنَ الضيافة؛ ففي الاستماع نفتحُ البابَ ونقبلُ ضيفًا، وحين نستمع نرحِّب بآخرين إلى مساحتنا، أي أنَّنا ننفَتح. وحين نستمع للآخرين، فإنَّنا ندعوهم إلى أماكن ضَعفٍ وحميميَّة محتملة. وإذا فعلنا الأمر جيِّدًا، لن نعرف معرفةً كاملة ما نحن بصدد الدخول فيه، ولا نعرف مَن سيدخل وماذا سيُحضِر معه؛ إذ ننفتح فقط على المفاجأة، وعلى استقبال الغرباء، وعلى سماع غير المتوقَّع، كما ننفتح على تغيُّرنا. وفي هذا النصِّ قال يسوع إنَّه سيدخلُ ويتعشَّى مع مَن يسمعون صوتَه، وفي ثقافته كان الأكلُ عملًا حميميًّا- أمرًا تتشارك فيه مع الناس الذين ينتَمونَ إلى مستواك الاجتماعيِّ نفسه؛ فالأكلُ والاستماع يساوِيان مِن مُستوى التعامل.

يقدِّم إلينا سفرُ الرؤيا صورةً للاستماع تتضمَّن فَتْحَ

الباب ودعوةً أخرى للدُّخول، لكنْ إذا كنَّا أمناء مع أنفسِنا، نجد أنَّنا كثيرًا ما نحتفظ بالأبواب مغلقة، وإليكُم بعضَ الأسباب.

حياتنا حافلةٌ بالضَّوضاء. تبدو أحيانًا الحياةُ في هذا العالم كأنَّها تعامُلٌ مع حالةٍ طارئة: أصوات متنافرة لسيَّارة إسعافٍ مدوِّية وصرخات وكلاب تنبح ورسائل متقاطعة، ويبدو كما لو أنَّه ما من مَهربٍ من الضوضاء. وفي هذا السِّياق، أطلقت إحدى الكاتبات المشاركات في المجلَّةِ العلميَّة ''ذا نيو أتلانتس'' *(The New Atlantis)* على ما نواجهه من التكنولوجيا التي نستخدمُها- من بريد إليكترونيٍّ ورسائل نصِّيَّة و□يديوهات وتدوينات صوتيَّة- اسمَ ''الجُبُّ الإلكترونيُّ العظيم''[٨] فالأمرُ يشبهُ تناولَ كلِّ وجبات يومِنا في مطعم مزدحم صاخبٍ، ورغم إغراء إغلاق آذاننا لكي نحميَ أنفسَنا، فإنَّ الضوضاء تتوغَّلُ إلينا، ما يُشكِّلُ صعوبةً استثنائيَّة تَحُول دون خَلقِ السكون الداخليِّ اللازم من أجل استماعِ حقيقيٍّ.

يحزنُ الكثيرون منّا بسبب صعوبة إيجاد السكون وصعوبة استخراج الهدوء من وسط التشويش، لكنَّ غياب الهدوء إنَّما يكشفُ حقًّا مقاومةً للهدوء، فهل نخشى الأصوات التي في رؤوسنا، والتي قد تبدأ في التحدُّث إذا خصَّصنا وقتًا لنهدأ فيه؟ هل سنرفع صوت مخاوفنا وندمنا وشكوكنا؟ قد نختار دون وعي أن تغمرَنا الضوضاءُ الخارجيَّة لأنَّها مريحةٌ أكثرَ من مواجهة الثرثرة الداخليَّة.

نشعرُ بالوحدة. أَطلقتِ الأمُّ تيريزا على الوحدة اسمَ بَرَص العالم الغربيِّ، وربَّما تكون الوحدةُ أكثر تدميرًا من حالة الفقر الموجودة في مدينة كَلكُتَّا[9] الهنديَّة؛ فالوحدةُ تدفعُنا إلى التكلُّم عن أنفسنا بإفراطٍ، وتحويل المحادثات إلينا، كما تجعلُنا نُمسك الآخرين ظانِّين أنَّ دورَهم هو تسديدُ احتياجاتنا، وتقلِّص من المساحة التي لدينا في نفوسِنا لاستقبال الآخرين، وفكرة أنَّ تلك الوحدة ستمنعُنا من الاستماع وستمنع الآخرين من الاستماع إلينا، لهي مأساة؛ لأنَّ فكرة أنْ يُستمع إلى

إنسانٍ لهي أحدُ أعظم التأكيدات أنَّنا لسنا في وَحدة في هذا الَكون.

نخشى التغيير. يعني الاستماع الانفتاحَ على التغيُّر، فإذا انضمَمْتَ إلى محادثة دون أيَّة إمكانيَّة لأن تغيِّر ذهنَك، فلن تستمعَ حقًّا. وبكلماتٍ أخرى: يمنعنا الخوفُ من الاستماع، وأنا أعرفُ مَيلي إلى التمسُّك بالمعتقدات والآليَّات التكيُّف لأنِّي أخشى عدمَ الاستقرار وغياب اليقين نتيجةَ إرخاء قبضتي على اختياراتي. لكن إذا كنَّا مستعدِّين حقًّا للاستماع، فينبغي أن ننفتح على إمكانيَّة أنَّ بعض اختياراتنا ومعتقداتنا تحدُّنا، فعلينا الانفتاح على إمكانيَّة الاعتراف أنَّنا مخطئون.

نعاني جرَّاءَ التفتُّت. يتطلَّبُ الاستماعُ الحقيقيُّ انتباهًا، أو تقديمَ أنفسِنا لمدَّةٍ من الوقت، وقد نكون حاضرين جسمانيًّا مع شخص آخر بينما أذهاننا وقلوبنا بعيدة جدًّا، وربَّما تبنَّينا الكذبةَ الثقافيَّة التي تقول إنَّ قيمتنا هي في مدى انشغالِنا، فكلَّما فعلنا أكثر؛ وكلَّما كنَّا في نشاطٍ، حظينا بأهمِّيَّة أكبر. فضلًا عن ذلك، يحاكي عالَمُنا

الداخليُّ سرعةَ عالمنا الخارجيِّ وجنونه، فننشغل ونتشتَّت ونؤدِّي مهامَّ متعدِّدة باستمرار، لكنَّنا لا نفعل أيَّ شيء بجودةٍ عالية، بما في ذلك الاستماع.

التكنولوجيا وتآكُل الاستماع

يبدو أنَّه إذا أردتَ أن تكون كاتبًا روحيًّا هذه الأيَّام، فعليك الشكوى بشأن التكنولوجيا وكيف تدمِّرُ كلَّ شيء نحبُّه، إذ نجد أنَّ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة سقطتْ حين غزا القوطيُّون الغربيِّون من الشمال، وبدأتِ الحضارةُ الغربيَّة في السقوط حين قدَّم ستي□ جوبس (Steve Jobs) هاتف آيفون (iPhone)، لكنِّي لا أعتقدُ أنَّ علينا تجنُّب التكنولوجيا كي ننضجَ روحيًّا، بأن نلجأ إلى كتابة الرسائل باليد وبالسَّير في الغابة لأوقاتٍ طويلة يوميًّا. مؤخَّرًا، تحدَّثتُ مع بعض أفراد عائلتي بواسطة برنامج "سكايپ" (Skype)، ولا أريد بتاتًا أن أعيش في عالمٍ لا يمكنني فيه فعل ذلك.

أعتقدُ حقًّا أنَّ التواصلَ الأصيلَ ممكنٌ، حتَّى لو كان منقوصًا، بواسطة التكنولوجيا، وكثيرون ممَّن قابلتُهم

أوَّلًا على الإنترنت أصبحوا الآن أصدقاء مقرَّبين. علاوة على ذلك، هناك أدوات رائعة على الإنترنت لتعميق روحانيَّتك وللتواصل مع تقاليد الكنيسة القديمة.

غير أنِّي على قناعةٍ بأنَّ الحياةَ في مجتمعنا المرتبط بالكومبيوتر تساهمُ في تآكُل قدرتنا على الاستماع، فمع كلِّ الأبواب التي تفتحُها التكنولوجيا التي نستخدمُها، تغلقُ أبوابًا أخرى، وأحد هذه الأبواب هو القدرة على الاستماع، وبعض هذه الأفكار جليَّة، فأفضل نوع من الاستماع يتضمَّن ليس فقط حاسَّة السمع بل أيضًا كلَّ حواسِّنا، فإذا كانت أعينُنا مُثبَّتة على شاشة وأصابعُنا تبعثُ برسائل نصِّيَّة، فنحن لا نكونُ حينَها قادرين على الاستماع الكامل إلى الشخص الذي إلى جوارنا.

الأمرُ الأقلُّ جلاءً هو الكيفيَّة التي تغيِّر بها الإنترنت والهواتف الذكيَّة ومواقعِ التواصل الاجتماعيِّ من الخصائص المادِّيَّة للمخِّ بإعادة توجيه المسارات العصبيَّة. وبينما نرغب أن تكونَ الحقيقةُ أنَّنا نحن مَن نؤثِّرُ في أجهزتنا، فالواقع هو أنَّ الأجهزةَ التي

نستخدمُها تؤثِّرُ هي أيضًا فينا، وتُظهرُ دراساتٌ عصبيَّة كثيرة أنَّ التكنولوجيا التي نستخدمُها تعيدُ تشكيل المخِّ حتَّى إنَّه بات من الصعب فعلًا التركيز على أمرٍ واحد، فإذا انغمسنا في التكنولوجيا يومًا تلو الآخر، تتَّسعُ أنشطةُ المخِّ تلقائيًّا ليقوم بعدَّةِ مَهامَّ في الوقت نفسه، ما يُصعِّب من تثبيت تركيزنا على أيِّ أمرٍ واحد. وفي هذا الصدد تقولُ الكاتبةُ في مجال التكنولوجيا ليندا ستون (Linda Stone) إنَّ المخَّ يبدو عالقًا في ‘‘انتباه جزئيٍّ مستمرٍّ’’[١٠]، وبكلمات أخرى، نتبنَّى بالفعل خصائص التكنولوجيا التي نستخدمُها، فيحاكي المخُّ أنماط مواقع التواصل الاجتماعيِّ، فيضجُّ بتغريداتٍ ومقاطع صوتيَّة و□يديوهات قصيرة، قاذفًا بدَفعاتٍ معلومات متفاوتة، ما يتركُنا أحيانًا على شَفير ما يُشبه الحمولةَ الزائدةَ لدائرة كهربائيَّة؛ فالتكنولوجيا التي نستخدمُها تُنتِج فينا تأثيرًا كاسرًا، مُجرِّدةً إيَّانا من القدرة أن نكونَ حاضرين بالكامل.

سمعتُ مَن يقولون إنَّه باتِّساع حصولنا على

المعلومات نصيرُ مجتمعًا أكثر معرفة أضعافًا مضاعفة، لكنَّه ليس مجتمعًا أكثر حكمةً، فكلُّ ما يبدو مِن مصادر لانهائيَّة للمعلومات، والمحتوى الذي تقذفُ به إلينا هذه المصادر، إنَّما يجعلُنا نذوق مِن كل شيء، لكنَّنا لا نهضم سوى القليل، ولدينا أيضًا القدرة على تكوين قوائم تشغيل لأصواتٍ تقول فقط ما نريدُ سماعَه وتُفلترُ الأصوات التي تتحدَّانا لنفكِّر تفكيرًا مختلفًا، فإذا لم يرُقْنا ما يعظُ به راعِي كنيستنا، يمكننا أن نجدَ تدوينةً صوتيَّة تقدِّم إلينا العظةَ التي نريدُ سماعَها، لكنَّ الحكمة على الجانب الآخر هي معرفة علائقيَّة عميقةٌ تأتي بالاستماع البطيء الذي يسمحُ لِما نسمعُه بأن يتوغَّل إلينا وينضج فينا ببطء، وتتطلَّب منَّا الاستماع إلى أصواتٍ تتحدَّانا وتواجهنا بغير المتوقَّع، دافعةً إيَّانا لنَزِنَ ما نسمعه مقابِل ما نؤمن به.

قلقي الأخير بشأن التكنولوجيا الشخصيَّة يختصُّ بما تُعلِّمُه إيَّانا بشأن الاستماع نفسه، وقد قدَّم إليَّ أحدُ زملاء خدمة الجامعة السابقين هذا المشهدَ: بينما كان

يسير في الحرم الجامعيِّ مرَّ بمئات الطّلاب وكان بعضُهم يسيرون في مجموعات والبعض بمفرده، وكان تقديره أنَّ ٦٠٪ منهم، بما في ذلك أولئك مَن يسيرون في مجموعات، كانوا يستخدمون سمَّاعات الأذن، وأخشى أنَّ التكنولوجيا التي نستخدمُها تنقلُ إلينا كثيرًا فكرةَ أنَّ الاستماعَ هو عملٌ يُغلِقنا. فرغم أنَّ سمَّاعات الأذن يمكن أن تساعدنا لنتواصل تواصلًا متناغمًا مع عالَمنا الداخليِّ في بعض الأوقات، فقد صارت رمزًا للتعبير عن الانتقائيَّة والفرديَّة اللتين يمكن أن يَصِفا الاستماع. وأقول إنَّنا على الموجة الخاطئة لو كنَّا نستمع بحيث تؤدِّي طريقةُ استماعنا إلى إغلاقنا وتقوقعنا، ورجائي أنْ نتعامل مع الاستماع بوصفه عملًا من أعمال حُسن الضيافة- عملًا ينفتح بنا إلى العالم والناس من حولنا، وإلى الربِّ الذي يقرعُ على الباب.

الاستماع الرقميُّ الحديث **(Digital)** مقابِل الاستماع التماثليِّ القديم **(Analog)**

انضممتُ العام الماضي إلى الصفوف المتنامية ممَّن عادوا إلى الاستماع إلى الموسيقا على أسطوانات ‘‘الفينيل’’، وهناك الكثير من الجدل في أسرتي بشأن ما إن كنتُ أحاول التماشي مع الموضة السائدة أم أنَّ العمر يتقدَّمُ بي وسأتناول عشائي في الرابعة مساءً وأرتدي بنطالًا يصل إلى صدري مثل كبار السنِّ، وقد كان اقتناعي أنَّ الصوت التماثليَّ (Analog) المحفور على الأُسطوانات يُنتِج صوتًا ‘‘أكثر دفئًا’’، وقد يكون ذلك نتيجةَ صَوتٍ عميقٍ أقلِّ دقَّة ممَّا يُسجَّل على ملفَّات الموسيقا الرقميَّة. وأناً شخصيًّا أظنُّ أنَّ أسطوانات الفينيل ببساطة تعطي صَوتًا حقيقيًّا حيًّا بشريًّا أكثر من بعض التسجيلات الرقميَّة شديدة الدقَّة.

ما تطلَّب بعضِ التأقلُم هو عدد المرَّات الذي تحتاج فيها إلى قلْب الأسطوانة إلى الجهة الأخرى، والاسم التقنيُّ للأسطوانة هو (LP) وهو اختصار كلمتَي ‘‘Long Play’’، وترجمتُها تشغيل طويل. ولا يمكنني سوى تخيُّل أن يُطلق هذا الاسم على سبيل المزاح؛ لأنَّ كلَّ

جانبٍ من جوانب الأسطوانة نحو عشرين دقيقة، فليس تشغيلًا طويلًا بتاتًا، وكنتُ قد اعتدتُ تشغيل موسيقا لا تتوقَّف من الأغاني المتتابعة وراديو الإنترنت. وفي البداية أزعجني قِصرُ مدَّة تشغيل الأسطوانة، لكنّي أدركتُ حينها أنَّ عليَّ تغيير الطريقة التي أستمع بها.
والآن، لدى عودتي من عملي أشغِّل أسطوانةً وأرفعُ قدميَّ مسترخيًا وأغمضُ عينيَّ وأستمعُ إلى جانبٍ واحد من جانبَي الألبومُ من بدايته إلى نهايته. تتطلَّبُ منّي طبيعةُ التكنولوجيا القديمة أنْ أجعل من الاستماع محورَ انتباهي لمددٍ طويلة، ويا له من تَشتيتٍ حين أستمع إلى أسطوانة "فينيل" بينما أفعل أمورًا أخرى، بسبب اضطراري إلى قَلْبِ الأسطوانة إلى الجهة الأخرى بين الحين والآخر، فحين أستمع إلى أسطوانة، تستحوذ على كاملِ تركيزي.
تعكسُ أحيانًا الكيفيَّةُ التي نستمع بها إلى الموسيقا في عصرنا الرقميِّ الكيفيَّة التي نستمع بها عمومًا، إذ تلعب الموسيقا في الخلفيَّة بتكرارٍ، مثل شيء مصاحبٍ لأيِّ

أمرٍ آخر نفعلَه؛ فالموسيقا هنا هي مجرَّد ملفٍ صوتيٍّ يصاحبُنا وربَّما يرفعُ حياتَنا، لكنَّه عادةً ليس محوَرَ انتباهِنا، فهو في بعض المرَّات ببساطة ضجيجٌ موجود في الخلفيَّة، وبالمثل يكون الاستماع لنا شيئًا ملازمًا لأيِّ شيء آخر يستحوذُ على تركيزنا حينها، ويحصل الآخرون أحيانًا على انتباهِنا الجزئيِّ ونستمع نحن إليهم من جانبٍ واحد فقط من جوانب حياتنا الكثيرة.

علَّمني الاستماعُ إلى الموسيقا على أسطوانات ”الفينيل“ أن أضعَ الاستماع، في كلِّ مناحي الحياة، في مركز انتباهي، ولا يعني ذلك استماعي طَوالَ الوقت، بل يعني أنِّي حين أستمع بالفعل، أمنحُ الأمرَ كلَّ تركيزي، فأوقف أيَّ شيء آخر أعمله، وأجلس، وأوجِّه طاقتي نحوَ مَن يتحدَّث لمدَّةٍ من الوقت، ووقتُ الاستماع المُكرَّس هذا أكثر قيمة من ساعاتٍ من الاستماع المجزوء؛ فهو الفرقُ ما بين سماع الموسيقا في المصعد في طريقِك إلى طابقك المقصود والجلوس في قاعة حفلات موسيقيَّة والاستماع إلى سيمفونيَّة

عالميَّة عالية المستوى.

أنا أراكَ

حتَّى مع انتشار الموسيقا في كلِّ مكان، فإنَّنا نعيش الآن في ثقافة تتوِّج كلَّ ما هو بصريٌّ. فالپيكسلات باتت عُملتَنا، والـ□يديوهات والأيقونات والصور هي لغتُنا المشتركة، ولا تحتاج شركاتٌ مثل ''نايكي'' (Nike) و''أپل'' (Apple) بعْد إلى كلماتٍ للشَّرح؛ فعلامة ''صح'' وعلامة ''التفَّاحة المقضومة'' كافِيان[11]، وحتَّى في لغةِ حديثنا، نوظِّفُ عددًا مدهشًا من الكلمات المُشتقَّة من حاسَّة البصر. وإذا كنتَ تمضي وقتًا طويلًا في مجالس الإدارة أو اجتماعات تأسيس الكنائس أو دوائر القيادة ستسمع كلماتٍ مثل رؤية، بؤرة، الصورة الكبرى، الفكرة الكبرى، الوضوح، البصيرة، والتي تتضمَّنُ جميعًا حاسَّةَ البصر أو عملَ البصر؛ فالبصرُ هو الموضة السائدة.

نربطُ الأعين بالهويَّة؛ فالعَينان نافذتان على النفس، ونربطُهما بالحميميَّة، واتِّصالُ العينَين هو أحَدُ أقوى

مظاهر الحميميَّة. وحين نشعُر بالضَّعف أمامَ شخص آخر نقول إنَّه ينظرُ مباشرةً إلى داخلنا أو إنَّه يثقبُ فينًا بعَينَيه فيرى ما فينا، وبينما يكتُبُ كُتَّاب أغنيات عن الأعين، ما من كاتب يؤلِّف عن الهيام في أُذنَي المحبوب!

العلاقة ما بين البصر والمعرفة الشخصيَّة معادلةٌ قديمة؛ ففي اليونانيَّة الكلاسيكيَّة تعني كلمة "يرى" حرفيًّا "يعرف". وقد نادى الفيلسوف هرقليطس (Heraclitus) أنَّ "العينين شاهدَتان أكثر دقَّة من الأذنَين" وصرَّح "أرسطو" (Aristotle) بأنَّ "فوق الكُلِّ نثمِّن البصر...لأنَّ البصر هو المصدر الرئيس للمعرفة"[١٢]، ويرى أستاذ الفلسفة دون إيد (Don Ihde) أنَّ هناك درجةً عاليةً من "الحميميَّة بين الرؤية والحقيقة النهائيَّة في الفكر اليونانيِّ".[١٣]

أرى هذا الاتِّصال ما بين الرؤية والمعرفة وطبيعة الحقيقة مدهشًا قليلًا؛ لأنَّ ما يُرى- العالم خارجنا- لا

يمكن أن يخبرنا سوى بالقليل جدًّا عن كيفيَّة تفسيره، إذ نبدأ في استيعاب الأمور والتعمُّق فيها بواسطة السمع واللغة والمحادثة والتعلُّم.

ليست الاستعارات المرتبطة بالبصر كافية وحدها لتمثِّل المعرفة والهويَّة الشخصيَّة، ويشيرُ ولتر أونغ (Walter Ong) إلى أنَّ حاسَّة البصر، على العكس من السمع، تفكِّك الأمور: "تأتي الرؤية إلى الإنسان في إطار اتِّجاهٍ واحدٍ تلو الآخر، فَلِكَي أنظرَ إلى غرفةٍ أو منطقةٍ واسعة، عليَّ أن أحرِّك عينيَّ من جزء إلى جزءٍ آخر"[١٤]، وقدرتي على النظر إلى شيء واحد بدلَ شيءٍ آخر تجعل قابليَّة التحكُّم في البصر قابليَّةً عالية، وتؤكِّد المسافة ما بيني وبين الشيء الذي أنظر إليه، لكن في مقابل ذلك، يدمِجُ الصوتُ ويوحِّد، فلا يمكن التحكُّم في المساحة الصوتيَّة بالدرجة نفسها التي يمكن بها التحكم في المساحة البصريَّة؛ فالصوت يحيطُ بنا ويغمسُنا فيه، بل يفيضُ في داخلنا[١٥]، وتُملي علينا

فسيولوجيا الأذن أنَّ على الصوت أنْ يخترق، داخلًا دِماغِنا، لذا فالصوت يكسرُ التمييزَ الحادَّ ما بين الشخص والشيء، وبواسطة الاستماع نتشارك في أذهان الآخرين وحياتهم.

أولويَّة الاستماع

قد نقول إنَّ ‘‘الرؤية هي التصديق’’، لكنْ في الكتاب المقدَّس في معظم الأحيان، السماع هو التصديق، فربَّما اجتَذَبَ منظرُ العُلَّيقة المشتعلة موسى ليقترب إلى مكانِها، لكنَّه لم يعرف أنَّه على أرض مقدَّسة حتَّى أمرَه الصوتُ أنْ يخلعَ نَعلَيه. ففي الواقع، يمكن لرؤية الله أن تكونَ ضارَّةً بصحَّتك، بل ترتبطُ حاسَّة البصر ببعض حالات عبادة الأوثان، وحينٍ يُعيد موسى تلاوة قصَّة الخروج على جيلٍ جديد، يحذِّرُهم تحذيرًا متكرِّرًا بشأن صُنع أشكال تمثِّل الله، ويذكِّرُهم قائلًا: ‘‘كلَّمكم الربُّ من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام، ولكنْ لم ترَوا صورةً بل صوتًا’’ (تثنية ٤: ١٢)، فالله غيرُ منظور. ورغم أنَّ الله يُظهر نفسَه مرَّات في ما هو

منظور، فوسيلته المتكرِّرة للتواصل مع شعبه على مرِّ التاريخ هي الحديث بصورة أو بأخرى، ونحن نستقبلُ إعلاناته إلينا بواسطة الاستماع المطيع.

إنَّ أولويَّة الاستماع في الكلمة المقدَّسة أولويَّة مؤكَّدة، لكنَّ غير المتوقَّع هو أنَّ الله الذي أوجدَ العالم والكتاب المقدَّس بكلمته هو أيضًا مستمعٌ.

* جديرٌ بالذِّكر أنَّ الأمرَ ذاتَه مَوجود في اللغة العربيَّة في بعضِ اللهجات العامِّيَّة، حيث يتساوى معنى ''اسمع الكلام'' و''أطعِ الكلامَ ونفِّذه فورًا'' (المترجم).

الفصل الثاني

الملكُ المستمع

يحظى ملوكُ التاريخ بالكثير من الأوصاف المميَّزة: المهيب، السامي، المجيد، صاحب الجلالة، وينحني الرجالُ والنساء أمامَ هؤلاء أصحاب الفخامة، بل حتَّى أعيُن الثراءِ والمكانة تسقطُ أرضًا حين يمرُّ الملكُ. وحين يعلنُ جلالتُه إعلانًا، تضربُ الأبواق، وترتفعُ الرايةُ الملكيَّة ويركعُ الناس في سكوتٍ.

ولا أتوقَّع أن يكون هناك الكثير من الملوك مَن أُشيدَ بقدرتهم واستعدادهم للاستماع، ولا نحتاج إلى التعمُّق كثيرًا في سجلَّات أحداث التاريخ الملكيِّ لكي نجد ملوكًا كانت لديهم حواسُّ دقيقة ومع ذلك كانوا في صمم غريب. فمثلًا رفض هنري الثامن (Henry VIII) سلطانَ البابا على حياته وقسَمَ الكنيسةَ. وتجاهل نابليون (Napolean) مستشاريه مَنِ اعترضوا على غزو روسيا، ليَجدَ نفسَه منفيًّا على إحدى الجزر. ورفض الملك

جورج الثالث (George III) والبرلمان الانتباهَ إلى الاضطراب المتنامي في المستعمرات في مواجَهة فرض الضرائب، واندلعتِ الحروب. ولو كان سارومان (Saruman) قد استمع إلى غاندالف (Gandalf) لما ظلَّ عالقًا في برج بارد مع وورمتَنغ (Wormtongue)، وصفحاتُ الكتاب المقدَّس مخضَّبة بدماء ملوكٍ لم يستمعوا إلى الله أو إلى مشيريهم، ما يكشف الإغراء الخطر الذي يتعرَّضُ له كلُّ ملوكِ البشر، وربَّما كلُّ البشر، من اغتصاب الحقِّ الإلهيِّ، وقد يحاول شيكسبير إقناعَنا بأنَّ للمكائد المطلوبة للحُصول على سُلطةٍ مُطلَقةٍ طريقًا يَصِلُ غالبًا إلى تمزيقِ طبلة الأذن، لئلَّا يسمعَ كلُّ الملوك في النهاية سوى أصواتِهم الخاصَّةِ، فعلى أيَّة حالٍ، لو كان في وُسعِ المصابين بجنون العظمة أن يستمعوا، لما أصيبوا بذلكَ.

يبدو أنَّه كلَّما كانت لك سُلطة أكبر في الملكوت البشريِّ، شعرتَ بالتزامٍ أقلَّ للاستماع، وهناك

استثناءات دون شك. فمثلًا قال وينستون تشيرشل (Winston Churchill) إنَّ الشجاعة هي ما يتطلَّبُه الأمرُ لتقفَ وتتحدَّث، وهي أيضًا ما يتطلَّبُه الأمرُ لتجلسَ وتستمعَ. غير أنَّ البرهانَ التاريخيَّ يشيرُ كثيرًا إلى أنَّ قاعات العرش تبدو عازلةً للصَّوت؛ فبمجرَّد أن يستقرَّ المرءُ في أفخم مقعدٍ في البلد، فيمكنُه عندها أن يحيط نفسَه بالمتملِّقين ممَّن تتطلَّبُ وظيفتُهم عملَ أمرٍ واحدٍ فقط: أن يخضعوا لأوامر جلالته، فعليهم الاستماع إليه، أمَّا هو فليس مطلوبًا منه الاستماع إلى أيِّ شخص. ففي الأمور البشريَّة عادةً ما تكون السُّلطة والاستماع على طرفَي نقيض؛ فكلَّما صعد شخصٌ السلَّم، كان من الأصعب سماع ما يحدث في الأسفل، فالسُّلطة سدَّادةُ أذنٍ فعَّالة، ولهذا هناك جملةٌ تقول: قُلِ الحقيقة في وجهِ السُّلطة؛ فالسُّلطةُ عمومًا سيِّئةُ الاستماع.

لا يدهشُنا أن يمارسَ الله، الملكُ السماويُّ، حقَّه السياديَّ في التحدُّث، فلو كان لأحَدٍ حقٌّ إصدار التصريحات على أيِّ أمرٍ يرغب فيه، وسط كلِّ جلبةَ

الأمم، فهذا الحقّ هو للربِّ القدير. والملِكَ الحقيقيُّ تحدَّث بالكلمة الجوهريَّة، والتي إليها يرجع أصلُ كلِّ الكلمات، وستكون له الكلمة الفصلُ، حين تصمتُ كلُّ الكلمات عند قدمَيه، لكنَّنا قد نغفلُ اكتشافَ أنَّ الله، إلهَ الكتاب المقدَّس، يستمعُ بحِرص. فمع أنَّ الكونَ يتماسكُ بكلمته؛ والمجرَّاتِ والكواكبَ تُطيعُه حينَ يتحدَّث، فإنَّ سيِّدَ الخليقةِ دون منازع هو أيضًا مستمعٌ. وليس لله بتاتًا أيُّ اضطرارٍ إلى الانتبَاه إلى أيِّ شخص أو أيِّ شيء، إذ يمكن لهُ ممارسة سُلطته بالطريقةً التي يختارُها وعلى الجميع يتنحَّوا عن الطريق أمامَه، لكنَّ الربَّ يُذهلُنا ويقلبُ السُّلطة بالدخول في علاقات استماع بشعبه، وما من جلساتِ استماعٍ في أيَّة محكمةٍ ملكيَّةٍ توفَّرتْ توفُّرًا كريمًا مثل ذلك.

هناك جملةٌ مثيرةٌ للدهشةِ تَظهَرُ مرَّتين في ترجمة "الملك جيمس الجديدة" (New King James), باللغة الإنكليزيَّة وكذلك في الترجمات العربيَّة، في المزامير حين يتضرَّعُ المُصلِّي إلى الله لكي "يميلَ أذنَه"

(مزمور ٣١: ٢ و٨٦: ١)، ولك تخيُّل تضمينات مثل هذا التوسُّل؛ فإليك أحد أفراد رعيَّة العليِّ، والذي من المفترَض أن يقترب إلى ذلك العليِّ في توقير مرتعش، يسألُ الملكَ أن يميلَ إليه، ولنتخيَّل صورةَ السيِّد منحنيًا إلى مستوى الخادم، مُحرِّكًا عنقَه حتَّى يقدرَ الخادمُ أن يتحدَّث، حتَّى تكونَ أذن الملك في مستوى فم هذا الفرد من الرعيَّة. وتتنامى دهشتُنا حين نتذكَّرُ أنَّ عمل الاستماع هو عمل طاعةٍ، ونكتشفُ أنَّ "أمِل أذنَك" هي تمثيلٌ مثاليًّا لما هو مطلوبٌ ليستمعَ الربُّ إلى البشر، وهو ما أطلق عليه لاهوتيُّون في أجيالٍ سابقة "تنازُل" الربِّ، لكنَّهم لم يقصدوها بالدلالات السلبيَّة التي تحملُها الكلمة اليوم، فالربُّ يخفضُ نفسَه لينتبه إلى شدائد معيَّنة يمرُّ بها فردٌ ما، بل يعملُ له ما يسألُه، فأيُّ ملكٍ هذا مَن ينحني أمامَ رعيَّته؟

نجدُ أنفسَنا في قلبِ لُغز البشارة- أنَّ الملكَ السماويَّ ليس فقط يتحدَّث، بل هو يستَمعُ أيضًا، وهو ليس فقط يطلبُ الطاعةَ، بل هو يستمع إلى الطلباتِ أيضًا.

وطبيعة الله التي تخدمُ لا تجعلَ منه مستَسلِمًا لرغباتنا؛ فهو لا يخدمُ من منطلق التزامٍ كالعبْدِ أو من بابِ الواجبِ فحسب، بل من مَوقفٍ خَدومٍ اختاره بحُرِّيَّة؛ فهذه هي طبيعتُه.

ليس هذا بملِكٍ عاديٍّ، فمنذ بدايات الكتاب المقدَّس نجد إلهًا لا يكنزُ السُّلطة، بل يتشاركُ فيها؛ حيث إنَّ للبَشرِ إذ خُلِقوا على صورة الله، المسؤوليَّة الملكيَّة للاشتراكِ في حُكمِ الخليقة، مُخضِعين إيَّاها وعاملين بوَصفِهم ممثِّلين للربِّ أمامَ تلك الخليقة. ونرى أنَّ مزمور ٨: ٥ و٦ يبني على الوصاية والوكالة المُنعم بها على البشر:

"وتنقصه قليلًا عن الملائكة، وبمجدٍ وبهاء تكلِّله. تسلِّطُه على أعمال يدَيك. جعلتَ كلَّ شيء تحت قدمَيه".

لاحقًا، وبعد مرورِ وقتٍ كثير، يعطي يسوعُ المُقامُ تلاميذَه إرساليَّةً عُظمى ليعمَلوا ويتحدَّثوا بالنيابة عنه، ويكون سلطان مُلكِه، والمتاح بواسطة الروح القدس، حاضرًا لهم بينما ينفِّذون مهمَّته. وقد وعدَ الرسولُ

بولسُ تيموثاوسَ أنَّ أولئك مَن يصبرون سيملكون مع السيِّد المسيح، ويكرِّر ذلك سفرُ الرؤيا أنَّ القدِّيسين المفديِّين من كلِّ قبيلة سيملكون على الأرض حين يأتي الملكوت.

الله الإله الذي يتشارك في سُلطته هو إله مستمعٌ، ولا يصبحُ الاستماعُ أمرًا ضروريًّا لله فقط بعد أن يُخلق العالمُ؛ لأنَّ الاستماع هو هُويَّة الله، ففي كيان الله ذاته، لا يتحرَّك التواصلُ تحرُّكًا من جانبٍ واحد، بل ينسابُ ذهابًا وإيابًا وحول الأقانيم الثلاثة في الثالوث- الآب، الابن، الروح القدس- وطبيعةُ الله مثلَّثة الأقانيم تضعُ الاستماعَ في مركَز الكون تمامًا، فالله محبَّة، والمحبَّة تتطلَّب استماعًا، وتتماسكُ الأعمالُ الداخليَّة للحياة الإلهيَّة بطبيعةٍ مستمعة وتبادليَّة وباذلة للنَّفس، لذا حين يُستَعلَن الابن في صورةٍ بشريَّة يقولُ إنَّه لا يفعل ما يريدُه هو بل ما يطلبُه الآب، وحين يأتي الروحُ يرشدُ الناسَ إلى كلِّ الحقِّ؛ لأنَّه يتكلَّم فقط بما يسمعه، وفي عمل الخليقة والفداء والخدمة، تكشفُ أقانيمُ الثالوث

الاستماعَ الذي كان في قلب العلاقة التي في الثالوث طَوال الوقت.

تصلُ مفارقةُ الملكِ المُستمِع إلى ذروتِها في المسيَّا (المسيح المنتظَر)، إذ يعرضُ أمامَنا العهدُ الجديدُ صورةً مُذهِلة عن المُلك: ليس الملكُ الحقيقيُّ هو مَن يمارس سُلطتَه، بل مَن يُخضِع سُلطتَه ويخدمُ، ويبدو أنَّ الحاكم الذي يحمي سُلطته بحرصٍ غَيورٍ هو ليس حاكمًا يحوزُ ما يكفي من السُّلطةِ. فيسوعٍ تخلَّى عن عرشه السماويِّ، وأخلى نفسَه من السُّلطة والامتياز ليصبح عبدًا (خادِمًا)، لذا فالاستماع محوريٌّ جدًّا للبشارة، وهو ميزةٌ لا غنى عنها في العبد؛ فأن تُخلي نفسَك آخذا صورةَ عبدٍ، وخاضعًا لآخرين، هو ليس فقط وصفًا لتجسُّدِ المسيح، بل هو أيضًا وصفٌ لمستمعٍ حقيقيٍّ.

لم يأتِ يسوعُ ليُخدَم بل ليَخدِم، ولم يأتِ ليُسمع بل ليَسمَع، وكان ينكمشُ حتَّى يحصل آخرون على مساحةٍ، وكان يُميل أذنَه حتَّى تُكرَم الأصواتُ غير

المسموعة، وحين فعل ذلك أعاد تعريفَ المُلك تمامًا، فها مَلكٌ لا يطلبُ من شعبِه الموتَ من أجلِه، بل يموتُ هو من أجلِهم، والقلبُ الخدوم نفسُه الذي جعله يستمع إلى الآخرين هو القلبُ الذي قادَه إلى الصليب.

الملكُ الحقيقيُّ يستمعُ

الكتاب المقدَّس هو كلمة الله التي تحدَّث بها إلينا. لكنْ لو لم يكُن الله مستمعًا، لكانَ الكتاب المقدَّس كتابًا صغيرًا جدًّا؛ حيث إنَّه لو لم يستمع الملك، لما تلقَّت الأجيالُ اللاحقة أيَّ شيء سوى سِفْر التكوين، ولما كانِ هناك على الأرجح بتاتًا أيُّ جيلِ إيمانٍ مستقبَليٍّ، ولتُرك العبيدُ العبرانيُّون الذين نلتَقيهم في سِفْر الخروج للضَّعف والهَوان صانعين طوبًا لمجد فرعون. إلَّا أنَّه لحُسنِ حَظِّهم وحظِّنا، يحكي الكتابُ المقدَّس ليس فقط حديثَ الله، بل أيضًا أعمالَ استِماعِه.

لم يبدأ إنقاذ الشعب العِبرانيِّ من آسِريه المصريِّين- وهو ما يُعدُّ ذكرى وطنيَّةً محوريَّةً للعبرانيِّين- بخروج مُسرعٍ من الأرض، ولم يبدأ بعشاء الفصح، ولا حين

دخلَ موسى وهارون حُجرةَ فِرْعَون وطالَباه أن يُطلِقَ الشعبَ ليَذهبَ، كما أنَّه لم يبدأ حين رأى موسى العلّيقة المشتعلة في برِّيَّة مديان والتي راحت تكلّمه- بل كان الخروج حين سمعَ الله، إذ يقولُ سفرُ الخروج: "وتنهَّد بنو إسرائيل من العبوديَّة وصرخوا، فصعد صراخُهم إلى الله من أجل العبوديَّة. فسمع الله أنينَهم، فتذكَّر الله ميثاقَه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب" (خروج ٢: ٢٣-٢٤). وتمامًا مثلما سمع الربُّ دمَ هابيل المسفوك الصارخ من الأرض قبل ذلك بأجيالٍ، سمع شقاءَ شعبه المنسحقين تحت الظلم، وهكذا أدار عملُ الاستماع عجلةَ تحوُّلٍ في تاريخ الفداء.

في ذلك اليوم تبدأ المعركةُ بين "ملك العبرانيِّين" وملك مصر، وتكشفُ المواجهةُ ليس فقط صاحبَ السُّلطة والكلمة العُليا بل تكشف أيضًا المستمِع الأعظم؛ فهي مباراةٌ عظيمة في الاستماع تُدار على منصَّة تاريخيَّة. وفي مقابِل الربِّ الذي يسمع أنينَ شعبه، يُقدَّم فرعون بوصفه رافضًا للاستماع رفضًا نهائيًّا، ونقرأ

مِرارًا وتَكرارًا أوصافًا مثل هذه: ‘‘فاشتدَّ قلبُ فرعون فلم يسمعْ لهما’’ (خروج ٧: ١٣)، فلم يسمع لصرخات العبيد، ولم ينتبه إلى صوتِ إلههم، ولم يستمع حتَّى إلى عذاب شعبه الذي كان يرزح تحت ضرباتٍ مروِّعة. وعلى مستوًى عميق، نجدُ أنَّ قصَّة الخروج هي محادثة بشأن أسلوب الملك الحقيقيِّ وطبيعة السُّلطة؛ إذ يؤكِّد المُدَّعي سُلطته بالقهر والحُكم المستبدِّ، لكنَّ الملك الحقيقيَّ يتحرَّكُ بسبب صرخاتِ أولئك المحتاجين، وتاجَ الملكِ الحقيقيَّ هو للمَلك المستمع، حيث لم يتوقَّفِ الله قطُّ عن الاستماع إلى أنين العبيد.

الاستماع المدهش

لم آخُذِ الاستماعَ على مَحمَلِ الجِدِّ حتَّى استَمَعَ إليَّ أناسٌ لم أكُن أتوقَّع أنَّهم سيَستَمِعون، وكان فهمي للاستماع حتَّى تلك النقطة هو ارتباطَه بالمكانةِ ارتباطًا كبيرًا، بمعنى أنَّك تستمعُ حين تكونُ في وَضعٍ أو دَورٍ معيَّن، وكنتُ أعتقدُ أنَّ المسؤوليَّةَ مُلقاة على عاتق الموظَّفين أن يستَمِعوا إلى الرؤساء، والأطفال أن يستمعوا إلى

الوالدين، والمتدرِّبين أن يستمعوا إلى المُدرِّبين. فالمعلمون يُحاضِرون، والأعلى مكانةً يخبرونك بما عليك فعلُه، ويعظُ الرعاة بينما يستمع الآخرون، أي أنَّك غالبًا ما تستمع حاسبًا أنَّ الاستماعَ هو الأمرُ المُفترض حدوثه.

وكنتُ أتوقَّعُ الأمرَ نفسَه حين بدأتُ تدريبي لأكون قسًّا، وهو مُتطلَّبٌ صارمٌ، ومؤلِمٌ أحيانًا، ويحتاج إلى الكثير من التفكير. وعلى مدى أربعة أشهر، خدمتُ بوصفي متدرِّبًا في مستشفى سانت جوزيف (St. Joseph's Hospital) في منطقة أورانج كاونتي، كاليفورنيا، عاملًا مع مرضى قسم السرطان. وكان معظم المرضى إمَّا يخضعون للعلاج الكيماويِّ وإمَّا يعانون مراحلَ متأخِّرةً من المرض، وكنتُ في أحيان كثيرة أشاهدُهم وهم ينتقِلون من الحيويَّة إلى الذبول، ومن الرجاء إلى اليأس والقنوط، وكنتُ في الأغلب أجلسُ وأستمع، إذ لم تكُن لديَّ أدنى فكرة عمَّا أفعلُه سوى ذلك. وفي أحد الأيَّام، كنتُ أجلس خارجَ غرفةِ

مريضةٍ تُحتَضَر بسبب سرطان الثدي، بينما كان أفرادُ عائلتِها يدخلون ليودِّعوها واحدًا تلو الآخر- والداها وأختها وابنها الذي في سنِّ السادسة وابنتها التي في سنِّ الثالثة وزوجها الذي كان غائبَ الذِّهنِ تقريبًا. وفي عَصْرِ يَوم آخر، استَمعتُ إلى اعترافِ رجلٍ لم يكُن له مأوى، وكان مقهورًا بسبب العلاج الكيماويِّ، وبسبب حياةٍ ملآنة بالندم.

كانت دونا (Donna) مشرفتي، وحين التقينا في الأسبوع الأوَّل كنتُ مستعدًّا لما هو معتادٌ من التدريسِ والتصحيح والنُّصح، لكن ذلك اليوم التقيتُ نوعًا مختلفًا من القيادة: قابلتُ رمزَ سُلطةٍ يستمعُ إليَّ؛ إذ كانت دونا مهتمَّة بي، وليس بإخباري ما عليَّ فعله، ولا بتشكيلي على صورتها. لقد سألَتْني عن أفكاري ومشاعري واهتماماتي، وعن عائلتي والشخص الذي كنتُ أتمنَّى أن أكونه. كانت تستمع إليَّ باهتمام حتَّى إنِّي شعرتُ ببعض عدم الراحة إذ تكلَّمتُ عن نفسي مدَّةً طويلة، وكنتُ أحاول تحويل دفَّة المحادثة نحوَها، لكنَّها كانت

تعرف جيِّدًا كيف تُعيدُ إدارتها إليَّ.

بينما تواصلتُ أنا ودونا في مقابلاتنا ذلك الخريف، بدأتُ أدرك أنِّي لستُ مشروعًا من ضمن مشاريعها الكثيرة؛ فلم تكن تبحث عن الأمور التي تحتاج إلى إصلاحِها فيَّ. وكلَّما استمعتْ إليَّ، بدأتُ أرى نفسي أكثر وأكثر بالطريقة نفسها التي تراني هي بها: أرى نفسي إنسانًا، فلم أكُن مريضًا، وهي الرسالة التي تلقَّيتُها من مرشدين سابقين كانوا مهتمِّين بإجراء جراحةٍ عاجلة لنفسي، وكنتُ قد أخبِرتُ آلاف المرَّات أنَّ الله يحبُّني، ولا أتذكَّر إذا كانت دونا قد قالت ذلك يومًا في أثناء مقابلاتنا الأسبوعيَّة. لكنِّي أكملتُ التدريب عالمًا محبَّة الله بطرقٍ لم تكُن لديَّ من قبل، وبدأتُ أشعرُ بنَوعٍ جديدٍ من السَّلام داخِل نفسي، وامتلأتُ بمستوًى جديدٍ من الطاقة للخدمَة- مستوًى لم يدفعْه الفراغُ، بل الامتلاء لأنِّي تلقَّيتُ واحدةً من أعظم هبات الله: هبة أن أسمَع حقًّا.

على مدار بضع السنين الماضية، طرحتُ على

كثيرين السؤال التالي: هل هناك شخصٌ في حياتك أدهشَك بالاستماع؟ حين أطرحُ هذا السؤال، غالبًا ما يحتاج الناس إلى التفكير، الأمر الذي قد يشيرُ إلى نُدرةِ الاستِماع الحقيقيِّ، لكنَّهم يتذكَّرون بعدَها ويحكون قصَّةَ رمزِ سُلطةٍ- والدَين، معلم، راعٍ، رئيس- استمعَ إليهم على غير المتوقَّع، فغيَّرهمْ هذا، ولديَّ الآن الكثير من هذه المحادثات بما يكفي أن أقول إنَّ كلَّ المحاضرات والعظات التي نسمعُها، وكلَّ الكتب التي نقرأها، وكلَّ التعليم والإرشاد اللذين نتلقَّاهما، لا يَصِلون بتاتًا إلى مستوى القوَّة المغيِّرة الناتجة عن الاستماع الحقيقيِّ.

يمكن أن تستمع دونا وآخرون مثلها؛ لأنَّهم التقوا الله المُستمِع. وأدركتُ في أثناء التدريب أنَّ الله، إلهَ دونا، هو إلهٌ أقلُّ وعظًا وحَذلقةً من إلهي، كما أنَّه إلهٌ أكثرُ ترحابًا؛ فحين كانت تقرأ مزمور ١٣٩، كان يعزِّيها أنَّه ما من مكانٍ للهَرَب من حضور الله، أمَّا أنا فأقول بأمانة إنِّي كُنتُ أجدُ الأمرَ مُرعِبًا؛ فحين كانَ إلهي يستمع، كان كمَن يتنصَّت عليَّ منتظرًا أن أقولَ أمرًا

خاطئًا ليقول: "أمسكتُك!"، أمَّا دونا فعلَمَتْني أنَّه حين نلتقي الله المُستمِعَ الذي يرحِّب بنا في مكانه، فإنَّ هذا يغيِّر الكيفيَّةَ التي نرى بها الله، كما يغيِّر أيضًا الكيفيَّة التي نرى بها أنفسَنا.

بداية الاستماع

يبدأ الاستماعُ حين نتعلَّم أنَّ أبانا السماويَّ يستمعُ إلينا، وقد يكون نمطُ الحياة البشريَّة هي أنَّنا نستمع أوَّلًا، لكنْ مع الربِّ نُسمَع دائمًا قبل أن نسمعَ، ولا يستمعُ الله جزئيًّا أو باستخفافٍ؛ فليس استماعُه مماطلةً مُصمَّمةً لمسايرتنا إلى أن نتعبَ؛ فمَلَكُنا يعطينا انتباهَه، محوِّلًا وجهه نحوَنا، مثل خادم مستعدٍّ لأن يسأل: "ماذا تريد أن أفعل بك؟" (متَّى ٢٠: ٣٢).

وكثيرًا ما يجري التعامُل مع استماع الله وعمله في الكتاب المقدَّس بوصفهما مترادفَين، إذ يتحرَّك الله داخليًّا بالصلاة، واستجاباتُه الخارجيَّة متضافرة مع استماعه حتَّى إنَّه يمكن التحدُّث بشأنهما بالتبادل. ونجدُ هنا المستمع النشط الحقيقيَّ: مَن يعملُ بناءً على ما

يسمعُه، لذا لا تنطبق على الله الشكوى الشائعة بأنَّ أحدَهم ''يسمعُ لكنَّه لا يستمع''، فهذا من مَواطِن ضعفِ البشر أن نستقبلَ الكلمات عبر قنوات الأذن، لكنَّنا لا ندعَ الكلمات تُحرِّكنا إلى أبعد من ذلك، وربَّما تتضمَّن عمليَّةُ التغيُّر إلى صورة الله جَسْرًا متدرِّجا للفجوة ما بين السماع والعمل.

أمَّا من جهة الله، فهذا الفصلُ غير موجود، ولا أعرفُ أيَّ مكان في الكتاب المقدَّس يقول فيه أحَدٌ إنَّ الله سمع صلاتي، دون أن يعني ضمنيًّا، على الأقلِّ، أنَّ الله عمل شيئًا ما بشأن صلاتي. وفي كثير من المواقف يستخدمُ كُتَّاب أسفار الكتاب المقدَّسِ عبارة ''سمع الله'' بمعنى أنَّه ''أجاب الله''، إذ نوظِّفُ استعارةً كلاميَّة- أجاب- حين يستخدمُ كتَّاب أسفار الكتاب المقدَّس استعارةً استماعيَّة في الإشارة إلى استجابة الله.

في عظةٍ بعنوان ''الله، الإله سامع الصلاة'' (The Prayer-Hearing God)، قال لاهوتيُّ القرن الثامن عشر الأميركيُّ جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards)، إنَّ ما

يميِّز الإلهَ الحقيقيَّ عن الآلهة المزيَّفة هو أنَّ الإلهَ الحقيقيَّ يسمعُ الصلاة؛ فالآلهة التي كانت الأممُ القديمة تصلِّي إليها ‘‘لا تستطيع السَّمع ولا تستطيع استجابة صلاتهم’’، أمَّا ‘‘صفةُ العليِّ، فهي أنَّه إلهٌ يسمعُ الصلاة’’.١ وفي كلِّ وقت يهمسُ أحدُهم بصلاةٍ أو حتَّى ببساطة ينظرُ نحوَ السماء، يتمسَّكُ برجاء أنَّ الله إلهٌ يستمع، و‘‘قوَّة الصلاة’’ موجودةٌ في ذاك الذي يقدرُ أن يسمعَ الصلاة. ويستطردُ إدواردز شارحًا ما يقصدُه بسماع الله للصلاة: (١) يقبلُ الله تضرُّعات أولئك الذين يصلُّون إليه، و(٢) يعمَلُ الله بحسب قبوله لصلواتهم؛ إذ يغلِّفُ استماعُ الله قبولَه للصلاة وعملَه بحسبها.

ويستخدمُ الكتَّاب العبرانيُّون لأسفار العهد القديم أداة بلاغيَّة تُسمَّى التوازي، وبها يؤكِّدون نقطةً ما بتكرارها في الجملة التالية باستخدام كلمات مختلفة. فمثلًا، تستبدلُ المزاميرُ بانتظام بكلمتي يسمع أو يستمع فعلًا نحسبُه عادةً فعلًا أكثر فاعليَّة، مثل يخلِّص. ومزمور ٥٥ مثلٌ بارز على هذا:

"أمَّا أنا فإلى الله أصرخُ، والربُّ يخلِّصُني. مساءً وصباحًا وظهرًا أشكو وأنوح، فيسمع صوتي. فدى بسلامٍ نفسي مِن قتالٍ عليَّ، لأنَّهم بكثرة كانوا حوليَّ. يسمع الله فيذلُّهم، والجالس منذ القدم" (مزمور ٥٥: ١٦-١٩).

يستبدلُ الكاتبُ بكلمة "يخلِّصُني" في الآية الأولى جملةَ "يسمعُ صوتي" في الثانية، ثمَّ يعود إلى "فدى بسلامٍ نفسي"، وبعدها يرجعُ إلى "يسمعُ"، مُلخِّصًا الأمرَ كلَّه بجملة "يسمِعُ الله فيذلُّهم"، ويمكن أن يبدِّلَ كاتب المزمور أفعالَ السَّماع وأفعال العمل بكلِّ سلاسةٍ؛ فهُما مندمجان في طبيعة الله. وهناك مرَّاتٌ في الكتاب المقدَّس حين يفصلُ الكُتَّاب ما بين سماع الله وعمله، لكنْ حتَّى في تلك المرَّات لا تُرسَمُ خطوطٌ فاصلة فصلًا حادًّا؛ فللاستماع الكتابيِّ برهانٌ، أو بصياغة أدقِّ، العمل هو اكتمال عمليَّة الاستماع، فإذا كان الاستماع هو الشهيق فالعمل هو الزفير، ودون المنظومة بأكملها ليست هناك حياة.

في الكتاب المقدَّس نلتقي الله الذي يطرح أسئلةً، وأسئلتُه تكون أحيانًا بلاغيَّة، لكنَّها عادةً ما تحملُ نغمةً أصيلةً ومنفتِحةً ومُحبَّة للمعرفة. وأعتقدُ أنَّ فرقًا أساسيًّا بين صوت الله والأصوات الشرِّيرة التي نلتقيها أحيانًا هو الكيفيَّة التي يطرحون بها الأسئلة؛ ففي المرَّة الأولى التي نلتقي فيها الشرَّ في الكتاب المقدَّس، تسألُ الحيَّةُ المرأةَ قائلةً: ''أحقًّا قال الله لا تأكُلا من كلِّ شجر الجنَّة؟'' (تكوين ٣: ١)، إذ تزحفُ الحيَّةُ في لؤمٍ، مُشوِّهةً دعوةَ الله القائلة: ''مِن جميع شجر الجنَّة تأكلُ أكلًا، وأمَّا شجرة معرفة الخير والشرِّ فلا تأكلْ منها'' (تكوين ٢: ١٦-١٧)، فالمجرِّبُ يعكسُ هبة الله بسؤالٍ خبيثٍ يُقصدُ منه إطلاق شرارة الارتياب وإعاقة العلاقة.

قارن هذا بالسؤال الذي طرحه الله عند دخوله التالي: ''أين أنت؟''، كنتُ قبلًا أتصوَّر ذلك المشهد في صورة الله الذي يبحث عن طفلَيه ناكِرَي الجميل، وقاصدًا بالسؤال أن يجتذبَهما ليخرجا من مَخبئهما كي يقبض

عليهما، لكنِّي توصَّلتُ إلى سماع سؤاله على أنَّه دعوةٌ يمدُّ فيها إليهما علاقةً حتَّى بعد أنِ ازدريا هما بالعلاقة، فعلى الأرجح يعلمُ الله أين هما، ومع ذلك يقدِّم إليهما فرصةً ليستَجيبا ويعودا وينضمَّا إلى المحادثة معه؛ فالمجرِّبُ طرحَ أسئلةً ليفرِّق ويحرِّض، أمَّا الله فيطرحُ أسئلةً ليستخرجَ حوارًا، أي محادثةً حقيقيَّة، وهو فعلًا مهتمٌّ اهتمامًا مُذهلًا باستجاباتنا.

كان يسوعُ يوجِّه أسئلة تدعو إلى حوارٍ أصيل منفتح، لا سيَّما حين كان يلتقي ساعيًا حقيقيًّا. وفي نقطة تحوُّلٍ في بشارة مرقس، طرح يسوع على تلاميذه سؤالًا حاسمًا: "وأنتم، مَن تقولون إنِّي أنا؟"، ولم يمسك بطرس بطرف ردائه صارخًا: "أنا المسيًّا، أيُّها الساذج!"، ولم يخشَ من طرْح الأسئلة الصعبة لأنَّه كان يريد أن يصل الناسُ إلى استنتاجاتهم.

في بعض المرَّات يطرحُ يسوعُ أسئلةً طرحًا ساخرًا، فنجدُ مثلًا في نهاية بشارة لوقا أنَّه ينضمُّ إلى تلميذَين مُحبطَين في سَيرهما الحزين عائدَين مِن أورشليم،

وكانا يظنَّان أنَّهما وجدا المسيَّا لكنَّ حياته انتهت في صمتِ الصَّلبِ، ثمَّ يعترضُهما غريبٌ تلمعُ عَيناه ويسألهما: ‘‘بمَ تتناقشان؟’’ فيشكَّان ولسانُ حالهما: ‘‘أكنتَ في كهفٍ يا رجل؟ أأنت الوحيد الذي لا يعرف ما جرى؟’’ فيهزُّ الغريبُ كتفَيه متسائلًا: ‘‘أي أمورٍ؟’’ [كمَن لا يعرف!]، ونجدُ في هذا التفاعل روحَ الدعابة والفرح، لكنَّ يسوعَ صبورٌ ولا يُفسِد المفاجأة، إذ لا يريد إلقاء الحقيقة عليهما مباشرةً، فيعطيهما مساحةً ليعبِّرا عمَّا يشعران به من خيبة أمل وتوتُّرٍ، وهذا أحدُ التحدِّيات العُظمى للمستمع: أنْ يؤخِّر ردَّه حتَّى يستطيع الآخرون التعبير عن مشاعرهم الآنيَّة وتوتُّراتهم العالقة. فبطرْح الأسئلة وكبْح الإجابات، يرحِّب يسوعُ بالأمانة والحسَّاسيَّة والحميميَّة، وفضلًا عن ذلك، يبدو أنَّه يستمتع بهذا النوع من التفاعل.

في بعض الأحيان، نجدُ أنَّ قدراتِ الاستماع لدى الله عميقةٌ جدًّا حتَّى إنَّها تصبح معضلةً عقائديَّة. فلنفكِّرْ مثلًا في إبراهيم ومساومته مع الربِّ بشأن مصير

سدوم، والتي نجح فيها بطريقة ما في أن يُقلِّصَ من غضب الله على شعب المدينة، أو موسى في إقناعه الله ليغيِّر رأيَه محافظًا على وعده بعد ارتداد الأمَّة العبرانيَّة بصُنعهم العِجل الذهبيِّ، وقد جعلتْ هذه القصص اللاهوتيِّين على مدى أجيالٍ طويلة يتقلَّبون في محاولة تفسيرها، وأيًّا كان فهمُنا للصورة التي لدينا عن الله- الصورة التي فيها يُشبِه الإنسان في تغيير رأيِه وتقديم التنازلات- علينا أن نخلُصَ إلى أنَّ الله يستمعُ استماعًا مُفعَمًا بالحياة، تحرِّكُه بعمقٍ مناشداتُ شعبه.

مدرسةُ يسوع في الاستماع

تاقت الكنيسةُ على مرِّ العصور لأنْ تتحدَّثَ مثل يسوع، وهذا منطقيٌّ لأنَّ يسوع كان يجتذبُ إليه جمهورًا أينما علَّم، وكلماتُه المخطوطة في الكتاب المقدَّس هي روحٌ وحياة، مُنعِمةٌ بالغفران وشافيةٌ المرضى ومقيمةٌ الموتى. ويجسِّد يسوعُ حديثَ الآب إلينا، لكنَّه يمثِّل أيضًا استعدادَ الآب للاستماع إلينا، فليس هو فقط المتحدِّث الرسميَّ الذي سبق الله فأعدَّه، بل هو أيضًا

المستمع الذي عيَّنه الله. ولكي يعلن الملكَ الأخبارَ السارَّة إلى العالم، عليه أوَّلًا أن يسمعَ الأخبار المحزنة من انكسار العالم وعبوديَّته، لذا فحتَّى نحاكيه تمامًا، ينبغي لنا أن نلتحق بمدرسته في الاستماع.

باتِّساع. كان يسوع يستمعُ استماعًا متَّسعًا، وربَّما لا تُدهشُنا الكيفيَّة التي يستمع بها بقدر ما يُدهشُنا مَن كان يستمع إليهم، إذ كانت ليسوع عادةُ الاستماع إلى الناس الذين كان يتجاهلُهم الآخرون- الفقراء والمرضى والمنبوذين والغرباء والخطاة، ويبدو أنَّ الكثير من أصحاب السُّلطة في مجتمعه لم يقدروا أن يسمعوا صرخات هؤلاء الناس، كما لو كانوا بعيدين عن مجال سمعهم. غير أنَّ سَمَعَ يسوعَ كان متناغمًا تناغمًا دقيقًا مع أصواتِ أولئك مَن بدوا كأنَّهم بعيدين جدًّا، وكان يتجاهل أولئك مَن كانوا يظنُّون أنَّ لهم الحقَّ في أن يُسمعوا، بينما كان يترك كلَّ شيء ليستمع إلى أصغر الأصوات.

حين كان بارتيماوس الأعمى، وهو من أريحا،

يصرخ طالبًا العونَ، حاولَ الجماهيرُ إسكاتَه. لكنَّ البشيرَ مرقس يخبرنا بأنَّ يسوع ''وقف''، وربَّما يكون الوقوف هو بداية الاستماع؛ فسُكَّان أريحا كانوا يسرعون الخُطى حين كانوا على مقربة من الأعمى، أمَّا يسوع والذي كان طريقُه إلى أورشليم مُعَدًّا أمامَه قبل ذلك، قرَّرِ أن يتوقَّف، ثمَّ سأل بارتيماوس: ''ماذا تريد أن أفعل بك؟'' (مرقس ١٠: ٥١). هل عرف العالمُ سؤالًا أجمل من هذا؟ هذا سؤالُ خادم، وهو السؤال الذي يضعُه يسوع أمامَ كلّ مَن يتوق إلى الشفاء، وهو يستمعُ منتظرًا استجابتنا.

بعُمق. كان استماعُ يسوع استماعًا عميقًا أيضًا، إذ كان يتميَّز بالفحص والاختراق قادرًا أن يسمعَ ما لا يُقال. وكانت إحدى تقنياته المُفضَّلة للتعمُّق هي الإجابة عن سؤالٍ بسؤال، وهي تقنية فعَّالة على نحو لا يُصدَّق، لكنَّها قد تُثير الغَيظ، مع أنَّها فعَّالة في تحديد دوافع الشخص. فحين تساءل معلِّمٌ للناموس قائلًا: ''يا مُعلِّمُ، ماذا أعملُ لأرثَ الحياة الأبديَّة؟''، ردَّ يسوع قائلًا: ''ما

هو مكتوبٌ في الناموس. كيف تقرأ؟" وبهذا ردَّ يسوعُ الكُرةَ إلى ملعب الناموسيِّ حيثُ ردَّ على سؤاله بسؤالٍ آخر، وهكذا أجبرَ الناموسيَّ أن يكشِفَ نيَّاته، فلم يكُن الرجُلُ يسعى إلى إجابات بقدر ما كان يسعى ليبدُوَ مُبهِرًا أمام الآخرين.

في استماع يسوع نجدُ أنَّ لديه أيضًا قدرةً كبيرةً على اكتشاف الاحتياجات الأساسيَّة؛ فنادرًا ما يقتنع بالمظاهر الدينيَّة التي يقدِّمُها إليه الناسُ، لكنَّه يصرُّ على فَحصِ مستويات أعمقَ من الرغبات الحقيقيَّة لدى الشخص. وحين التقى يسوعُ المرأة السامريَّة عند بئر يعقوب في يوحنَّا ٤، هناك محادثتان تجريان في الوقت نفسه: السامريَّة تقرأ تفاعُلَهما قراءة سطحيَّة، ويسوع يستمع استماعًا أعمق.

سمعتُ مرَّةً الواعظة الشهيرة بريندا سالتر ماكنيل (Brenda Salter McNeil)، عن المرأة السامريَّة. فهي امرأةٌ تجتهدُ لتُبقِيَ المحادثة مع يسوع على المستوى الحَرفيِّ، وتظلُّ عازمةً على الاحتفاظ بتفاعُلها مع هذا

اليهوديِّ الغريب مركّزًا على شُربِ الماء والدِّلاء والجبال، أمَّا يسوع فكان يستمع باحثًا عن التحرُّكات الداخليَّة الموجودة تحت نمط حياتها وماضيها المتقلِّب، والمشاعر والمخاوف الناطقة وراءَ الكلمات، وهو قادرٌ على سماع الخزي والرفض اللذين يتطلَّبان أن تأتي المرأة لتحصل على ماءٍ وحدَها في حرِّ النهار. ويستمعُ إلى التوق العميق وإلى خيبة الأمل الكامنة التي صاحبتْها في الكثير من العلاقات المكسورة، ويجرؤ استماعُه على التنقيب في أماكن لم تُكتشف بعْد.

كنتُ أفترض لوقتٍ طويل أنَّ خلفيَّة البئر هي مجرَّد سياقٍ بمحض الصدفة للقصَّة، أو ربَّما رمزٌ إلى تفوُّق يسوع على يعقوب الذي حفر البئر، لكنْ ماذا لو كانت البئر، الضاربةُ في أعماق مجهولة، هي شخصيَّة أخرى تمثِّل المحادثة الجارية تحت السطح؟ فالبئر تعكسُ الحكايةَ ما وراءَ القصَّة، وتُمثِّلُ الاحتياجاتِ الغائرةَ والتَّوقَ في حياةِ المرأة، وتحاول السامريَّة الاحتفاظَ بالمحادثة في الإناء الضحل على السطح. لكنَّ

يسوع يستمعُ إلى ما في الأماكن الخفيَّة الغائرة في نفسِها، جالبًا ألمَها السرِّيَّ إلى السطح، والماء الذي يعدُها به سيتفجَّرُ في تلك الأماكن العميقة الجريحة إلى حياة أبديَّة، جاذبًا إيَّاها من بئرها المُظلِمة إلى النور.

الحضور. يُظهرُ يسوع في خدمته أنَّ الاستماعَ الحقيقيَّ هو عملٌ من أعمال حُسن الضيافة، فالاقترابُ أمرٌ حيويٌّ في الكيفيَّة التي يستمعُ بها، إذ يدعو أناسًا إلى محضره، جالبًا إيَّاهم إلى بؤرة المشهد، الأمر الذي يُمثِّل قوَّة خاصَّة، لا سيَّما لأولئك المهمَّشين في المجتمع. ففي كلِّ مرَّة يرحِّب بجابٍ للضرائب أو زانية في المساحة الخاصَّة به، يعيدُ رسْمَ الخريطة الثقافيَّة والدينيَّة، إذ يؤتى بالمنبوذين إلى المركَز، ويُدفعُ بالسُّلطة الدينيَّة المتعجرفة إلى الأطراف، فيغيِّرُ المكانة الاجتماعيَّة للمُهمَلين فقط بالاستماع إلى أصواتِهم.

في يسوع نلتقي مستمعًا يقدِّم إلى الناس انتباهَه الكاملِ، فلا يستمع بتاتًا بأذنٍ واحدةٍ فقط، فحين لمستْ غريبةٌ رداءه في وسط جمعٍ غفير، لم يكتفِ بأن يجعلَ

قوَّته الشافية تعمل عملَها السحريَّ بينما يستمرَّ هو في طريقه، بل أصرَّ أنْ يلتقيَ المرأةَ التي لمستْه، وأراد سماعَ قصَّتها الكاملة، لا لكي يشعر هو بأنَّه يعرف عنها، بل لتشعر هي بأنَّها معروفة. وحين اقترب غنيٌّ من يسوع وسأله كيف يرث الحياةَ الأبديَّة، لم يصرفْه يسوع بنصيحة سريعةٍ، بل قَبِلَه وأحبَّه، وتحرَّك في داخله، واستمع من كلّ نفسه.

أمضيتُ أوَّل خمس سنوات في الخدمة محاولًا التكلُّم مثل يسوع، وكنتُ قد انطلقتُ من دراسة اللاهوت مصحوبًا "بموهبة التعليم" هابطًا مباشرةً وراء المنبر في أوَّل وظيفة لي. وكنتُ أقف أمامَ الناس كلَّ أحد وكنتُ أتكلَّم بتمكُّن حقًّا. أمَّا لاحقًا، فأمضيتُ آخر خمس سنواتٍ محاولًا الاستماع مثل يسوع، وهي عمليَّة استغرقت جهدًا أعظم بكثير، وبدأتُ ملاحظة كيف يستمعُ هو إليَّ، ما جعلني أحبُّه أكثر وأكثر. فالربُّ الذي يتحدَّث لي بالحقِّ هو ربٌّ صالحٌ وحقيقيٌّ، والربُّ الذي يستمع إليَّ هو ربُّ نعمةٍ وغموضٍ ومجدٍ،

وبالتزامي أن أستمعَ مثل يسوع، وجدتُ نفسي منغمسًا أكثر في عملِه، وبطريقةٍ ما أجدُ نفسي الآن أتكلَّم مثله أكثر ممَّا مضى.

حين لا يستمع الله

إنَّ اتِّحادَ السَّمع والعمل في شخصيَّة الله أمرٌ مُعزٍّ على الفور، لكنِّي أقول بأمانةٍ إنَّه أمرٌ مُربِكٌ أيضًا؛ لأنَّه يجعلُنا نتساءل: ما الحال إذًا حين يصمتُ الله؟

ما مِن أحدٍ مُحصَّن مِن مواجَهةِ هذا الصِراع؛ فالأمُّ تيريزا مثلًا اجتاحَها مثلُ هذا الصراع طَوالَ حياتها٢، فالترابطُ ما بين سماع الله وعمله إنَّما يضع السؤال في إطارٍ مُربِك وهو إرباكٌ من نوع جديد: إذا كان الله لا يعمَل على صلاتي، فهل يعني ذلك أنَّه لا يستمع؟ بل الأسوأ، هل يعني ذلك أنَّ لديَّ عقبةً تعطِّلُ عمل الله في حياتي؟ هل محادثتنا مقطوعة بسبب أمرٍ ما فيَّ؟

هناك كلامٌ شائعٌ في الأوساط الكنسيَّة أنَّ الله يسمعُ كلَّ الصلوات، لكنْ من وجهة نظر الكتاب المقدَّس، فهذا كلامٌ يصعبُ دعمُه، وهناك أمثلة واضحة يصمُّ الربُّ

فيها أذنَيه:

- ’’أَبْعِدْ عنِّي ضجَّة أغانيكَ، ونغمةَ ربابِك لا أسمعُ. وليجرِ الحقُّ كالمياه، والبِرُّ كنهر دائم‘‘ (عاموس ٥: ٢٣-٢٤).
- ’’ها إنَّ يدَ الربِّ لم تقصُرْ عن أنْ تُخلِّصَ، ولم تثقَلْ أذنُه عن أنْ تسمعَ. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم سَتَرَتْ وجهَه عنكم حتَّى لا يسمعَ‘‘ (إشعياء ٥٩: ١-٢).
- ’’مَن يُحوِّلُ أذنَه عن سماع الشريعة، فصلاتُه أيضًا مَكْرَهَةٌ‘‘ (أمثال ٢٨: ٩).
- ’’ومتى صلَّيتَ فلا تكُن كالمرائين، فإنَّهم يحبُّون أنْ يُصلُّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع، لكي يظهروا للناس. الحقَّ أقولُ لكم: إنَّهم قد استوفوا أجرهم! وأمَّا أنت فمتى صلَّيتَ فادخلْ إلى مخدعك وأغلِقْ بابَك، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي

يرى في الخفاء يجازيك علانِيَة. وحينما تصلّون لا تكرِّروا الكلام باطلًا كالأمم، فإنَّهم يظنُّون أنَّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبَّهوا بهم. لأنَّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أنْ تسألوه'' (متَّى ٦: ٥-٨).

- ''ونعلَمُ أنَّ الله لا يسمع للخطاة. ولكنْ إنْ كان أحدٌ يتَّقي الله ويفعل مشيئته، فلهذا يسمع'' (يوحنَّا ٩: ٣١)

أولئك الذين كان يسمع لهم الله إلهُ العهد القديم هم ذاتُهم الذين كان ابنُه يفضِّل سماعَهم في العهد الجديد: المنسحقين والمتَّضعين والفقراء والمُخلِصين، أمَّا صلوات القُهَّار والظالمين وغير التائبين وذوي البرِّ الذاتيِّ ومحبِّي العنف، فلا تعبرُ عتبةَ حُجرة عرش الله. وحين تعزفُ الفرقةُ الموسيقيَّة لحنَ الرياء والظُّلم، فلن يطربَ الربُّ، ويبدو أنَّ أذن الله تميل إلى أولئك الذين هم أنفسهم مستمعون. وحين

يسيء الناسُ استخدامَ سُلطتهم يُظهرون عدم استعدادهم للاستماع- لتقويم الربِّ ولصرخات الآخرين أيضًا- ولن يستمع الله إليهم؛ فالصلاة التي تُسمع هي صلاة العشّار التائب لا صلاة الفرِّيسيِّ المُعجب بذاته.

وهنا تدخلُ عطيَّةُ الاعتراف إلى المحادثة، فقد تكون هناك أوقاتٌ حين تُعطِّل الخطايا المحادثةَ الاستماعيَّةَ ما بيننا وبين الله. وغالبًا ما نعرف حين يحدث هذا لأنَّه في كلِّ مرَّة نحاول فيها أن نصلِّي تأتي الخطيَّة إلى ذهننا، وفي بعض الأحيان سنُدعى لنعترف ونتصالح مع شخص آخر قَبل أن نأتي أمامَ الله، وفي أوقاتٍ أخرى سنحتاج إلى غفران ذنوب الآخرين كي نقبلَ تمامًا أن تُغفَرَ ذنوبنا. أمَّا الخبرُ السارُّ فهو أنَّه يمكننا الثقة في أنَّ أذني الله مفتوحتان دائمة للتوبة.

كم أتمنّى لو كان الأمر دائمًا بتلك البساطة. فجزءٌ منّي يرغب لو كان ممكنًا أن نختصر تلك المواسم إلى الأوقات التي يبدو فيها أنَّ الله لا يستمع إلى الخطيَّة غير المُعترَف بها. لكنَّ هذا الأمر غير عادل إذا نظرنا إلى خبرات قدِّيسين كانوا قبلنا، ممَّن توجَّعوا بسببٍ ما يبدو مِن غيابٍ لله بينما ظلُّوا أمناء له أمانةً مستمرَّة صامدة.

ليست الصلاةُ سلَّمًا نبنيه ليصل إلى السماء، لكن بحسب تعبير ديترتش بنهويفر (Dietrich Bonhoeffer) الصلاة هي عملُ الله فينا. فحين لا نتحوَّل بعيدًا عن الله في أزمنة المِحن والتشوُّش، أومن بأنَّ ذلك مؤشِّر إلى أنَّ الله أيضًا لم يتحوَّل بعيدًا عنَّا، فحين يصلِّي شخصٌ ما أو ينظر فقط في تَوقٍ نحو السماء، حتَّى لو كان يشعر بأنَّه متروكٌ، فصلاتُه تشيرُ إلى حضور الله المستمرِّ.

يذكَرُنا الكثيرُ من الحكماء الروحيِّين ألّا نخطئ الفهم خالطين ما بين اختبار حضور الله والحضور نفسه؛ فلدينا صورٌ كتابيَّة متّسقة عن الله الذي يسعى إلى أبنائه إلى أقصى الأرض فاتحًا أذنَيه لهم، ومُحِبًّا إيَّاهم حبًّا شغوفًا مثلَما يحبُّ والدان أبناءَهما، فهو عِمَّانوئيل، الله معنا، إلى انقضاء الدهر.

ورغم تعرُّضنا في أزمنة الصمت المؤلم إلى إغراء التفكير في أنَّ الله كشخص تعلو وجهه نظرة متجهِّمة باردة، رافضًا تواصل الأعين، فقد وجدتُ أنَّه من المُعزِّي أن أفكِّر في الله كمَن يجلسُ ببساطةٍ معنا في ألمنا، يستمع في سكونٍ، وما يبدو لنا كأنَّه صمتٌ غريبٌ قَلِق هو في الحقيقة صمتٌ رقيقٌ ممتلئ، وعلينا تذكُّر أنَّ الاستماع ليس خامدًا، فحين يستمع الله إلينا حتَّى لو لم نختبر النتائج التي نرجوها، فهو متاح لنا على نحوٍ نَشِط، وعلينا أيضًا

تذكّر أنَّ حقيقةَ سماع الله لصلواتنا لا يجعله خانعًا مستسلمًا لطلباتنا، فليست كلمات الصلاة تعاويذ لها قوَّة في طبيعتها لتغيِّر أنماط الأجواء المقدَّسة. فحين لا يعطينا الله طلبات صلاتنا المحدَّدة، قد يكون ذلك مؤشِّرًا إلى أنَّه يعمل على أمور أخرى فينا- أمور مثل الثقة والاعتماد والاتِّضاع والصبر والحكمة، بل حتَّى الحميميَّة معه.

أجدُ أنَّ من المستحيل محاولة جَعْلِ الله يتشارك معي في الإحساس بمدى استعجال أمور معيَّنة، فبقدر ما أودُّ لو كان الله يطارد عربات الإسعاف التي تخُصُّني وهي تحوم تحوم في كلِّ أنحاء المدينة، لا يبدو الربُّ منشغلًا أو قلِقًا بشأن أحوال حياتي بدرجة قلقي ذاتها. إنَّه أمرٍ يصيب بالجنون، بل يبدو أحيانًا كما لو كان صمتُ الله يحمل رسالةً: اخفِض السُّرعة، لذا تعلَّمتُ على مدار السنين أن أستمعَ

باحثًا عن الصمت بقدر ما أستمع باحثًا عن الأصوات، لأنَّ في لحظات الصمت تلك إشاراتٌ وتلميحات، ولا يختلفُ الأمرُ كثيرًا عمَّا يفعلُه بِعضُ أصدقائي مع طفلٍ مُفرطِ النشاط؛ فبدل توبيخه أو إجباره على الجلوس، يتركون الطفل يرهِقُ نفسه حتَّى يتعب، فيظلُّ يصرخ ويقفز ويدورُ- في إطار الحدود التي يضعونها- حتَّى تنفدَ طاقتُه أخيرًا ويهدأ، ويُخيَّل إليَّ أنَّ الله يصمتُ أحيانًا ليَدَعني أفرِّغُ طاقتي بكلِّ ما لديَّ من إحباطاتٍ وصرخاتِ الظُّلم وكلِّ المناقشات بما فيها من كلماتٍ منمَّقةٍ بعنايةٍ والتي غالبًا ما تُخفي نَوباتِ غضب، حتَّى أُرهَقَ وأكون ربَّما جاهزًا في النهايةِ للاستماع.

هناك اختبارٌ شائعٌ بين كلِّ المسيحيِّين، صاغَه أفضل صياغةٍ القدِّيس يوحنَّا الصليب (St. John of the Cross) وهو زاهدٌ من القرن

السادس عشر، وأطلَقَ عليه اسمَ الليلة المُظلمة للنَّفس. والفكرة هي أنَّه في المراحل الأولى من الإيمان، يُعلَن صَوتُ الله في حياة المؤمن الجديد مدوِّيًا، وتكون الصلاةُ مثيرةً والقراءة التأمُّليَّة أشبَهَ بوَليمةٍ للنَّفس، والحياة الروحيَّة أشبَهَ بممرٍّ ناقلٍ للكهرباء نقف عليه ببساطة ويتحرَّك بنا مقتربين إلى الربِّ الذي نسعى إليه. لكن عند نقطة ما، يُطفئ أحدُهم الأنوار، وتُسمَّى هذه المرحلة عادةً الليلة المظلمة للحواسِّ، ويختفي حينها كلُّ "الإحساس" بحضور الله، فلا ترى أعينُنا مجدَه ولا تسمعُ آذانُنا تَعزياته، ولا تلمسُ أيادينا جراحه، ويصبحُ ما كان يومًا علاقةَ حبٍّ متوهِّجة زواجًا فاترًا، مِثل زوجين جالسين في مطعم لطيفٍ في ذكرى عيد زواجهما وليس لديهما ما يقولانه.

هنا يشجِّعُنا القدِّيس يوحنَّا ألَّا نستسلمَ، لأنَّ

هذه المرحلة من العلاقة هي المرحلةَ التي يبدأ فيها حقًّا العملُ الشاقُّ للحبِّ، فالله يسحبُ إحساسَ حضوره حتَّى لا نطلب سِحر مجده، بل نطلبه هو. فحتَّى لو لم نشعر بالحضور المُستمع لله حولَنا، فلا يزال الله يستمع ويعمل بهدوءٍ بواسطة شكوكنا وصراعاتنا، فقد لا يجيب الله صلواتنا إجابةً مباشرةً، لكنَّه يسير في هدوءٍ في حياتنا، ويومئ إلينا لنقتربَ إليه أكثرَ وأكثرَ، عاملًا فينا أمورًا جديدة.

الفصل الثالث

الاستماع إلى الله

إنَّها قصَّة جبلَين. يندفعُ النبيُّ إيليَّا إلى المشهدِ في منتصف سفر الملوك الأوَّل، ممتلئًا ثقةً وتحدِّيًا، وكلمةُ الله على شفتَيه، وطاعتُه هي لأوامر الله، حتَّى حين كانت تلك التعليمات غريبة وغير جذَّابة بتاتًا، كأن يُقال لك: ‹‹كُلْ ما تُطعِمُك إيَّاه الغربان››. وهذه طاعةٌ تخلو من العيب أو الخطأ؛ فهو يستمعُ إلى الربِّ، والربُّ يستمع إليه، ويصدِّقُ إعلانَ الله بأنَّ مجاعةً ستقهر الشعب العبرانيَّ. وحين يُصلِّي أن يتوقَّف الجفاف على الأرض الذابلة، يلتزمُ الله ويستجيب أن يُرسلَ سحابة مطرٍ صغيرةً، لكنَّها فعَّالة جدًّا.

يصلُ النصفُ الأوَّل من قصَّة إيليَّا إلى ذروته على جبل الكرمل، وهو المكان العالي الذي كان قد خصَّصَه الشعبُ المتمرِّد لإله الخصب ‹‹البعل››. ويقترحُ النبيُّ الجريء مواجهة كونيَّة حاسمة بين الإلهَين وعِباد كل

منهما، فيدعو إيليًّا أنْ يصنع عابدو البعل مذبحًا لما يسمُّونه إلهًا، وهو سيصنعُ مذبحًا لإلهه، وسيريان مَنْ من الإلهَين سيتحدَّثُ بنارٍ: فالذي يُمطر نارًا ويأكل الذبيحة هو الإله الحقيقيُّ، ويبدأ التحدِّي مع أنبياء البعل.

لو صُوِّر هذا المشهد في فيلم روائيٍّ طويل، لكانَ جبل الكرمل سيُصوَّر من زاوية واسعة بمصاحبة موسيقا مؤثِّرة، بينما يختال إيليًّا على قمَّة الجبل، ساخرًا بأعدائه، وطالبًا نارًا لتنزل من السماء. وسيُعرضُ المشهدُ بالتصوير البطيء بينما تبتلعُ ألسنةُ النار الذبيحةَ، ثمَّ يتبع ذلك قتالُ الأنبياء، ويهرب تابعو البعل ناجين بحياتهم. أمَّا لإيليًّا، فسيكون جبلُ الكرمل هو قمَّة الانتصار- ذروةُ عدل الله وحقِّه وأعلى نقطة في خدمته. إنَّه فورةُ أدرينالينِ دعوته النبويَّة.

نرى بعد ذلك بأصحاحٍ واحدٍ إيليًّا مختلفًا جدًّا على جبل جديدٍ، ونراه ضعيفًا وهشًّا وأقلَّ بطولة وأكثر بشريَّة. ورغم أنَّه فوق جبلٍ عالٍ، فيبدو كأنَّه منحدرٌ في إهانةٍ جليَّةٍ لخدمته النبويَّة؛ فبعد الضجَّة التي أثارَها عند

الكرمل، أقسمتْ إيزابل زوجةَ أخآب إنَّها ستقتل بطلَنا، وها هو هناك يقبعُ وحيدًا مرتعشًا في كهفٍ، في وضع ذهبت فيه عنه غطرستُه، وبات يخشى على حياته. ولوْ صُوِّر هذا المشهد سينمائيًّا ستكون من نصيبه أغنيةٌ حزينة مع تصويرٍ لنظراته السارحة الكئيبة وآهاته اليائسة.

ليست هذه القمَّةُ قمَّةً عشوائيَّة في الصحراء؛ فها إيليَّا يرتجف على الجبل نفسه الذي وقفَ عليه العبرانيُّون، قبل ذلك بقرون بعد تحرُّرهم من عبوديَّة مصرَ، يرتجفون حين كتب الربُّ ناموسَه على لوحَي حجر. وعلى الفور هرب النبيُّ من مخالب إيزابل إلى جبلِ حوريب، والمعروف للأجيال السابقة بِاسْم جبل سيناء، ومن الصعب إغفال التوازيات القصصيَّة هنا؛ إذ سافرَ إيليَّا في رحلة مُضنية مدَّتُها أربعون يومًا وأربعين ليلة مبتعدًا عن المملكة الشماليَّة راجعًا في البرِّيَّة في الاتِّجاه المعاكس للطرق التي سار فيها الشعب العبرانيُّ مدَّة أربعين سنة قبل عبور الأردنّ، وبدا كما لو كان يريد

العودة بِالزمن إلى الوراء، إلى عهدٍ كانت دعوةُ الله فيه واضحة، حين كان هدف العبرانيِّين أمامَهم، ولم يكُن هناك أيُّ تساؤل بشأن الإله الذي ينبغي لهم أن يعبدوه.

في الفصل الأوَّل من القصَّة على ذلك الجبل، ظهر الله في دخان ورعدٍ ونارٍ، ولم يحتملِ الشعبُ ذلك، وتوسَّلوا إلى موسى ليتشفَّعَ من أجلهم. ثمَّ التقى موسى الله على الجبل المقدَّس، وفي مشهدٍ دراميٍّ، جازَ الله عن موسى في كلِّ ملئه بينما خبَّأه في شقٍّ أعلى الجبل خشية أن يفنى موسى بفعلِ المجد. لذا، ففي الفصل الثاني من القصَّة، حين يشير الصوتُ إلى إيليَّا داعيًا إيَّاه إلى الخروج من مأواه قائلًا له: ”قِف على الجبل أمامَ الربِّ. وإذا بالربِّ عابر“، ولا يحتاج إيليَّا هنا إلى الرجوع إلى كتابه المقدَّس ليفهم ماذا يحدث، فقد يكون الربُّ رَحِيمًا وبطيء الغضب، لكنَّ أمرًا مثل هذا يمكن أن يجعلَ المرء يستشيطُ، ويستحقُّ المشهدُ التالي الاقتباس كاملًا:

”وريح عظيمة وشديدة قد شقَّت الجبال وكسَّرتِ

الصخورَ أمامَ الربِّ، ولم يكُن الربُّ في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكُن الربُّ في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكُن الربُّ في النار. وبعد النار صوتٌ مُنخفضٌ خفيف. فلمَّا سمع إيليَّا لفَّ وجهَه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة، وإذا بصوت إليه يقول: «ما لك ههنا يا إيليَّا؟»" (١ملوك ١٩: ١١-١٣).

يحرِّك كاتب سفر الملوك الأوَّل مزيجًا من مشاعر تُذكِّر بأمور تبدو كأنَّها تكرار تفصيليٌّ لما حدث سابقًا، إذ يُعاد النظرُ إلى التأثيرات الخاصَّة بسيناء، والتي اصطفَّت أمامَ إيليَّا في موكبٍ مرعِبٍ- شدَّة الريح، وصرير الزلزلة، والنار المشتعلة- لكنَّ هذا المرَّة ليس الربُّ هناك، وتقترحُ روث هيلي بارتون (Ruth Haley Barton) أنَّ الاضطرابَ الجاريَ خارج المغارة يحاكي القلاقل التي تُعذِّب العالمَ الداخليَّ لإيليَّا١، لكن بعد ذلك سمع إيليَّا الصمتَ- أجل، سمعَ الصمتَ- وعلم أنَّ ذاك هو الربُّ، فامتُصَّ كلُّ الهواء من الجوِّ المحيط دون أن

يخلف شيئًا سوى ‘‘الحضور’’، وليس هذا بالصمت الحليم، بل هو أشبَه بالصمت الذي يأتي في صورة صفعةٍ على الوجه.

ينقل الربُّ إيليًّا من التشويش إلى الراحة، وهي عطيَّة مقدَّسة في صيغة أمرٍ: ‘‘توقَّف’’. وبينما قد تخطرُ في بالِنا الصورةُ واللغةُ المستخدمتان في قصَّة سِفر الخروج، فإنَّه يمكننا أيضًا أن نرى لمحاتٍ من قصَّة الخلْق في هذا النصِّ، حيث تُقادُ القُوى والعناصر الأساسيَّة في أوَّل الزمان إلى الراحة في الجوِّ الخارجيِّ، وفي مناخ حياة إيليًّا في داخله أيضًا. وقد كان الله يعرف أنَّه فَي دوَّامات تشويش هذه لن يسمعَ إيليًّا على الأرجح صوتَه، لذا يقترب من النبيِّ في صمتٍ. وبمجرَّد أن يدركَ الصمتُ نفسَ إيليًّا، سيقدرُ أن يستمع إلى صوت الله. ونرى هنا أنَّ عمل الله المفاجئ على جبل حوريب لا يفعل شيئًا ليغيِّر وضع إيليًّا؛ فلا يزال إيليًّا نبيًّا مطلوبًا تطارده ملكةٌ متعطِّشة إلى الدماء. ورغم ذلك، فالتفاعل هنا بطريقةٍ ما يغيِّر كلَّ شيء،

ويتحوَّل الجبلَ من مكانِ يأسٍ وانهزامٍ إلى مكانِ جرأةٍ ودعوةٍ متجدِّدة.

يتحدَّث الله في أفضل الأزمنة وفي أسوأها، ويصعدُ إلى الأعالي مع إيليَّا، صارخًا في لحظة انتصار، ويهبطُ إلى الأعماق مهدِّئًا قلبَه في لحظةِ يأس. ويتحدَّث الربُّ في النارِ، ويتحدَّث في الصمتِ، ويرعِدُ ويهمسُ، ويطرحُ أسئلةً ويعلنُ تصريحاتٍ. وسواء وسط جمهور عدائيٍّ أم في العُزلة، ينطلق صوتُه. والله نفسه الذي يتحدَّث في العملِ والظهور النبويِّ، يتحدَّث أيضًا في التأمُّل والعُزلة. وعلى حدِّ تعبير دالاس ويلارد (Dallas Willard)، كان إيليَّا يعيش في ''كونٍ يتواصل''٢، فهذا الكون الذي نعيش فيه شخصيٌّ جدًّا؛ لأنَّ الله القائم عليه وفيه يريدُ أن يتواصل معنا.

شخصيٌّ جدًّا

إنَّ اقتناعي هو أنَّ كارثةَ عصرنا العلميِّ والتكنولوجيِّ هي تبديد كلِّ ما هو شخصيٌّ. فمع أنَّ هناك قلبًا نابضًا في مركَز الكون يعطي الحياةَ والمعنى لكلِّ شيء، فإنَّ

احتياجنا إلى السيطرة يُقلِّصُ كلَّ شيء نحوَ الآليَّة، وحين تفقدُ حياةُ العالم وجهَها وصَوتَها وأذنيها، تُصبح نظراتُنا معتمدةً على السبب والنتيجة في صورتهما المُجرَّدة، والتي تضعها في الكون قُوى عشوائيَّةٌ غير مكترثة، ونسعى لنؤطِّر للحياة داخل مبادئ ميكانيكيَّة، فنستهلك البيئةَ من أجل أهدافنا الخاصَّة دون أي تحسُّبٍ للنتائج، وننظر إلى الناسِ بناءً علي ما يمكننا الحصول عليه منهم، وكيفيَّة استغلالهم لنحقِّق نحن أهدافَنا، كما نرى البشرَ كأنَّهم أجهزةُ كمبيوتر، في صورة بيانات وبرامج، أو نجد أسماءً لهم حتَّى نستطيع تكديسَهم ضمن فئاتٍ مرتَّبة لئلَّا يزعجونا. وتتوسَّطُ تواصلنا شاشاتٌ، وكثيرًا ما نحيا حياتنا مثل شاشاتٍ حيث تُكرَّس أوقاتُ خلوَتِنا للتكنولوجيا الشخصيَّة، وتصبح الأخلاقيَّات هي ما تُمليه القواعد الملموسة والإجابات الجاهزة، وتتعزَّز بعالم أبيض وأسود أكون فيه أنا على صوابٍ وأنت مخطئٍ، ويُصبح الدينُ موافقةً عقليَّة على منظومة عقائديَّة بدل "نَعم" خارجة من قلبٍ كامل إلى

"شخص".

إنَّ الرِّسالة الموجودة في قصَّة إيليَّا، بل على امتداد الكتاب المقدَّس كلِّه، لا يمكن أن تختلف كثيرًا عن قصَّتنا الثقافيَّة اللاشخصيَّة؛ فكُتَّاب أسفار الكتاب المقدَّس يُعلنون في صوتٍ واحد أنَّنا نعيش في كَونٍ ذي وجهٍ (يتفاعَل)، في مكانِ تواصلٍ ومحادثة وحميميَّة، والنظرة اللاشخصيَّة ليست نظرة تقدُّميَّة في الواقع، بل تنتمي إلى عبادة الأوثان في الأمم القديمة. ونجِدُ النبيَّ إرميا يُطمئنُ شعب العهد القديم أنَّ أوثانهم "كاللَّعين في مقثأة فلا تتكلَّم! تُحمَل حملًا لأنَّها لا تمشي! لا تخافوها لأنَّها لا تضرُّ، ولا فيها أنْ تصنع خيرًا" (إرميا ١٠: ٥)، لم يكُن ممكنًا للأوثان أن تكون حقيقيَّة لأنَّها غير شخصيَّة، والكونُ يُحكَم من قِبل "شخصٍ" يتحدَّثُ ويعملُ ويتحرَّك.

لدى تيم كَلِر (Tim Keller) نظريَّة تقول إنَّ الكثيرين جدًّا من الناس يرفضون المسيحيَّة؛ لأنَّها شخصيَّة أكثر من اللازم. فللقوَّة الفائقة ما وراء الكون شخصيَّةٌ، وهي

قادرة أن تكونَ معروفةَ، بل تريد أن تكون معروفةَ، ولهذه القوَّة ظهورٌ يلمعُ في وجه يسوع المسيح، وذلك المستوى من الشخصيَّة هو أمرٌ اجتياحيٌّ لكثيرٍ من الناس؛ إذ نفضِّل صُوَرَنا المُجرَّدة التي يُمكِن الَتحكُّم فيها للإله- صورًا لا تهدِّدُنا بالإمكانيَّة المرعِبة من علاقة حقيقيَّة به.

الخوفُ في السماع

إنَّ طبيعة الله هي أن يتحدَّث، وللأمانة، يضعُنا هذا في مكانٍ مُطمئنٍ مُفرح، لكنَّه أيضًا مكانٌ خطِر جدًّا، إذ نجدُ أنفسَنا بطريقةٍ ما في دفء الرَّحِم وعلى حافَة جرفٍ في الوقت نفسه؛ فمعرفتُنا بأنَّنا لسنا وحيدين، وأنَّ صدى صوت الله يدوِّي إلى أقاصي الأرض، تذكِّرُنا أنَّ الكونَ مكانٌ آمِن تمامًا٣، ويفقد الشعورُ بالوحدةِ بعضًا من قوَّته حين ندرك حقًّا مدى ''امتلاء'' الكون. وحينها تجدُ الأسئلة المؤلِمة والشائكة مكانًا للذَّوبان، حتَّى وإنْ لم تختفِ تمامًا، أمامَ حضور الربِّ. وفي الوقت نفسه، تأكيدُ أنَّ الله الإله الحقيقيَّ يتحدَّث،

وليس نوعًا من الإسقاط المقدَّس من خيالنا، هو أمرٌ مرعِب، إذ ليس لدينا أيُّ تحكُّم فيما سيقولُه، فماذا إنْ لم يرُقنا ما نسمعُه؟ فاستماعُنا الحقيقيُّ لإله مثل هذا يتضمَّن انفتاحًا جذريًّا إلى الدهشة والمخاطرة والتغيُّر، بل الألم، أو ماذا لو لم يرُقنا توقيت حديث الله؟ الاستماع الحقيقيُّ سيستلزم تعلُّم كيفيَّة الانتظار والثقة، وأحيانًا تعلُّم التحرُّك قبل أن نشعرَ بالاستعداد لذلك.

ربَّما يكون السؤال الأكثر شيوعًا بشأن هذا الموضوع هو: ‘‘لماذا لا أستطيع سماعَ صوت الله؟’’ لكنِّي أتساءلُ ما إذا كان السؤالُ الحقيقيُّ هو ‘‘لماذا لا أسمعُ صوتَ الله؟’’، فالكتاب المقدَّس يقدِّمُ إلهًا يتحدَّثُ إلى الإنسانيَّة بانتظام، بطرق عدَّة، ومع ذلك هو إلهٌ يلومُنا لعدم استماعنا، فَمثلًا يناشدُ ناظمُ المزمور قائلًا: ‘‘اليومَ إنِ سمعتُم صوتَه، فلا تُقَسُّوا قلوبَكم’’ (مزمور ٩٥: ٧-٨)؛ فالصممُ الروحيُّ أمرٌ لا يتعلَّقُ بقدرة الأذن على السمع بل برقَّة القلب، ونحن مَن يعيشون في هذا الكون الشخصيِّ الحميميِّ مدعوُّون لأن نفتحَ قلوبَنا ونستمعَ.

تقودُ المتطلّبات الشخصيَّة التي يضعُها الاستماعُ علينا إلى تنصيب سدودٍ لحماية الذات، فالاستماع يجلبُ إلى السطح مشاعرَ عجزنا، لذا نحشدُ المنطقَ النفسيَّ واللاهوتيَّ لنستعيد شعورَنا بالقوَّة، وأحدُ التفسيرات الشائعة لعدم احتياجنا إلى القلق بشأن فكرة أنَّ الله يتحدَّث إلينا مباشرةً هو أنَّ الكتاب المقدَّس يحتوي على كلِّ الإعلان الذي نحتاجُ إليه، فربَّما كان المؤمنون القدامى يحتاجون إلى سماع الله بطرقٍ أخرى، لكن ما دام الكتاب المقدَّس قد نال قانونيَّته في الأسفار الآن، فليس هناك بعْدُ مثل هذا الاحتياج. وقد يقولُ بعض الأشخاص إنَّ التركيز على أيَّة وسيلة أخرى من وسائل تواصل الله، إنَّما يُشكِّك في كفاية الكتاب المقدَّس.

ينتابُني شعورٌ بالقلق من أنَّ حصْرَ تواصل الله عن ذاته في كلماتٍ كُتبت على مخطوطاتٍ قبل آلاف السنين يؤدِّي بإيماننا لأن يصيرَ قديمًا يعلوه التراب مثل بعض كتبنا المقدَّسة. فتقديرُ الكتابِ المقدَّس ووضعه في مكانته العالية لا يمكن أن يعني تكميمَ كلمة الله

الشخصيَّة التي يواصِلَ التحدُّث بها إلى الكنيسة، فلا يمكننا الاختباء وراءَ كتبنا المقدَّسة لتحمينا من فوريَّة صَوت الله وتواصله المباشر. ودالاس ويلارد محقٌّ بشأن أنَّ الكتاب المقدَّس هو ‘‘العنوان الثابت حيث تسكنُ كلمةُ الله’’، لكنِّي أضيف أنَّ الله يتحرَّك دائمًا، ويشهدُ الكتاب المقدَّس نفسُه على طرقٍ متعدِّدة يكشف الله فيها عن نفسه، فلن يتعارضَ حديثُ الله الشخصيُّ مع الكتاب المقدَّس المُفسَّر بوصفه وحدةً واحدة. وكثيرًا ما يصل حديثُه الشخصيُّ هذا إلى حياتنا عبْر كلمات كُتَّاب أسفار الكتاب المقدَّس. غير أنَّ الخضوعَ التامَّ للكتاب المقدَّس يعني الاستماع إلى الله الذي يشهدُ له الكتاب المقدَّس- ذاك الذي يحيا في علاقةٍ حيَّةٍ بشعبه، وحينها فقط نكون قد أيَّدنا قُدسيَّة الكتاب المقدَّس.

الاستماع إلى الكتاب المقدَّس هو الكيفيَّة التي بها نجعل نفوسَنا تألَفُ صَوت الله؛ إذ نأتي وجهًا لوجه وأذنًا لفم، مع خالقنا وفادينا ورازقنا، ولا ينبغي للكتاب المقدَّس أن يغلِق علينا ضدَّ سماع صَوت الله في أماكن

أخرى، بل يجب أن يجعلنا ننفتح على تمييز صوته أينما نسمعُه، بمعنى أن يكونَ الكتاب المقدَّس أشبَهَ بالشوكة الرنَّانة التي نضبطُ بها آذانَنا على نغمة صَوت الله، فيجعلنا الكتاب المقدَّس في تناغم مع الجودة واللحن والإيقاع الذين في صوت الله، وفي تناغم مع الشخصيَّة التي يعبِّرُ عنها صَوتُه، لنستطيعَ تمييزَ صَوتِه الحقيقيِّ وسطَ الأصوات المزيَّفة. وينبغي أن نحترس ألَّا نحدَّ حديثَ الله أو نحصر الساحات التي يمكنه التحدُّث إلينا فيها. وفي بعض المرَّات يبدو كأنَّه بالإمكان تمييز التقاليد المسيحيَّة المتنوِّعة بالكيفيَّة التي بها يصرِّحون أنَّ الله يتحدَّث إلينا، فقد تقولُ كنيسةٌ ما إنَّ الله يتحدَّث في أوضح صورة ممكنة في العبادة العامَّة، وتقولُ كنيسةٌ أخرى إنَّه يتحدَّث في أكمل ما يمكن في الأسرار المقدَّسة، وقد ينادي تقليدٌ ما أنَّ الله يتحدَّث بواسطة قائدٍ ما، ويقولُ تقليدٌ آخر إنَّه بالإجماع، وستقول مجموعةٌ إنَّ الله يتحدَّث فقط في الكتاب المقدَّس، وأخرى ستقول إنَّه يتحدَّث أيضًا في التقليد المُسلَّم إلينا، وسيقولُ أحدُهم

إنَّ الله يتحدَّث في التأمُّل الصامت، ويقولَ آخرُ إنّه في الألسنة الجَهْوَريَّة، وتقولُ كنيسةٌ إنَّ الله يتكلَّمُ في مناسباتٍ وَفيرةٍ، بينما تقولُ أُخرى إنَّه هادئٌ قويّ.

أخشى أن تكون الكثير من المناقشات اللاهوتيَّة الموجَّهة ضدَّ فكرة أنَّ الله يتحدَّثُ إلينا شخصيًّا اليوم هي ستارٌ من الدخان يُصاغ صياغةً جيِّدة بسبب الخوف، وأنا متفهِّم لهذا الخوف، فربَّما ليس هناك أمرٌ أكثر جاذبيَّة- وغموضًا- من طبيعة تواصل الله مع البشريَّة، وليس محصَّنًا سوى قليلين ضدَّ إغرائه أو حتَّى إساءة استخدامه. فقد فعل الناسُ على مرِّ العصور أمورًا مدمِّرة ومرعبة وكانت كلُّها كما يقولون لأنَّ الله أخبرهَم بأن يفعلوها، فاندلعت حروبٌ من جانبَين يدَّعي كلاهما أنَّهما أُوحي إليهما بكلمةٍ من الربِّ، وقد ادَّعى أناسٌ أنَّ الله كشف لهم حقيقةً جديدةً تعارضُ إقراراتِ الإيمان التاريخيَّة في الكنيسة، وقد تعيَّن قادةٌ لهم كاريزما خاصَّة بوصفهم المتحدِّثين الرسميِّين بالنيابة عن الله بالتودُّد إلى الجماهير الذين كانوا يُخدَعون بقوَّةِ

حاكم ديكتاتوريّ. وبسبب هذه الجرائم، التاريخيَّة منها والمعاصرة، وصلنا إلى صيغة بسيطة وموثوق بها وهي أنَّ عبارة ‘‘الله كلَّمني’’ تساوي ‘‘أنا مجنون’’.

طريقةٌ أخرى يظهرُ بها هذا الخوفُ حين تأتي مجموعاتٌ بترتيبات هرميَّة للاستماع، حيث يُستأمنُ أناسٌ معيَّنون بمكانة امتياز السماع من الله، فيُمسَحُ قائدٌ، لأنَّ له كما يُفترَض أفضلَ أذنَين روحيَّتَين، ليسمعَ كلمة الله من أجل الآخرين. والكلُّ فائزٌ هنا؛ إذ يجمع هو القوَّةَ والغِنى، بينما ينال الناسُ في الجماعة الحماية من الحاجة إلى السماع مباشرةً من الله، فالناس على استعداد أن يدفعوا مبالغَ هائلةٍ من المال ليتجنَّبوا ملاحقة مُطارد السماء لهم٤، فالكثيرون يخافون حقًّا من فكرة أنَّ الله يتحدَّث، إذ يهدِّد ذلك شعورَهم بالسيطرة تهديدًا جادًّا. لكنِّي أتساءل ما إذا كان الخوف الأعظم هو التالي: ماذا لو لم يرد الله أن يتحدَّث إليَّ؟ مَن أنا، بحياتي العاصية التافهة، حتَّى يرى خالقُ الكون أنَّ من المناسب أن يتواصل معي؟ فعلى الأقلّ أفوِّضُ مهمَّة

الاستماع إلى شخصٍ آخر، ولن أحتاج إلى تحمُّل أوقات الصمت الرافضة.

ولإيضاح الأمر أقولُ إنَّ من الضروريِّ أنْ تكون هناك جرعة صحِّيَّة من الخوف في الاستماع إلى صوت الله، فحين يتحدَّث الخالقُ ترتجفُ الخليقةُ، ويا له من أمرٍ خطِير حين يبدأ الناسُ في الاستماع إلى الله بأنفسِهم بدلًا أنِ يُخبرَهم شخصٌ آخر بما يقولُه الله لهم؛ فنحن نعلم ميلَنا إلى خداع النفس وسهولةَ تخيُّل أن ننسب إلى الله ما نراه آمالًا ومَخاوفَ وأحلامًاه. لكنْ يجب ألَّا نسمحَ للخوف بأن يسدَّ آذانَنا مانعًا صوت الله، كما يجب أيضًا ألَّا نسمحَ للخوف بأنِ يمنعنا من التهلُّل والفرح والمغامرة التي تملأ حياةً تتميَّز بالاستماع إلى الله. فأن نعيشَ حياةَ الاستماع يعني أن ننفتح إلى الدهشة، إلى أن تُعطِّل رتابة حياتنا، وإلى أنْ نُقادَ إلى مسارات لم نكُن ننوي أن نسلكَها، لكنَّها تصلُ بنا إلى أماكن من الجمال الأخَّاذ الذي كان يمكنُ أن يفوتَنا.

فلاتر (مرشِّحات) الاستماع

في الكتاب المقدَّس، يتواصل الله مع البشر تواصُلًا واسعًا حتَّى إنِّي أومن بأنَّ عبءَ الإثبات يقعُ قطعًا على عاتق مَن ينادون بأنَّ الله توقَّف عن الحديث. ففي العهدَين القديم والجديد يوظِّف الله ترسانةً هائلةً من أدواتِ التواصل: الكلمات المنطوق بها من السماء، والكلمات المكتوبة على ألواح، والكلمات الوعظيَّة والنبويَّة، والصلوات المستجابة، والظهورات المرئيَّة، والمجامع الكنسيَّة، والأفكار، والأحلام والرؤى، والرموز، وكلمات من آخرين، وعلامات في الخليقة، وملائكة، فضلًا عن الموسيقا والأغاني، والمواهب الروحيَّة، وكسْر الخبز (الإفخارستيَّا)، والغمْر في ماء نهر، والفطرة السليمة، والتبكيت على خطيَّة، والانطباعات في الضمير، بل حتَّى في صورة حمار ينطق. ولا يقدِّم الكتابُ المقدَّس تناوُلًا نظاميًّا للكيفيَّة التي يتحدَّثُ الله بها، وكيفيَّة تمييز صوته؛ إذ يَفترِضُ أنَّ الله يتحدَّث بطرق عديدة وغامضة وغير متوقَّعة، فالله يتحدَّث من الخارج ويتحدَّث أيضًا من الداخل،

ويطرحُ الله الأسئلة ويعطي إجاباتٍ، ويتحدَّث الله في الضَّوضاء وفي الصمت أيضًا، فالكون يعجُّ بصَوت الله.

وأنا مستعدٌّ أن أقدِّم رأيًا متحرِّرًا بشأن صوت الله وتواصُله مع خليقته، فالله يريد أن يُعرَف ويتحدَّث بحرِّيَّة بطرقٍ مختلفة متعدِّدة، وأعتقدُ أنَّ كلَّ وسائل سماع صوتٍ الله هذه عادلة، وهذا الكتاب بأكمله هو عن الاستماع إلى الله؛ لأنَّ صوتَ الله يملأ الكون. وحين نستمعُ إلى أيَّة أداة، تكون هناك احتماليَّة أن نستمع إلى الله، وقد يجعلُ منِّي هذا الرأي أكثرَ الأشخاص كاريزماتيَّة عرفتْها الكنيسة المشيخيَّة. لكن إذا أردنا الاعترافَ بالله بوصفه الإله صاحب السيادة الحقيقيَّة، فيجب حينها أن تكونَ وسائل تواصله غير مقيَّدة، ولا يمكن أن نقلَّ هذه الوسائل بكلِّ تأكيدٍ عمَّا يشهدُ الكتابُ المقدَّس عنه.

إنَّ حلَّ تخوُّفنا وحلَّ الماضي المتقلِّب لمستمعين مخدوعين ليس في محاولة تكميم الله؛ فحين ضُربَ

روَّاد البايسبولٍ على رؤوسِهم في بدايات انتشار اللعبة، وضعوا خوذًا على رؤوسهم واستمرُّوا في اللعب، فالحلُّ هو في وجود طرق وقاية لتفسير صوت الله، لذا علينا ألَّا نبالغَ بالحدِّ من مقدرة الله ووسائله في التحدُّث إلينا، بل يجب أن نحدَّ من تفسيراتنا لتواصله وما نفعله بهذه التفسيرات. ففي استقبالنا لتواصل الله لسنا ‘‘مُفلتِرين’’، لكنَّنا نفلتِرُ بدقَّة استجاباتِنا من نَحوه.

تؤكِّد الحكمةُ العامَّة لآبائنا على ثلاثة فلاتِرَ لاختبار أصالة ما سمعناه: التناغم مع الكتاب المقدَّس، وتأكيد الجماعة، والتوقُّف للتأمُّل والتفكير.

أوَّلًا، يجب أن يبدو ما نسمعُه شبيهًا بالله إله الكتاب المقدَّس، فإذا لم يكُن متَّسقًا مع الصوت الذي نلقاه في الكتاب المقدَّس، نعلمُ حينها أنَّه ليس أصيلًا، بل بتحديدٍ أكثر، ينبغي لنا الاستماع عبْر فلتر المسيح، متذكِّرين أنَّ يسوع قال إنَّ الكتابَ المقدَّس يتكلَّمُ عن شخصِه ويشير إليه. فكلمةُ الله المكتوبة تتجمَّع وتتلخَّصُ في شخص يسوعَ المسيح، الذي هو كلمة الله الحيَّة

والمتجسِّدة، ففيه سمعنا الصوت الحقيقيَّ، وكلّ التواصل الذي نستقبله ينبغي أن يتناغم مع صوته، وأيُّ صوتٍ يدعو إلى تعظيم الذات والمجد والغنى الشخصيَّين والسُّلطة فوق الآخرين؛ ويحوِّلُنا بعيدًا عن إخلاء النفس الذي حدث في الصليب- هو صوتٌ يأتي من إبليسَ، وليس من أبينا السماويِّ. وأيُّ صوتٍ دون خصائص ثمر الروح- المحبَّة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف والصلاح والإيمان (أو الأمانة) والتعفُّف (أي ضبط النفس)- لا يمكن أن يكون صوتَ الربِّ.

ثانيًا، لا نستمع بمفردنا، فعلينا غمْرُ أنفسنا في جَماعةِ استماعٍ، وعلينا أن نُفلترَ ما نسمعه بواسطة رفقائنا المستمِعين؛ فالاستماع هو ممارسة مُشتركة، ويحقُّ لنا الشكُّ حين يسمعُ الناسُ توجيه الله لهم في إطار من العُزلة، فمَن يسمعون من الله على جزيرةٍ ليس لهم أيُّ مكان يذهبون إليه سوى الأنا في ذواتِهم، فالله يعطي كلماتٍ لأفراد ليس فقط من أجلِهم، بل أيضًا من أجل نفع جماعاتهم، ولأجل تقوية الإيمان وتأكيد الدعوات.

ونحتاج لأنْ نسْمعَ من آخرين ليعكسوا إلينا ما سمعوه، ليؤكِّدوا الكلمات التي تلقَّيناها.

ثالثًا، نحتاج إلى التأمُّل والتفكُّر في ما نسمعُه؛ فكثيرًا ما يحملُ صوتُ الله وزنًا هائلًا حتَّى نقرِّر التصرُّف فورًا بناءً عليه، فمن الأرجح أنَّ الأمرَ الصارخَ الصادرَ من الضابطِ المسؤول سيَجعلُ الجنودَ يقفزون لتنفيذه، لكنَّ المقصودَ من كلمة الله عادةً هو أن تكونَ بدايةً لمحادثة جديدة، وليس نهايةً لها؛ فقد تكون غير متوقَّعة وعلى عكس المألوف، لكنَّها غالبًا لا يُقصد منها أن تُبطِلَ الفطرة السليمة والمنطق اليَقِظ، وأضيفُ إلى ذلك أنَّ هناك للأسف مَيلًا لدى الله لأنْ يتحدَّث بطُرق لا تجلبُ الوُضوحَ الكاملَ- طُرُق يقدِّمُ فيها خطوة واحدةً فقط بدلَ رَسْم أفقٍ واضح للمستقبَل، وتتطلَّبُ كلمتُه أن نضعَها في الحسبان ونتأمَّلَها تأمُّلًا يَقِظًا، لذا يجب أن نستَحضِرَ كلَّ حَواسِّنا ومَلَكاتِنا إلى عَمَلِيَّةِ التأمُّل: المنطق والمشاعر والحدس والتأثير في الآخرين والقرارات المستقبليَّة التي يتطلَّبُها مثل هذا الردِّ،

والصبر هنا هو حليفَنا إذ يحمينا من التصرُّف الطائش؛ لأنَّ التعامُل الحَذِرَ مع الكلمة الشخصيَّة من الله قد يتطلَّبُ منَّا الانتظار.

الصوتُ الذي سُمع في مطعم كارلز جونيور (Carl's Jr.)

سمعتْ كاثي (Kathi) دَعوَتها إلى أيرلندا بينما كانت تسترقُ السَّمعَ في أحَدِ مطاعم كارلز جونيور. فقد كانت هناك مرسَلة إلى أيرلندا تجلسُ إلى مائدةٍ مُجاورة، وكانَتْ حينَها في إجازة وكان حديثُها مع صديقةٍ لها يدورُ حول خدمتها. فُتِنَتْ كاثي بهذا الأمر، وعلى مدار بضعة الأيَّام التالية لم تَقْدِر أن تدَعَ الأمرَ يمضي، ولا تزال حتَّى الآن غير قادرة على تَرْك الأمر، فتتبَّعَتْ تلك المُرسَلة وقابَلَتْها مدَّة ساعتَين، وفي تلك المحادثة، تقول: "أعطاني الله محبَّةً تُجاهَ شعب أيرلندا، ولم تتوقَّف هذه المحبَّة"، وكانت الدعوة تتنامى داخلَها وعلمَتْ أنَّ عليها جَمْع آخرين ليُساعِدوها على الاستماع.

وحيثُ انتمَتْ كاثي إلى طائفة الكويكرز، استجمعتْ

ما يسمِّيه تقليدُها ‟لجنة وُضوح”، حيث تجتمعُ مجموعةٌ من الأصدقاء الموثوق بهم حول الشخص الذي بصدد اتِّخاذ القرار، لكنَّهم ليسوا هناك بغَرضِ تقديم النصيحة، فهُم يطرَحون الأسئلة، ويستَمِعون ويجلسون في صمتٍ، ويا لذلك من أمرٍ ممتع! طرحَ عليها أصدقاؤها المقرَّبون أسئلةً بشأن عمليَّة الوُصول إلى هذا الشُّعور بالدَّعوة ودوافعها، وكذلك مقاطع الكتاب المقدَّس التي دفعتْها إلى قرارها، وكيف كان الله يتحدَّث إليها. وفي المقام الأوَّل طرحوا أسئلةً بشأن التوقيت، إذ كان والدُها قد مات قبل ذلك بوقتٍ قليل، وكانت جدَّتُها مريضة، وكان متبقِّيًا لها فصلٌ دراسيٌّ واحد لتنتهي دراسة الماجستير في العمل الاجتماعيِّ، وكانت ‟كاثي” تريد بشدَّة الذهاب إلى أيرلندا فورًا، لكنَّها شعرت بأنَّها مدفوعة إلى الانتظار لعام آخر، الأمر الذي بدا لها حينَها وقتًا طويلًا جدًّا، لكنَّها أقرَّت لاحقًا أنَّه برغم أنَّ قلبَها كان ملتهبًا من أجل أيرلندا، فلم يكُن لديها الوضوح الكامل، وأخبرتْني قائلة: ‟ليس

الروحُ القدس مشوَّشًا، لذا فإذا نقص الوضوحُ نحتاج إلى الانتظار".

آذان الخليقة الجديدة

أنا على اقتناع أنَّ علاقة الاستماع التحادُثيَّة مع الله يُفترَض أنْ تكونَ أكثر الأمور طبعيَّةً في العالم؛ ففي الأصحاحَين الأوَّلَين في سِفر التكوين، في قِصَّتَي الخليقة، أوَّل ما يفعلُه البشرُ هو سَماع أوامر الله، وبعدَ ذلك بِفصلٍ تُقدَّم إلينا الصورةُ المُبهِجة لله الشبيهة بالبشر عندما يتجوَّل في وقت الظهيرة، ساعيًا إلى محادثةٍ مع مَن خلقهما. وللأسف يَجدُهما مختبئَين عنه، شاعرَين بالذَّنب إذِ استمَعا إلى الأصوات الخاطئة: الصَّوت المُغري للحيَّة ولذَّة كبريائهما، ومن ثمَّ صارَتْ علاقةُ الاستماع السهلة بالله هي الاستثناء بدلَ أن تكونَ هي القاعدة، فالخطيَّةُ الأصليَّةُ المُسلَّمة إلى آبائهم ترتكزُ على عدم القدرة على الاستماع إلى الخالق.

لكنْ لحُسنِ الحظّ، لا يتركُنا الله في صَمَمِنا، فلننظرْ إلى ما عملَه يوجين بيترسون (Eugene Peterson) من

عملٍ تفسيريٍّ رائع للعددِ السادس من المزمور ٤٠، والمُترجَمة عادةً إلى ""أذنيَّ فتحتَ"". لكنَّ بيترسون يشرح قائلًا إنَّ العددَ في العبريَّة يقول حرفيًّا: ""أذنيَّ حَفَرْتَ""، ففي صورة جميلة ومؤلِمة في الوقت ذاته، يجلبُ الله مِجرفةً إلى جُمجُمتنا ويحفر فتحاتِ آذاننا، ويقول التشبيهُ أمرَين: أوَّلًا إنَّ السمعَ هبةٌ من عمل الله، ففي عالم سقط من علاقة الاستماع الطبيعيَّة بالله، نعتمدُ على عمل الروح القدس ليُعيدَ فَتْح آذاننا. وثانيًا، لدينا أدمغةٌ صلبة، فالله لم يجرف آذاننا مثلما تُغرَف المثلَّجاتُ مثلًا، لكنَّه حفرَها. وتقول ترجماتٌ أخرى إنَّ الله ""ثقب أُذُنيَّ""، كما لو أنَّه جاء بمعولٍ إلى رؤوسنا، أو ربَّما بعمودٍ من الديناميت مفجِّرًا آذاننا وفاتحًا إيَّاها، ويعلنُ النبيُّ إشعياء أنَّ الله يوقظ أذنَه، قائلًا: ""يوقظ كلَّ صباح لي أذنًا، لأسمَعَ كالمتعلِّمين"" (إشعياء ٥٠: ٤)، فالله يُطلقُ لنا صيحةَ استيقاظ كلَّ يوم، ساحبًا إيَّانا من آذاننا لنقوم من الفِراش كي نسمع ونحيا بحسب دعوتنا.

نحن مَن اتَّحدنا بالمسيح في قيامته خليقةٌ جديدة،

وتأتي باقةَ الخليقة الجديدة مصحوبة بآذانٍ جديدة، مضبوطة بصورةٍ خاصَّة لتَتَناغَمَ مع صَوتٍ الله ذي النغمة المثاليَّة؛ فالثقوب القديمة لآذاننا قد انغلقت على نفسِها وكانت تردِّد فقط صدى صوت الأنا والاهتمامات الأنانيَّة فينا، وكانت هي المسؤولة عن نوعٍ من الدوار الذي كان قد جعل حياتنا تفقد توازنها. فَمن الناحية العضويَّة الدُّوارُ هو اختِلالٌ وظيفيٌّ في الأذن الداخليَّة يؤدِّي إلى الدَّوخة وما يترتَّبُ عليها من فقدانٍ في الاتِّزان، ومن الناحية الروحيَّة تسبَّبتْ آذانُنا الداخليَّة القديمة التالفة في جعْل حياتنا تتمايل وتتعثَّر مشوَّشةً يتقاذفُها تنافُرٌ مِن الأصوات، لكنَّ الله حفر ثقوبًا جديدةً، مطهِّرًا من كلِّ حطام الخطيَّة ووسخ الذات القديمة، سامحًا بدُخول أصوات حياةٍ جديدة، والآن آذانُنا الجديدة مفتوحةٌ مجدَّدًا نحوَ محادثة سَلِسةٌ مع الله ممكِّنةً إيَّانا لنستجيبَ طائعين دعواته وأوامرَه، ويمكننا الآن أن نسلك في خطِّ البرِّ المستقيم.

وهنا تَعِدُ الحياةُ التي فيها آذانُ الخليقة الجديدة بحَميميَّةٍ

أعظم، والعلاقة بالله التي يُصوِّرُها العهد الجديد، والتي يضمنُها عَمَلُ السيِّد المسيح، هي علاقةٌ حميميَّةٌ لدرجة تتلاشى فيها الخطوطُ ما بين الفاعل والمفعول؛ فجزءٌ أساسيٌّ في لاهوت الرسول بولس هو أنَّنا "في المسيح"، متَّحدين معه بطريقةٍ شخصيَّةٍ عميقةٍ حتَّى إنَّ حياتَنا تمتزجُ بحياة يسوع، ويعملُ هذا التداخُلِ الشخصيُّ على جَذْبِنا إلى أعمق رابطةٍ علائقيَّة بين كل الروابط: العلاقة ما بين الآب والابن والروح القدس، ولا يمكن بَعْدُ للخطوط الفاصلة ما بين الله والبشريَّة أنْ تُرسَم بحدودٍ واضحة؛ لأنَّ حياةَ الله تُعاشُ فينا، وصَوتَ الله يُنطقُ به فينا وبواسطتِنا، فيحدثُ حوارٌ ليس فقط بيننا وبين الله، بل حديثُ الله نفسه- حديثُ الثالوث يحدثُ داخلَنا.

تحدثُ الآن محادثةٌ بين أقانيم الثالوث بواسطتِنا٦، وبكلمات أخرى، ليس الاستماع أوَّلًا ممارستَنا أو عملنا، لكنَّه أمرٌ يحدثُ فينا، حتَّى وإنْ لم نكُن نَعيه، ويمكننا أن نثقَ بأنَّنا سنسمعُ الآب لأنَّ روحَ ابنه يسكنُ

فينا ويستمع نيابةَ عنّا، ويمكننا أن نثق بأنَّ الآب سيسمعُنا لأنَّ روحَه يصرخ داخلَنا: ‘‘ثمَّ بما أنَّكم أبناء، أرسَلَ الله روحَ ابنِه إلى قلوبِكم صارخًا: «يا أبا الآب»’’ (غلاطِيَّة ٤: ٦). انظر أيضًا إلى النصِّ التالي:

‘‘وكذلك الروحُ أيضًا يعين ضعفاتنا، لأنَّنا لسنا نعلم ما نصلِّي لأجله كما ينبغي. ولكنَّ الروحَ نفسَه يشفع فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَق بها. ولكنَّ الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح، لأنَّه بحسب مشيئة اللهِ يشفعُ في القدِّيسين’’ (رومية ٨: ٢٦-٢٧).

كثيرًا ما يُستَشهَدُ بهذه الأعداد حين يكون شخصٌ ما في أزمة ويجدُ نفسَه غير قادر على صياغة صَلاته بوضوح؛ فالروح يقدِّم أنَّاتٍ متشفِّعةً يفهمُها الآب، لكنَّ هناك أيضًا أمرًا لافتًا للنَّظر هنا: أنَّه حين ندخل في الصلاة، بغضِّ النظر عن الأوضاع، نخطو إلى محادثةٍ تحدثُ منذ تأسيس العالم، لكنَّها الآن حادثةٌ ليس فقط بعيدًا عنَّا بل أيضًا بواسطتنا، فالروح يئنُّ فينا والابنُ

يتشفَّعُ فينا والآب يستمع إلينا، فها قد جُذِبنا إلى قلب المحادثة الثالوثيَّة، وأصبحَ وجودُنا محادثةً متجسِّدة متحرِّكة.

أغلِقْ أُذُنَيك واستمِعْ

نحن مدعوُّون لنَتَشارَكَ مع الله في المحافظة على آذان خليقتنا الجديدة مفتوحةً، فحين نعطي سلطانًا في حياتنا لأصوات أخرى تشنُّ حربًا على الله؛ أو إذا جعلنا من صَوتٍ آخر سوى صوت الله بارزًا متفوِّقًا، فإنَّ آذانَنا تتغلَقُ قليلًا. مثلًا، وَضَعَ يسوعُ الله والمالَ على طرفَيْ نَقيضٍ قائلًا: ''لا يقدر أحدٌ أنْ يخدمَ سيِّدَين، لأنَّه إمَّا أنْ يبغضَ الواحدَ ويحبَّ الآخر، أو يلازم الواحدَ ويحتقر الآخر. لا تقدرون أنْ تخدموا الله والمالَ'' (متَّى ٦:). ويعني هذا أنَّك لا تقدر أن تستمع في الوقت نفسه إلى صَوت سيِّدَين؛ فإعلانُ يسوع عن الملكوت وصرختُه الداعية إلى ''التوبة والإيمان''، كانت دعوةً إلى التحوُّل عن الأصوات البديلة التي تتبعُها لكي تسمعَ الصوتَ الحقيقيَّ الوحيد- صوتَ الملك، ويمكننا إعادة

صياغة ‘‘توبوا وآمنوا’’ في صورة ‘‘أغلِق أذنَيك واستَمِع’’، فللطَّاعة توقُّفٌ وبداية، إذ نحوِّل ظهورَنا نحوَ الأصوات القديمة ونوجِّهُ انتباهَنا إلى صوت يسوع.

إنَّ رغبتَنا هي أن يتصاعدَ صوتُ الله في حياتنا بالتدريج، وأن تتلاشى الأصوات المنافِسة، ويعني هذا أنَّ علينا أن نُسكِتَ بلا هوادةٍ دعوات الأسياد الآخرين، معترفين لآخرين بعصياننا السمعيِّ، إذ يبدو أنَّ فَتْحَ أفواهنا في الاعتراف يُنتج انفتاحًا في آذاننا أيضًا، والأهمُّ من ذلك أنَّ علينا أن ندَعَ الله يعرِّفُ نفسَه، فيجب أن نحارب إغراء مجرَّد إضافة بضع أغاني من الله إلى قائمة التشغيل التي نسمعُها، مُطلقين عليها اسمَ ‘‘أعظم أغاني إلهنا’’، يجب أن ننحِيَ جانبًا مفاهيمنا المريحة عن الله- ذاك الإله الذي يتَّفقُ معنا دائمًا، الذي يفضِّلُ أمَّتَنا أو أهدافَنا السياسيَّة دائمًا، الذي يُطعمنا الحلوى ولا يُطعمُنا الخُضَرَ بتاتًا، وقد صاغ ذلك لويس إيـ□ـلي (Louis Evely) كالتالي: ‘‘لغة [الله] ليست لغتنا، وليست

ما نتوقّع، فقط حين نحبُّه حبًّا كافيًا حتّى نفضِّل طرقَه على طرقِنا ولغته على لغتنا وإرادته على إرادتنا، حينها فقط سنكتشفُه''٧، فحتّى نسمعَه ونعرفَه علينا السماح له بأنْ يتحدَّث بشروطه هو.

أغنية الله

ماذا يُشبه صَوتُ الله؟ المرَّة الأولى التي نلتقي فيها صَوتَ الله بوصفه الخالق، إذ يُفتحُ سفرُ التكوين على مشهدٍ من الصَّمت العميقِ العتيق، وحين يكسرُ الصمتَ صَوتُ الله بكلمات ''ليكُن نورٌ''، كيف تسمعُه؟ هل صوتُه كصوت قصفٍ رعديٍّ، دويٍّ صوتيٍّ لحديثٍ يبدِّدُ البحارَ، وترتجُّ به الأرضُ لتستقرَّ في مكانِها؟ هل تسمعُه كصوت فنَّانٍ يرسمُ كلماتٍ على لوحةٍ صامتة رسمًا متأنِّيًا هادئًا؟ ربَّما تسمعُ همسةً، وكزةً خفيفةً من خالقٍ لا يشعر بضرورة الصياح.

أتساءل، ويتساءلُ معي أناسٌ أبرع منِّي كثيرًا مثل سي. أس. لِويس (C. S. Lewis)، ما إذا كان الخالق قد غنَّى فجاءَ بالخليقة إلى الوجود.٨ إنَّ أسلوبَ قصَّة

الخلق أسلوبٌ شعريٌّ، والأغنية هي شِعرٌ وُضِعتْ له موسيقا، فكلُّ العناصر الكلاميَّة موجودة- التشبيهات والعبارات القصيرة والجِناس والقرارات مثل ''وقال الله'' و''رأى الله أنَّه حسن''، فها النغماتُ المتنافرة الغريبة من الفوضى الكونيَّة تُجمعُ معًا لتَعزفَ سيمفونيَّةَ الخَلْق، حيث يغنِّي الله جالبًا كلَّ العناصر إلى راحةٍ واستقرار.

نجدُ الله يغنِّي في مَوضع آخرَ في الكتاب المقدَّس، ففي السِّفر النبويِّ صفنيا، يَنوحُ الله أوَّلًا على عِصيان أورُشَليم: ''ويلٌ للمتمرِّدة المنجَّسة، المدينة الجائرة! لم تسمَعِ الصَّوتَ. ولم تقبَلِ التَّأديبَ. لم تتَّكل على الربِّ. لم تتقرَّبْ إلى إلهِها'' (صفنيا ٣: ١-٢)، ويقسمُ الله أنْ يَدين كبرياء المدينة التي لن تستمع، وسيأتي صَوتُه في شَغفٍ ناريٍّ ليحرقَ زَيفها القاسيَ، لكنْ بَعْدَ أن تأتي الدينونة..يأتي ترنُّمٌ: ''الربُّ إلهُكِ في وسطك جبَّار. يخلِّصُ. يبتهج بكِ فرَحًا. يسكتُ في محبَّته. يبتهجُ بكِ بترنُّمٍ'' (صفنيا ٣: ١٧).

يا لها من صورة جميلة شديدة الجمال، فالمعركة انتهت بالفوز، واستُعيدت أورشليم، ويرنِّمُ الربُّ بقوَّةٍ في مدينته، وليست هذه أغنية حبٍّ مفعمة بالمشاعر ولا نشيدًا رقيقًا في حفلٍ ساهرٍ، بل هي أغنية ''منتَصِر'' يخطفُ شعبَه ويترنَّم بهم بصوتٍ مرتفعٍ، أغنيةَ عِشْقٍ وفداءٍ.

هل يترنَّم إلهُك؟ حين يترنَّم الله تتراجع الفوضى ويُخطفُ شعبُه إلى محبَّتِه، فهل تسمع صوتَه يترنَّمُ بك، أنت محبوبَه؟ وحين تسمعُه، تتلاشى الأغاني الأخرى متواريةً، ومع ذلك، فإنَّنا كثيرًا ما نسمعُ صَوتَه بوصفه حاكمَ الكون الدكتاتوريَّ، الوالدَ الرافضَ، أو الصوت الواخزَ القائم على كتفِك قائلًا: ''لا!''، لذا لا عجبَ من أنَّنا لا نثق به، فرغبتُنا في الاستماع تتشكَّلُ بما لدينا من ثقةٍ بالصوت الذي نسمعُه. فماذا لو استطعنا أن نسمعَ الله يترنَّم بنا وبكلّ الخليقة، داعيًا إيَّانا خاصَّته؟ أشار علينا هنري نووين (Henri Nouwen) أن ''تستمع إلى الصوت الذي يدعوك المحبوب؛ لأنَّك إذا لم تفعل ذلك

ستجري هنا وهناك متوسِّلًا من أجل التأكيد، من أجل المديح، ومن أجل النجاح"٩، فحين نكون قد سمعنا هذه الدعوة التي تنادينا "بالمحبوب"، سنكون أكثر استعدادًا لنُطيعَ دعواته لاتِّخاذ القرارت وللعمل أيضًا.

إنَّ سياقَ استماعنا إلى دعوة الله هو علاقة متنامية مستمرَّة نابضة بالحياة بالآب السماويِّ، فلسنا نسعى إلى إرشادات صمَّاء أو مبادئَ جافَّةٍ خالدة، أو إجاباتٍ للحياة سابقة التجهيز نستخرجُها لنستخدمها عند الاحتياج، فكلُّ تلك الأمور يمكن السيِّطرة عليها بسهولة ويمكن أيضًا التلاعُب بها لتسويغ كلِّ أنواع السلوكيَّات، فالأخلاقيَّات المُجرَّدة تنهارُ أمامَ صوتِ الربِّ الحيِّ الذي يخاطبُنا شخصيًّا والذي يدعونا إلى الأمانة في زماننا ومكاننا، فلا يُعلِمنا فقط، بل يتودَّدُ إلينا أيضًا، ويقول دالاس ويلارد: "يجب أن يكون تشارِكُنا مع الله هو سياق تواصلاتنا مع الله"١٠، وبذلك حين نواجه موسمًا من الألم أو قرارًا مهمًّا لا نحاول استدعاء إرشادٍ من الهواء، بل نستخرجُ من ماضٍ من السير مع

الربِّ، من الألفة مع يسوع، ومِن التأمُّل في الكتاب المقدَّس، ناظرين إلى ذكريات كلماته السابقة إلينا، والطرق التي أظهر لنا فيها الرحمةَ، الأمر الذي يساعدنا كي نفسِّرَ أحوالَنا الحالية، ونسمعَ أيضًا كلمة جديدة ينطقُ بها إلينا، ففي علاقة استماع مستمرَّة بالربِّ قد نجدُ أنَّ تشوُّشَنا في المواقف الجديدة يتناقص وخوفَنا ينحسر انحسارًا أسرع ومثابرتَنا تزيد أكثر ممَّا كنَّا نتوقَّع، فما كان يبدو في السابق "حالة طارئة" قد يبدو الآنَ أقلَّ استعجالًا وتهديدًا.

الاستماع بقدمَيك

"في البدء كان الكلمةُ، والكلمةُ كان عند الله، وكان الكلمةُ الله..والكلمةُ صار جسدًا وحلَّ بيننا، ورأينا مجدَه، مجدًا كما لوحيدٍ من الآب، مملوءًا نعمةً وحقًّا" (يوحنَّا ١: ١، ١٤)، يقدِّم إلينا يوحنَّا كاتبُ البشارة صورة كلمة، والكلمة هنا أكثر من مجرَّد نسمةٍ تمرُّ بالأسنان واللَّثَةِ وتنساب من الفم، فهو يقدِّم إلينا كلمة يعملُ عملًا وينجزُ أمرًا، فأعمال الله هي حديثٌ يرتبط

بأعمال، وتذكَرُنا بإعلان الله في النبيِّ إشعياء:

"لأنَّ أفكاري ليست أفكارَكم، ولا طرقكم طرقي، يقول الربُّ. لأنَّه كما عَلَتِ السماوات عن الأرض، هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم. لأنَّه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعًا للزارع وخبزًا للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي. لا ترجع إليَّ فارغة، بل تعمل ما سُررتُ به وتنجح في ما أرسلتُها له" (إشعياء ٥٥: ٨-١١).

إنَّ طبيعةَ سموِّ الله، وما يفصلُ ما بين كلماته وكلمات البشر، تتمثَّلُ ليس فقط في حقيقة أنَّ الله أذكى منَّا، بل أنَّ لحديثه فاعليَّة، فلكلمته فحوى وقوَّة أيضًا، إذ لها القدرة على إحداث ما يرغبُ فيه، فالله لا يفعلُ فقط ما يقولُه، بل ما يقولُه له قوَّة الفعل.

لكلمةِ الله قوَّة، بل شخصيَّة، وهي حاضرةٌ منذ الأزل وفي ملء الزمان استُعلِنَتْ في الابن، والآن نعرف أنَّ

"كلمة الله" أوَّلًا وقبل كلِ شيء هي شخصٌ؛ ففي شخص يسوع، تتجسَّدُ الحكمةُ التي تحملُ الكونَ معًا، ويتزاوج غيرُ المنظور بالمنظور، ويصيرُ حديثُ الله جسدًا، فخِطابُ الله إلى العالم سارَ سيْرًا وعلَّم وأكل ونام والآن يشفعُ في حجرة العرش المقدَّس.

إنَّ تضمينَ الاستماع هو الآتي: إذا كان تواصل الله مع ذاته يأتي في صورة شخص، إذًا يجبُ أن تكونَ طبيعةُ استماعنا على الدرجة نفسها من التجسُّد، فينبغي لاستماعنا أن يكون متجسِّدًا مثل "الكلمة" المنطوقة إلينا، بمعنى أن تصبح كلُّ حياتنا آذانًا، مستقبلاتٍ لكلمة الله، فحين يقولُ يسوع: "اتبعني"، فإنَّنا نستمع ليس فقط بآذاننا وأذهاننا، بل نستمع مثل عدَّاءٍ عند حاجز الانطلاق قبل بدء السباق، في انتظار استماعه إلى صوت طلقةِ البداية، وعضلاتُه مشدودة، بينما هو مستعدٌّ للانطلاق، وإذا كنتَ قد سمعتَ تعبير "التصويت أو التعبير عن رأيك باستخدام قدميك"، أي التعبير عن الرأي بالفعل المتمثِّل مثلًا في استخدام

قدمَيك لمغادرة مكانٍ لا تعجبك شروطَه، ستتفهَّمُ فكرةَ أن تستمعَ أيضًا باستخدام قدمَيك.

نغمةُ الصوت

يقولُ يسوعُ إنَّ إحدى علامات تابعيه ستكون أنَّهم سيميِّزون صوتَه حين يدعو، فالراعي يعرفُ اسمَ كلِّ خروف من خرافه وهي تعرفُ صوتَه (يوحنَّا ١٠: ٤)، فيهربون من أصوات الغرباء إلى الصوت الذي يعرفونه، مثل طفلٍ يهرولُ إلى أبيه حين يصلُ إلى البيت.

قبل سنواتٍ ابتهجتُ إذ قرأتُ في كتاب دالاس ويلارد بعنوان ‘‘سماع الله’’ (Hearing God) أنَّه يمكنُ تمييز صوتَ الله لما له من عناصر يمكن توقُّعُها، مثلَ أيِّ صوتٍ آخر، فله نغمةٌ ووزنٌ وحجمٌ ومحتوى. ودون شكّ، كنتُ قد تعلَّمتُ لسنواتٍ أنَّ للهِ شخصيَّةً موثوقًا بها لا تتغيَّر، لكنْ لم يخطُر ببالي قَطُّ أنَّ تلك الشخصيَّة يصاحبُها صوتٌ معيَّن، فصوتُ الله لا يرتعشُ ولا يتلعثم ولا يتغيَّر، فهو في مثل اتِّساقِ شخصيَّته، ويقتبسُ

ويلارد كلامَ ستانلي جونز (Stanley Jones)، الذي يفرِّقُ ما بين صوت اللاوعي وصوت الله الذي يتحدَّثُ داخلَنا إذ يقول: ’’ربَّما يكون الفرقُ العامُّ هو هذا: صوتُ اللاوعي يتجادلُ معك ويحاولُ إقناعَك، أمَّا الصوت الداخليُّ لله لا يتجادلُ ولا يحاول إقناعَك، بل يتحدَّثُ فقط وهو ذاتيُّ الوثوق، وله شعورُ صوتِ الله داخله’’. ١١

قبل بضع سنوات كنتُ أقودُ سيَّارتي عائدًا إلى بيتي بعد تمضية عطلة عيد الميلاد المجيد مع أسرتي، وكنتُ بمفردي مع أفكاري ما بعد الإجازة، وكانت أفكارًا تتسابقُ أسرع كثيرًا من السرعة التي كنتُ أقودُ بها سيَّارتي، وكنتُ قبلها تقريبًا عاطلًا لمدَّة عام ونصف عام، وعبارةُ ’’تقريبًا عاطلًا’’ هي بديلٌ لقولي ’’كنتُ أحاولُ العَيشَ من الكتابة’’، وكنتُ قد سُرِّحتُ قبل ذلك بصَيفَين من عملي قسًّا في أحد دور الرعاية، الأمر الذي أطلق بريقَ الإعلانِ أنَّ في وُسعي أن ’’أعيشَ الحلم’’ لأكون كاتبًا! لم يكُن الأمر يسيرُ على ما يُرام،

فلم يكُن هذا هو أسلوبَ الحياة الفاخر المرموق الذي كنتُ أتوقَّعُه، إذ كانت هناك مشاريع صغيرة لبيع العصائر تدرُّ ربحًا أكثر من الربح الذي كنتُ أحقِّقُه أنا.

كنتُ قد أبقيتُ القلقَ تحت السيطَرة جيِّدًا، لكنْ في تلك الليلة، لسببٍ ما، كنتُ متألِّمًا جدًّا، وكانت الصورة التي قدَّمها هنري نوين للعالم الداخليِّ بوصفه مثل ‹مجموعة قِردة يقفزون هنا وهناك على شجر موز››١٢ صورةً حقيقيَّة في رحلة القيادة تلك على نحوٍ مرعِب، وكانت مجموعةُ القِردة لديَّ ليس فقط تقفز هنا وهناك وتأكل الموز، بل كانت تأتي بتعبيراتٍ مازحة مُضايقة، وكانت الأسئلةُ تتصارعُ مع حلولٍ محتمَلة، لكنْ كان يبدو أنَّ اليأس هو المنتصرُ الوحيد، وبدأتُ أشعرُ...

‹‹لا تقلقْ بشأن المال››.

وقعَ عالمي الداخليُّ في صمتٍ، وهربتِ الأصوات الأخرى من ‹‹ذلك الصوت›› مثل أمواج البحر الأحمر، ولم يصرخ هذا الصوتُ أو يوبِّخ أو يكرِّر نفسَه، لكنَّه كان يحملُ ثقةً ووزنًا لا تخطِئُه أذنٌ، علاوة

على ذلك، كان وَقْعُ الكلمات مألوفًا جدًّا، ففي العظة على الجبل أشار يسوعُ على تلاميذه قائلًا: ''لا تهتمُّوا لحياتِكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون'' (متَّى ٦: ٢٥)، ولم أكُن أفكِّرُ في ذلك النصِّ مؤخَّرًا، لكنِّي عرفتُ أنَّه يُصدِّق على ''الصوت'' الذي سمعتُه، فلم تكُن كلمةً كنتُ أتوقَّعُها، لكنْ بدا الأمرُ كما لو أنَّ نَفسي كانت تنتظرها لترجع إلى مكانها.

حتَّى بينما أكتبُ هذا لا أزال أشعر بالانطباع الذي تركتْه فيَّ هذه الجملة القصيرة البسيطة، فرغم أنَّها لم تُجبْ عن أسئلتي أو تغيِّر من أحوالي، فإنِّي لم أجِدْ وظيفةً قبل عامٍ بعد ذلك. ورُغمَ ذلك، فقد تلاشى القلَقُ بطريقةٍ ما واستُبدِل به سلامٌ دائمٌ، والسلام هو من ثمر الروح التي يغرسُها صوتُ الله؛ فَلِصَوته سلطانٌ يخلقُ واقعًا في الشخص الذي يستمعُ ويؤمن بما يُقال.

إنَّ اقتناعي هو أنَّنا نعرف صوتَ الله بالتأثير الذي يتركُه فينا، وليس فقط بعمق الكلمات نفسها؛ إذ يبدو أنَّ كلمات الله تصل إلى مكان في قلوبنا وأذهاننا لا يستطيعُ

أيُّ صَوتٍ آخر الوصولَ إليها، بل تصل إلى أماكن تتخطَّى حاجزَ اللُّغة، فقد اختبرتُ حُضورَ الله كثيرًا- مرَّات بكلمات ومرَّات دونها- كانت فيه قوَّة الحضور أكثر تأثيرًا وبروزًا من أيَّة كلماتٍ تصاحبُه، فقد تتلاشى الكلماتُ، أمَّا التأثير فيبقى في ذاكرة الجسد، إذ يرتجفُ الجسدُ لكنَّها ليست رجفةً خائفة، بل هي مثل القُشَعْريرة التي يختبِرُها العريسُ حين يرى عروسَه تسير في الممرِّ آتيةً نحوَه، حيث إنَّ للمناسبةِ ثقلًا وجمالًا وأملًا حتَّى إنَّ الجسد يجيبُ جسمانيًّا وعاطفيًّا، وربَّما لا تحدث تلك اللحظات كثيرًا، لكنَّها تغيِّرُنا عند حدوثِها.

قد نسردُ إلى شخص ما لاحقًا ما سمعناه، فقط لتخفقَ كلماتُنا في إحداث أيِّ تأثير، وأفترضُ أنَّه إذا كان الروحُ القدس يلجأ إلى الأنَّات، ففرصتُنا أن نجد الكلمات المناسبة فرصةٌ ضئيلةٌ، لذا قد نختار الاحتراسَ بشأن قصصِ سماعنا من الله. وريتشارد فوستر (Richard Foster) في كتابه عن الصلاة التأمُّليَّة "مَقدِس النفس" (Sanctuary of the Soul) يشجِّعُنا كي نتيقَّظ بشأن

خبراتنا لحضور الله، فعجزنا عن الإلمام بالخبرة في كلماتٍ قد يغرسُ فينا الشكَّ حتَّى في حدوث أيِّ شيء، أو في أنَّ الأمر لم يكُن بالأهمِّيَّة نفسها التي بدت حينها، لكنَّ التأثير في الجسد والنفس يظلُّ حاضرًا.

سماع صوتِ الله

ما دامت عادة الله هي التواصلَ مع شعبه؛ وما دامَتْ لصَوتِه خصائصُ مميَّزةٌ، فلماذا لا نزال نصارع لنسمعَه؟ في بعض الحالات يتعلَّقُ الأمر ببساطةٍ بنَقص التدريب، ويعتقدُ دالاس ويلارد أنَّ الكثيرين يسمعونَ من الله بانتظام، لكنَّهم لا يعرفون ذلك حقًّا، إذ يدخلُ صوتُ الله فيٍ صورة فكرةٍ أو انطباعٍ في وَعيهم، ويستجيبون له لكنَّهم لا ينسبونَ الصوتَ الداخليَّ إلى مَصدره الصحيح، ورغم من أنَّ مثل هذا الأمر لهو أمرٌ يصعبُ تصديقُه، فحين أفكِّرُ في الأصوات التي استمعتُ إليها في أزمنة القرارات الحسَّاسة، أعتقدُ أنِّي أتَّفقُ مع ويلارد؛ فهناك الكثير من المواقف التي صارعتُ فيها وفكَّرتُ في قائمة المزايا والعيوب

وسَعيتُ إلى مشورةٍ، ومع ذلك لم أحصُل على أيِّ وضوح حتَّى أصل إلى لحظة أعرفُ فيها فجأةً ما يجب عليَّ فعلُه، وكثيرًا ما يلمعُ الإلهامُ بينما أنا في حالة ذهنيَّة منفصلة ولا أفكِّرُ حتَّى في الأمر ذي الصلة، وبدا الأمر كما لو أنَّ الفكرة لم تنبعْ من ذهني، وكأنَّ القرار خطر ببالي فجأةً. هناك أسباب أخرى لعدم قدرتنا على سماع صوت الله وتحديده، وها هي إحدى المفارقات التي تظهرُ في هذه المناقشة: قد لا نسمعُ من الله لأنَّ حياتنا صاخبةٌ جدًّا، أو قد لا نسمعُ من الله لأنَّ حياتنا هادئةٌ جدًّا.

صاخبة جدًّا يمكنك السماعُ فقط في أهدأ ساعة من الليل، ففي أثناء النهار بينما تتحرَّك وتتكلَّم وتأكل، يكون السمعُ ثابتًا لكنَّه صعب التمييز، لكن حين تضع رأسَك على وسادتك وتدع تنفُّسك يهدأ بينما تبدأ في دخول اللاوعي، قد تسمعُ هذا النبض الإيقاعيَّ- نبضَ قَلبك الذي يضخُّ الدمَ إلى جسمك، همسةً نابضة تبقيك حيًّا حتَّى حين تنامُ.

وحين ينسلّ إلينا صوتُ الله مثل نبضةِ قلبٍ في الظلام، فإنَّه يُشارُ إلى ذلك عادةً في تقليدنا بوصفه ''الصوت المنخفض الخفيف''، والله يتحدَّث بطرق وافرة، وأحيانًا يصيحُ، لكنَّ شهادة مؤمنين لا حصر لهم على مرِّ العصور أكَّدتْ الصوتَ الصغيرَ الهادئ بوصفه واحدةً من أهمِّ الطرق التي يتحدَّث بها الله إلينا، ويُطلِق الكويكرز على هذا الصوت ''المعلِّمَ الداخليَّ''، وقد سمَّاه آخرون الكلمة الداخليَّة أو الصوت الداخليَّ الذي تستقبله الأذن الداخليَّة، وقد أطلق عليه جون كالـ□ن (John Calvin) ''الشهادة الداخليَّة للروح ـدس''١٣، ووصفه دالاس ويلارد بأنَّه الانطباع المباشر على وعي شخص، يُعبَّر عنه عادةً في صورة فكرة، لها قوَّة معيَّنة ووزنٌ، وتحدث في ذهن الشخص.١٤

إنَّ عبارة ''صوت منخفض خفيف'' [في الترجمة العربيَّة ''ڤـ□اندايك''] وهي من ترجمة الملك جيمس (King James) لتعبير ''الصمت المحْض'' (Sheer silence) في قصَّة إيليَّا، وليس هذا التفسير أفضل ترجمة

للعبريَّة، لكنَّه يمثِّلَ جيِّدًا طبيعة تواصل الله معنا؛ فالملِكَ صاحبُ السيادة على الكون، لا يبوِّقُ برسالته إلى رعاياه، فزرُّ قوَّة الصوت لدى الله نادرًا ما يُدار إلى أقصى اليمين، إنَّما صوتُه في آذاننا دقيقٌ رصينٌ، بل من السهل أن نفوِّتَه.

لماذا يتحدَّث الله بهذه الرقَّة في عالم يحتاج كثيرًا إلى صيحة استيقاظ مدوِّية؟ لا بدَّ أن أخلُصَ إلى أنَّ أنماط حديث الله إنَّما تشيرُ إلى الأهمِّيَّة التي يوليها لاستماعنا، فإنْ صاح الله لما كان الاستماعُ مطلوبًا، لكنَّ الهمسةَ تُجبرنا أن نُعيرَ انتباهًا مجتهِدين لنسمَعَ صَوتَه، والرسالةُ المهموسة تفترضُ أنَّ المستمعَ على مقربة من المتحدِّث، والقُرب الذي تحتاجُ إليه الهمسةُ يتطلَّبُ أن نكونَ في علاقة قريبة بالربِّ، مدركين حضورَه وسائرين معه، ومستعدِّين أن نفعل ما يقولُه، وتستلزمُ نغماتُ الله الخافتة أيضًا أنَّ نسكُنَ ونهدأ بما يكفي لنميِّزَه، وقد عبَّر عن ذلك تي. أس. إليوت (T. S. Eliot) تعبيرًا جيِّدًا حين قال: ‘‘أين توجدُ الكلمةُ؟ وأين يرجعُ

صدى الكلمة؟ ليس ههنا، فلا يوجد هنا صمتٌ كافٍ".
١٥

أحدُ الأسئلة التي قد صارعتُ معها هي لماذا يبدو كأنَّ شخصيَّاتِ قصص الكتاب المقدَّس تسمعُ من الله أكثر كثيرًا ممَّا نسمعُ نحن؟ هل يتعلَّق الأمر بوجهة النظر؟ هل كان القدماء ينسبون كلَّ شيء في العالم الطبيعيِّ إلى تأثير السماوات لأنَّ نظرتَهم كانت النظرة ما قبل العِلْميَّة؟ يبدو أنَّ السماوات كانت تتحدَّث بطلاقة حينَها، فكان الرعدُ يعبِّر عن غضب الآلهة، والحصاد الجيِّد يكشفُ رضى الله، وأتوقَّعُ أن تلعبَ وجهةُ النظر والكيفيَّة التي نرى بها العالمَ دورًا، وأتساءل مع ذلك ما إذا كانَ ممكنًا أن نُرجِعَ صمتَ الله النسبيَّ في يومنا إلى مصدر آخر، فربَّما لم يكُن لدى آبائنا الأوائل نفسُ رفاهة التشتُّت، فقد تكون عدمِ قدرتهم على الهرب إلى التلفزيون أو الإنترنت، وقلَّة عدد الاختيارات التي كانت لديهم لوسائل التسلية نسبيًّا، ونقص المؤثِّرات المثيرة، وأعمالهم الزراعيَّة التي كانت تتوقَّف عند

الغروب، وإيقاع حياتهم البطيء وهدوء لياليهم قبل عصر التصنيع- قد يكون كلُّ هذا قد ساعدهم جاذبًا انتباهَهم نحوَ السماوات؛ فالنجومُ أكثر بريقًا حين تنظر إليها دون وجود أنوارٍ ودُخَان.

الحياة الصاخبة المزدحمة المغرقة في الأنشطة هي نقيضُ حياة الاستماع، فالحياة المغرقة في الأنشطة تحاول كثيرًا إثباتَ قيمتها، تاركةً علامةً ومبرِّرةً لوجودها، أمَّا حياةُ الاستماع فتنتظرُ الله في هدوءٍ واتِّضاعٍ ليَضعَ هو علامتَه علينا.

ترك جون كولترين (John Coltrane)، عازفُ موسيقا الجاز على آلة الساكسوفون، علامتَه في عالم موسيقا الجاز بتجويده الموسيقيِّ السريع جدًّا، فلم يكُن أحدٌ قبله قد رأى موسيقيًّا يقدر أن يعزف ويحرِّك أصابعه بمثل سرعته، وسرعان ما بدأ يعزفُ في حفلاتٍ مع مشاهير عصره مغيِّرًا الطريقة التي يفهمُ بها الناسُ هذا النوع من الموسيقا. وللأسف كان الكثير ممَّا ميَّز أسلوب كولترين نتيجةً للموادِّ التي يتعاطاها١٦، ففي ١٩٥٧م،

حين كان جسمُه قد تلف بسبب المخدِّرات والكحولَيَّات؛ وكان مسارُه الوظيفيُّ وحياتُه على وشك الانهيار، ذهب إلى بيت أمِّه وطلبَ الله في سكون غرفتِه، وبحسب الراعي وهاوي الجاز روبرت جيليناس (Robert Gelinas) قال: ‘‘بعد أربعة أيَّام، خرجَ رجلًا متغيِّرًا لأنَّ الله، بحسب ما قال هو، كان قد التقاه بطريقةٍ مِن أغرب ما يمكن، وكان ذلك في صوتٍ، في رنينٍ خفيضٍ، في صدى طويلٍ، ليس مثل أيِّ شيء آخرٍ كان سبِقَ أن سمعَه’’١٧، وكان حضورُ الله قد أتى إلى جون كولترين في صورة صوتٍ.

وقد غيَّر هذا النموذجُ الموسيقيُّ المقدَّسُ ليس فقط حياتَه، بل غيَّر أيضًا الكيفيَّة التي كان يعزف بها، فاستُبدِل بالتجويد الجنونيِّ أسلوبٌ هادئ حنونٌ كان فيه كولترين يستمعُ منتظرًا الصوتَ الإلهيَّ ليأتي ثانيةً، وكان يحاول محاكاته على آلة الساكسوفون، ويشرحُ جيليناس أنَّه ‘‘وصل إلى قناعة أنَّه إن استطاع عزْفَ ذلك الصوت لآخرين، فسيمكنُهم هم أيضًا اختبارُ ما

كان قد اختبرَه هو في أثناء تلك الأيَّام الأربعة في غرفتِه".١٨ وطوالَ المدَّة الباقية من حياة كولترين، سعى إلى الوصول إلى تلك الموسيقا التي كانت قد شَفَتْه، وبينما لم يقدر بتاتًا أن يُعيدَ اكتشافَها، فقد سجَّل أحدَ أفضل ألبومات موسيقا الجاز التي حقَّقت أعلى مبيعات واسمُه "حبٌّ سام" (A Love Supreme) في أثناء الرحلة الموسيقيَّة هذه، والأجزاء الأربعة في "حبٍّ سام" تتبعُ سائحًا في رحلته نحوَ الله:

١. "الاعتراف" (Acknowledgement)- إدراك الله.

٢. "التصميم" (Resolution)- التعهُّد بطلبِ الله.

٣. "السعي" (Pursuance)- الرحلة نحوَ الله.

٤. "مزمور" (Psalm)- الاحتفال باكتشاف الله. ١٩

لقد اكتشف جونٍ كولترين أنَّ الاستماع إلى الله يتطلَّبُ تحرُّكًا بطيئًا وبحثًا متأنِّيًا، ففي سعْينا إلى الله قد نكتشفُ أنَّ حياةً ذات إيقاعٍ محموم- بينما تحظى بكلِّ علامات

النجاح والإنجاز- هي حياةٌ صاخبةَ تعجُّ بصوتنا نحن، ومثل كولترين قد نحتاج إلى الانسحاب إلى سكون غرفِنا وإلى إيقاعات أبطأ كي نستمع استماعًا حقيقيًّا.

هادئةٌ جدًّا. إنَّ التصريح بأنَّ صوت الله لا يمكن سماعُه وسط صخب الحياة الحديثة هو تصريحٌ شائعٌ، لكنِّي وصلتُ أيضًا إلى إدراك أنَّ هناك حياةً هادئة جدًّا يصعبُ معها سماعُ صوت الله؛ وذلك لأنَّ تواصل الله ليس عشوائيًّا، إذ يتَّضحُ لنا أنَّ الروح القِدس ليس مُضيفًا بائسًا لبرنامج حواريٍّ يثرثر بشأن كلِّ شيءٍ في الوجود، على أمل أنَّ بعضَ الأشخاص سيقلِّبون القنوات للوصول إلى التردُّد الصحيح، بل تأتي كلمةُ الله غالبًا إلى نوع محدَّد من الأشخاص الساعين ليعيشوا نوعًا معيَّنًا منَ الحياة. وقد صاغ دالاس ويلارد الأمرَ كالآتي: ''إنَّ اتِّحادَنا بالله...يتكوَّن أساسًا من علاقة تحادُثيَّة بالله بينما كلٌّ منَّا منخرِطٌ انخراطًا متَّسقًا وعميقًا مثل صديقٍ له وعاملٍ معه في شؤون ملكوت السماوات''.٢٠

بقدر ما أستمتعُ بفكرة الجلوس مع الله جلسةً مريحة

لنحتسيَ عصيرًا وندردش بشأن الجوِّ، فإنَّ الصورةَ الأفضل ربَّما هي صورة جنديٍّ في وهج المعركة، على تواصلٍ مستمرٍّ مع ضابطه القياديِّ، والجنديُّ هنا يريدُ ليس فقط أن يسمعَ من رئيسِه، بل هو يحتاج إلى ذلك، فيقف هناك ساعيًا إلى استكمال المهمَّة التي المعطاة إليه، وفي احتياج شديد إلى الإرشاد والدعْم، أو كما صاغها إيريك ميتاكساس (Eric Metaxas): ''حين يتحدَّث الله إليك، فاعلَمْ أنَّك ستحتاج إلى ذلك''.٢١

لا يتحدَّثُ الله بلُغة عشوائيَّة إلى أيِّ شخص يُصادف أن يستمعَ في ذلك الوقت، فلغةُ الله هي إيمانٌ ورجاء ومحبَّة، وإذا كنَّا نسعى لكي نعيش حياةً يميِّزُها الإيمانُ والرجاء والمحبَّة والتحرُّك مع الربِّ في عملِه، فيمكن أن نحوزَ إذًا توقُّعًا أنَّ الربَّ سيتحدَّث إلينا ويعطينا ما نحتاج إليه، وعلى الجانب الآخر، إذا جلسنا في هدوءٍ رافضين التصرُّف إلى أن نتلقَّى صراحةً أمرَ التصرُّف، فقد نظلُّ منتظرين لوقتٍ طويل، فمرَّات لا تلتقطُ هواتفُنا الجوَّالةُ أيَّة إشاراتٍ داخل منازلنا،

ونحتاج إلى الخروج والتحرُّك لاستقبال الإشارات.

أنا أيضًا على اقتناع أنَّ الاستماع إلى الله لا يختلف كثيرًا عن الكتابة؛ فإذًا انتظرتُ ولم أكتُب حتَّى يأتيني الإلهامُ، فلن أكتبَ عمليًّا أيَّ شيء بتاتًا. لكنْ إذا ربطتُ نفسي إلى مكتبي كلَّ صباح في الثامنة وبدأتُ أكتب شيئًا- أيَّ شيء- فإنَّ الإلهامَ معتادٌ أن يجلِبَ كرسيَّه ويجلس إلى جواري. فإذا تصرَّفنا بناءً على ما نعرفُه، محافظين على وضعيَّة الاستماع، فسيأتي ذاك الذي معنا إلى انقضاء الدهر، وحين يتكلَّم معنا فعلًا، علينا الاستعداد لنتصرَّف بناءً على كلامه. قال كارل بارت (Karl Barth) إنَّ أفضلَ اختبار لأصالة التواصل مع الله هو التصرُّف بناءً عليه ورؤية ما يحدثُ.٢٢

الصلاة بوصفها استماعًا

اعتادَ مَن أتوا منَّا من خلفيَّةٍ إنجيليَّة طلاقةً معيَّنة في الحديث بشأن الله؛ إذ نحبُّ المشاركة والشهادة والصلاة بصوتٍ مسموع، وغالبًا ما يتخلَّل صَلواتِنا تكرارٌ لاسم الله- لئلَّا ينسى الآخرون، في خضمِّ أسلوبنا الطويل،

الشخصَ الذي نصلّي له، لكنّي وجدتُ على مدار السنين أنّي صرتُ أكثر كتمانًا في حديثي بشأن الله وأيضًا في حديثي إلى الله، فأشارك خبراتٍ أقلّ مع آخرين، وقد وصلتُ إلى رؤية الصلاة بوصفها طريقة للوجود مع الله، أكثر منها فرصة للتكلّم. ويتفادى اليهودُ، القدماءُ والمعاصرون، ذِكر اسم ''الله''، وأجدُ نفسي منجذبًا إلى التقاليد المسيحيَّة التي تتعاملُ مع الله بطريقةٍ أكثر حرصًا، وأنجذب أكثر إلى الطرق القديمة للصلاة والتي دائمًا ما تبدو أهدأ وأقلّ استعجالًا من تلك التي أختبرُها في الكثير من السياقات الإنجيليَّة.

تؤدِّي الكلمات المستفيضة المنطوق بها نحوَ السماء- صلوات المناجاة الفرديَّة- إلى انغلاقنا على العلاقة المقدَّمة إلينا، ونعرف كلّنا أشخاصًا، ومنهم حسنو النيَّة، مَن يسودون عادةً على المحادثات. ويمكننا الانصراف من تلك المحادثات شاعرين ببُعْد عن ذلك الشخص أكثر ممَّا قبل المحادثة. وفي ما يتعلّقُ بتقليدٍ يُعرَفُ بتركيزه على العلاقة الشخصيَّة بيسوع، نجدُ أنَّ

الإنجيليِّين ليسوا معروفين تمامًا بقدراتهم الاستماعيَّة، لكنَّ الاستماع هو الطريقة التي بها تعرفُ شخصًا ما؛ إذ لا يمكنك تقديم مناجاة فرديَّة إلى شخص، وتكون في الوقت نفسه واثقًا بأنَّك ستتعلَّم أيَّ شيءٍ عن ذلك الشخص، ففي الاستماع تنالُ دخولًا إلى ذهنه، وتكتشف مَن هو ومَن يُشبِه وما إذا كان موثوقًا به. لقد نمَتْ فئةُ "صلاة الاستماع" الحديثة نسبيًّا استجابةً لفجوة الاستماع الموجودة في الممارسة الإنجيليَّة، فعلى عكس طرق الصلاة التكلُّميَّة، تسعى الصلاة الاستماعيَّة إلى تمييز صوتِ الله بواسطة الكتاب المقدَّسِ والاستماع المباشر، وبينما استفدتُ استفادةً عظيمةً من هذه الممارسات، أرى أنَّه من الكاشف أن يكونَ لدينا تعيينٌ "لصلاة الاستماع" في الدوائر المسيحيَّة، إذ يشيرُ الأمر إلى أنَّ الاستماع ينتمي إلى نوع مميَّزٍ من الصلاة، ربَّما يُذخَرُ من أجل أناس حقَّقوا مكانةً مرموقة في الحياة الروحِيَّة، ويبدو الافتراضُ أنَّ الصلاة العاديَّة هي صلاة متكلِّمة، فنترك كلماتٍ على المذبح يومًا تلو

الآخر، آملين أن يجمعَها الله ويضعها في حسبانه، ويأتي الاستماعُ بوصفه فكرة إضافيَّة لاحقة.

أودُّ التأكيد على أنَّ صلاةً دون استماع ليست صلاةً حقًّا، ولا أرى طريقةً أخرى يمكنُ بها أن نكونَ أمناء بشأن وصيَّة بولس: "صلُّوا بلا انقطاع" إلَّا إذا فهمنا الصلاة بوصفها استماعًا، والحياة بوصفها سياقَ الصلاة الاستماعيَّة، وأتَّفقُ حقًّا أنَّنا نقدِّم تشفُّعات وتسبيحًا وتضرُّعات لكنَّها جميعًا تنبع من استماعنا، فتعاملُنا مع الصلاة بوصفها استماعًا هو اعترافٌ بأنَّ لله دائمًا الكلمةَ الأولى، وبأنَّنا نتاجُ كلمته المُبدِعة، وبأنَّ الكون محمولٌ معًا بكلمته الحافظة، وقد نَطقَ هو بالألف، وهو يعرفُ اليوم الذي سيصيح فيه بالياء، وحياتُنا الحاليَّة منخرطةٌ في الاستماع إلى الحروفِ ما بين الألف والياء.

في الصلاة نقدِّمُ آذانَنا وأنفسَنا بالكامل إلى الله، في كلِّ أوضاعِ الحياة، سواء كنَّا في كنيسة صغيرة هادئة أم وسط جمهورٍ كثير صاخب، ولسنا محتاجين إلى

المحاربة من أجل مواقف معيَّنة أو طلب المناخ المثاليِّ من أجل الاستماع، فليس الاستماع حصرًا على الأرستقراطيَّة الروحيَّة، إذ يتعلَّقُ الاستماع بما هو أكثر من الإصغاء الجاهد لسماع الأصواتِ، بل يتعلَّق بتهيئة أوضاع قلوبِنا وزراعة انفتاح داخلَنا، وبذلك يكون الاستماعَ وضعًا من أن نكون متَاحين وخاضعين، فلسنا نتحكَّمُ في الكيفيَّةِ أو التوقيت الذي سيتحدَّث فيها الله، لكنْ يمكننا التحكُّم في الاستعدادات الصوتيَّة المستقبِلة للصَّوت، إذ نريدُ تهيئة مكانٍ داخليٍّ منفتح ومرحِّبٍ بصوتِ الله، ويتطلَّب ذلك المكان الداخليُّ اتِّضاعًا وطولَ أناةٍ وانتباهًا وثقةً، وينبغي أن تكونَ لنا قلوبٌ خاضعة بالفعل من أجل تمييز صَوتِه حين يدعو.

بمجرَّد أن نتبنَّى الاستماعَ الشاملَ لكلِّ الحياة، تكون الأوقات المحدَّدة المكرَّسة من أجلِ الصلاة الاستماعيَّة تدريباتٍ لسماع صَوت الله في كلِّ دوائر الحياة، ففي تهدئة نفوسِنا أمامَ الربِّ ننفصلُ عن قوَّة الأصوات الأخرى ونتَّصلُ بصوت ربِّنا. وبمرور الوقت تخمدُ

الأصوات الأخرى وتصبح أقلّ استعجالًا، فكما قال هنري نووين: "الهدفُ هو المثابرةُ في عزلتي، أن أبقى في صَومَعَتي حتَّى يتعب كلُّ زوَّاري المغويين من قرْع بابي ويتركوني بمفردي"٢٣ وفي تلك اللحظات النادرة حين نقدر أن نجلسَ في هدوءٍ ونطلِقَ الضَّوضاء، والقلاقل التي تدفعُنا إلى الضوضاء؛ وحين نضبطُ أنفسنا على موجِات الله، فإنَّنا نتدرَّبُ ونعدُّ أنفسَنا لنكونَ مستَمعين في كلّ الحياة.

غير أنَّ من الضروريِّ الاعتراف بأنَّ الغالبيَّة العُظمى من الوقت حين نسكِّن أنفسَنا لكي نستمع إلى الربِّ في وقت الصلاة المكرَّسة لن نسمع شيئًا، ويصيب هذا الوافدين الجددَ بالإحباط، لا سيَّما حين يبدو كأنَّ الآخرينِ يختبرون الربَّ اختباراتٍ منعِشة، فعلينا تذكُّر أنَّ غايةَ ما نطلب ليس هو حدوث الأمر المُذهِل، ولسنا نصغي باجتهاد من أجل كلمةٍ من الربِّ، بل نطلبُ الربَّ نفسَه، إذ لا تُبنى حياة الاستماع على المحتوى المسموع بقدر ما تُبنى على العلاقة بذاك الذي يتحدَّث؛

فحالَنا حالَ إيليَّا يمكنُنا حتَّى أن نأتيَ لنَستمعَ باحثين عن أوقات الصمت، لأنَّ لصمتِ الله وَقعًا مختلفًا؛ فصمتُه زاخرٌ، وحين تأتي أوقاتُ الصمت هذه نعلمُ أنَّ القصَّة لم تنتهِ بعْد.

استماع كلَّ يوم

الاستماع إلى الله هو واقعٌ يوميٌّ. في القرن السابع عشر كان هناك راهبٌ يُدعى الأخ لورنس (Brother Lawrence) وكان يسعى إلى ممارسة حضور الله في أكثر المواقف اعتياديَّة. وكان لورنس شخصًا عاديًّا بمستوى جاذِبيَّةٍ عاديٍّ أيضًا. وكان واجبُه الرهبانيُّ الأساسيُّ لسنين طويلة هو غَسْل الأطباق في مطبخ الدير، لكنَّه كان يفهم ما فات على كثيرين جدًّا عبْر القرون: أنَّ الله موجودٌ في العمل الروتينيِّ التافه على نحوٍ مساوٍ تقريبًا لوُجودِه في الأداء الساطع، ولذلك فمعظم أفضل المسيحيِّين هم أناسٌ لن نسمعَ عنهم قَطّ، وكان لورنس يُدرك أنَّه حين يكون الله معنا، يكون المطبخ المُظلِم القديمُ أرضًا في القداسة نفسها لكنيسة

مغلفة بزجاج ملوَّن، ويشبهُ ذلك ما قالته القدِّيسة تيريزا الأ□يليَّة (Teresa of Ávila) إنَّ ''الله يسيرُ بين القُدور والأطباق''٢٤، فنحن مدعوُّون من أجل الاستماع ليس فقط كأنَّنا مركز اتِّصالات فضائيٍّ للتواصل مع عالمٍ سماويٍّ، بل بوصفه وسيلة لاكتشاف الله في الأمورِ العاديَّة الروتينيَّة.

وقد حسبَ أستاذ الأديان في ويتورث (Whitworth) الأستاذ جيري سيتسر (Jerry Sittser) أنَّ الشخص المتوسِّط يُمضي على مدار حياته ألفَي ساعة في تنظيفِ أسنانِه، و١٤٦٠٠ ساعة في قيادة سيَّارتِه، و٤٣٨٠٠ ساعة في تناوُل الطعام، و٥٨٤٠٠ ساعة في القيام بأعمالٍ روتينيَّة٢٥، فحتَّى الحياة الساحرة ستتضمَّن أنشطةً عاديَّة مُغرِقة في البساطة، والتحدِّي الموضوع أمامَنا هو الكيفيَّةُ التي يمكنُنا أن نستمع بها حين ننظِّفُ أسنانَنا، أو نكنس أو نذهب يوميًّا إلى العمل.

هناك صلاةٌ قديمة تسمَّى ''صلاة يسوع'' (The Jesus

Prayer)، وهي تقول: ‘‘يا ربُّ يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ’’- وقد مارسَها التقليدُ الأرثوذكسيُّ الشرقيُّ منذ عهد النُّسَّاك المصريِّين في القرن الخامس، والفكرة ما وراءَ الصلاة هي أنَّه إذا ردَّدها شخصٌ ترديدًا مستمرًّا في يَومه، سيُصبِح واعيًا بأنَّ يسوعَ يتخلَّلُ الواقع، وبأنَّ الله حيٌّ في كلّ لحظةٍ، وقد ردَّد بعضُ متحمِّسي صلاة يسوع هذه الصلاة آلاف المرَّات يوميًّا.

وقد طوَّرتُ نسختي من هذه الصلاة، والتي صارت محورَ صلاتي؛ ففي سفر صموئيل الأوَّل أوصى عالي الكاهنُ الشيخُ النبيَّ الصغيرَ صَموئيل قائلًا: ‘‘ويكون إذا دعاك [الربُّ] تقول: تكلَّمْ يا ربُّ لأنَّ عبدَك سامعٌ’’ (١صموئيل ٣: ٩)، وأصبَحَتْ تلك صلاتي اليوميَّة، وأطلِقُ عليها صلاةَ صموئيل، وهي سهلةُ التذكُّر وليست معقَّدة، ‘‘تكلَّمْ يا ربُّ، لأنَّ عبدك سامع’’. وهذه هي الكلمات الأولى التي أنطقُ بها حين أستيقظُ في الصباح، والكلمات الأخيرة التي أقولُها حين أذهبُ إلى

فراشي، وهي تقدمتي المتكرِّرةُ في أثناء اليوم. وللأمانة، تنسابُ هذه الصلاة انسيابًا أسهلَ حين أكتبُ أو أعظُ أو أجلسُ في الكنيسة، لكنِّي أعتقدُ أنَّ الأهمَّ هو أن أقولَها حين أدفع فواتيري وأطبخ وأنظِّفَ بيتَ قِطَّتي، إذ أحتاج إلى التذكير أنَّ رياحَ الرُّوحِ تهبُّ في كلِّ مكانٍ وكلِّ نشاطٍ.

حين بدأتُ أكرِّرُ هذه الصلاة، كنتُ متخوِّفًا من الإحباط، فهل مِن العجرفةِ أنْ أفترضَ أنَّ الله سيتحدَّثُ إليَّ في أثناء اليوم؟ وجاءتني الإجابة سريعًا: أجل، أجل! ثمَّ وصلتُ إلى إدراك أنَّ صلاةَ صموئيلَ لا تتعلَّقُ بإقناعِ الله أن يتحدَّث شخصيًّا إليَّ بمعدَّلٍ أعلى، لكنَّها وسيلةٌ من وسائل إفساح المكان، فهي تقولُ لله: "هَنَذا"، فاتحًا قلبي لله، مستعدًّا للوقت الذي يقولُ هو فيه أيضًا ردًّا عليَّ: "هَنَذا".

دائمًا ما تجعلُني تلاوةُ صلاة صَموئيلَ أسحبُ نفَسًا عميقًا، وأُبطِئ، وأصبح أكثر انتباهًا لما يحدثُ من حولي وداخلي، فأصبحُ أكثر وعيًا بحضور الله، وهذه

لحظة تَشبُّع بالله، وأبدأ في السؤال: ‘‘ماذا تعلَمني هذه اللحظةُ؟’’ بدلَ طلبِ أمورٍ والتلاعُب بالمواقف للحُصول على ما أريد، وتقلُّ صلواتي عمَّا أريد، وتزيدُ بشأن الحياة في محضر الله.

أمارسُ أيضًا عدَّة مرَّات في الأسبوع دفعاتٍ قصيرةً من الصلاة الصامتة، وعادةً تستغرقُ من خمس إلى عشر دقائق، والتي تُطلِق عليها بعض التقاليد الصلاة المُمركِزة، والتي تسمح بالأفكار الواعية أن تمرَّ بذهني بينما أتمسَّكُ بمُرتَكَزي: ‘‘تكلَّمْ يا ربُّ، لأنَّ عبدَكَ سامع’’، والهدفُ الأساسيُّ في هذه الأوقات هو الاستمتاع بالربِّ وبحضوره بالقَدْرِ ذاتِه من الاستمتاع الذي فيه نجلسُ مع أحد الأحبَّاء في حميميَّة هادئة، وأقولُ إنَّه من الأفضل التدرُّج في هذا؛ لأنَّ مدَّة عشر دقائق من الصمت المطلق ستبدو بدايةً كأنَّها بلا نهاية، فلتبدأ بدقيقتَين وتَصَاعَدْ. أعرفُ أُمًّا تمارس الصلاةَ المُمركِزة في منتصف الليل بينما تهزُّ طفلها لينامَ، وفي هذه الأوقات قد يتكلَّم الله مباشرةً إليك، لكنَّه لن يتكلَّم في

معظم الأوقات، وأعتقدُ أنَّ الربَّ يريد مرَّاتٍ أن أتعلَّم السكونَ فقط، وقد تعلَّمتُ ألَّا أيأسَ حين لا يتحدَّث؛ لأنِّي أعرف أنَّ هذه ليست نهاية حياة استماعي، بل هي البداية.

الفصل الرابع

الاستماع إلى الكتاب المقدَّس

بعد تخرُّجي في كلِّيَّة اللاهوت، توقَّفتُ عن قراءة الكتاب المقدَّس، ويشبهُ ذلك ما يُقال عن تشريح ضفدعةٍ، فوراء كلِّ المكسب الذي يأتي من تشريحها وكلِّ المعرفة العمليَّة التي يجنيها الشخص بتقطيع الأعضاء المختلفة وفصلها ودراسة الأجزاء المختلفة دراسة متعمِّقة، هناك شيء ما يموتُ في أثناءٍ هذه العمليَّة، وكانت ضِفدَعتي قد ماتت، وما من شكٍّ في ذلك.

أتذكَّرُ قبل كلِّيَّة اللاهوت حين كان الكتاب المقدَّس يُنشِد لي بأنغام ملائكيَّة، وكانت ''كلمةُ الله'' توقِظُني في الصباح، وفي الجامعة اعتدتُ أن أستَيقظَ في السادسة والنصف صباحًا- ما جعلني أوَّل شخص يستيقظ في الحرم الجامعيِّ بفارق نحو أربع ساعاتٍ عن الآخرين- وكنتُ أتمشَّى في المدينة الناعسة ذات

الأشجار المصطفّة على الجانبَين تحت شمس كاليفورنيا الموقِظة، وأقرأُ كتابي المقدَّس بينما أحتَسي قهوتي. وفي صباح أحد أيَّام شهر كانون الأوَّل/ديسمبر، قرأتُ نشيدَ مريم، ويقيني أنَّ قلبي ارتكَضَ مع جنين أليصابات حين سمعَ صوتَ مَن كانت تحمل المصيرَ في أحشائها، وسرتُ عائدًا إلى الحرم الجامعيِّ متهلِّلا مع أمِّ يسوع: عظَّمتْ نفسي الربَّ وابتهجتْ روحي بالله مخلِّصي، وكانت خبراتٌ مثل هذه ما جعلتني أبدو كأنِّي أطفو إلى كلِّيَّة اللاهوت على أمواج صوتيَّة كتابيَّة، مدعُوًّا إلى حياةٍ من دراسة الكتاب المقدَّس والمناداة بها، ولم أكُن أتخيَّل حياةً أعذب أو أحلى من ذلك.

بانتهائي من كلِّيَّة اللاهوت، والتي كانت قبلًا نشيدًا تآلُفيًّا من أصوات متناغمة، أصبحتِ الآن صوتًا جافًّا من ألحان عديمة الشعور لقاعة محاضرات، وكان الكتاب المقدَّس قد أصبح عيِّنةً شرَّحتُ كلَّ مكوِّناتها- كلَّ ما فيه من أربطةٍ ومفاصل وأوعية دمويَّة نحويَّة وتاريخيَّة ونصِّيَّة وثقافيَّة- حتَّى رحلتْ كلُّ الحياة

وذهب كلَ الاتِّصال، وفقد النشيدُ كلَ صوته الغنائيِّ، متواريًا ومختفيًا أمام آيات الحِياة الجديدة مثل: ‘‘هوذا أيَّام تأتي، يقولُ السيِّدُ الربُّ، أُرسِلُ جوعًا في الأرض، لا جوعًا للخبز، ولا عطشًا للماء، بل لاستماع كلماتِ الربِّ. فيجولون من بحر إلى بحِر، ومن الشمال إلى المشرق، يتطوَّحون ليطلبوا كلمةَ الربِّ فلا يجدونها’’ (عاموس ٨: ١١-١٢).

كانت كلمةُ الله في تلك الأيَّام صعبةَ المنال، وكنتُ لا أزال أفتح الكتابَ المقدَّس، بل أترجِم اليونانيَّة والعبريَّة، لكنَّ الكتاب المقدَّس كان أشبَه بدَليلٍ للوعْظ، مرجعٍ للمُعلِّم لتحضير الدروس، ولم أكُن أقرأه كما اعتدتُه منَ قبْل، وكان أشبَه بالكلمة الموجَّهة إلى آخرين، وليس إليَّ أنا. وكان دَوري هو الوسيطَ، ونادرًا ما كان دورَ المتلقِّي. وفي طموحي حينها، كنتُ أحاول استخدام الكتاب المقدَّس بوصفه سلَّمًا للصعود إلى أعالي نجوميَّة الوعْظ، وركيزةً لإظهار قوَّاتي الساحرة١، ولم يختلف تعامُلي مع الكتاب المقدَّس عمَّا كان يفعله

الصيارفة في الهيكل حين بدأوا يعملون في أروقته الخارجيَّة، فاحتلُّوا مكانَ العبادة الشخصيَّة وحوَّلوه إلى مكان تعامُلات تجاريَّة غير شخصيَّة، وأسفي هو أنَّ الكتاب المقدَّس لي كان قد توقَّف عن كوْنه مكانَ لقاءٍ، وصارَ مكانَ تجارة.

إنَّ مشكلةَ خلْقِ مسافةٍ بينك وبين نصِّ الكتاب المقدَّس كي تراه رؤيةً أكثر موضوعيَّة هي إمكانيَّة أن ينتهيَ بك الأمر مُبعِدًا نفسَك عن ذاك الذي تحدَّث بالكلمة في المقام الأوَّل. فحين تضعُ الكتابَ المقدَّس على شريحةٍ زجاجيَّة وتختبرُه تحت المُجهِر بينَما تكونُ حينها الشخصَ، والكتابُ المقدَّس هو الموضوعَ- الأمرَ غير الشخصيِّ موضعَ الدراسة، يمكن أن ينتهي بك الأمر مثل توماس جيفرسون (Thomas Jefferson) حاملًا المِقصَّ إلى الكتاب المقدَّس، وقاطعًا كلَّ معجزةٍ منه.

ولا أعني هنا مهاجمةَ عِلم دارسة الكتاب المقدَّس؛ فنحن الذين نقرأ الكتاب المقدَّس بلغتنا الخاصَّة، نعتمدُ اعتمادًا مُطلَقًا على عُلماء الكتاب المقدَّس مَن جمَّعوا

ذلك النصَّ وترجموه، لكنَّ المشكلةَ التي نواجهُها، نحن مَن أمضَينا وقتًا في الدوائر الدراسيَّة العِلميَّة، تشبهُ كثيرًا المشكلةَ التي يمرُّ بها المخطوبون. اسألْ أيَّ شخص يكون قد رتَّب لحفل زواج، فيُخبرَك أنَّه من اللحظةِ التي يوضَعُ فيها خاتمُ الخِطبة في إصبع الفتاة يكون من السهل جدًّا الغرقُ في تفاصيل تحضير الحفل. ففي كلِّ المفاوضات بشأن مكان الحفل والأزهار وبطاقة الدعوة والطعام وقائمة المدعوِّين والموسيقا وكيفيَّة التعامُل مع تدخُّل أفراد العائلة الفضوليِّين والعديد من التفاصيل الأخرى التي لا تُحصى- ينسى الكثيرُ من المخطوبين أنَّ حفل الزواج هو لقاءٌ شخصيٌّ وحميميٌّ في المقام الأوَّل، وهو يتضمَّنُ تعهُّدًا ما بين شخصَين وأسرتَين وأصدقاء يصدِّقون على العهود. ويُمكن أن تتعرَّضَ دراستنا للكتاب المقدَّس للقوى نفسها السالبة للشخصيَّة؛ فالكتاب المقدَّس هو كتابٌ شخصيٌّ جدًّا لأنَّه منصَّةٌ لقاءٍ ما بين الله وشعبه. لكنَّ تفاصيل التفسير ومستويات المنهجيَّة المعقَّدة يمكن أن تُزاحِمَ

شخصيَّة الكتاب المقدَّس، فينتهي بنا الأمرُ بحفل زواج رائع، وزواجٍ تعيس.

كلمة شخصيَّة

الخبر السارُّ هو الآتي: رغم كلِّ محاولاتنا لخلْق انفصالٍ عن نصِّ الكتاب المقدَّس، فإنَّ النصَّ نفسَه يتكلَّمُ عن كلمةٍ ترفضُ ابتعادَنا بل وتزيلُه، وغموضُ "الكلمة" النابعة من الخالق هو أنَّ هذه الكلمة تقرأنا؛ فحين تفتحُ الكتاب المقدَّس وتضعه أمامَك تكتشفُ أنَّك أنت مَنِ انفتحتَ وتجد نفسَك مكشوفةً تمامًا من قِبل الكلمة، ويتحوَّل تعامُلي مع الكتاب المقدَّس بوصفي أنا الشخص وهو موضوع البحث إلى العكس، وأصبحُ أنا موضوع بحث الكتاب المقدَّس، مُمسَكًا منه ومكشوفًا فيه، فإذ أذهبُ إليه بوصفي المُمثِّل لأقرأ السيناريو أكتشفُ، أنِّي النصُّ وأنَّ "الكلمة" تعمل فيَّ. وبينما كُتب الناموس على ألواح، فالكلمة مغروسةٌ الآن في قلوبنا، وتشكِّلنُا وتعيد تعريفنا.

أحيانًا نخصُّ عبارة "كلمة الله" بالكتاب المقدَّس،

لكنَّ الكتاب المقدَّس نفسَه يشهد "لكلمة" الله بصورٍ غنيَّة ومتعدِّدة الأوجه، متوسِّعًا بذلك إلى ما وراء القدرة التي عادةً ما ننسبُها إلى كلمةٍ، فالأمرُ عندَنا هو أنَّ الكلمةَ هي بضعةُ خطوطٍ على ورق، أو صَوتٌ يندفعُ نحوَنا ويمرُّ ثمَّ يختفي في الفضاء، أمَّا في الكتاب المقدَّس، فالكلمةُ تنبضُ بالحياة والعمل والقوَّة المستمرَّة.

تشعلُ الكلمةُ حياتَنا وأجسادَنا: فها إرميا يقولُ إنَّ كلام الربِّ "كان في قلبي كنار مُحرِقةٍ محصورة في عظامي" (إرميا ٢٠: ٩)، وتأتي الكلمةُ لتسكنَ فينا، فنجد أنَّ بولس صلَّى من أجل أهل كولوسِّي لكي تسكن فيهم كلمةُ المسيح بغنى، وكلمةُ الله نضِرة مُغذِّية أيضًا، فها إشعياء ينصحُ سامعيه أن يستمعوا استماعًا جادًّا ويأكلوا ما هو جيِّدٌ، والكلمةُ أيضًا هي بزرة تُزرع في قلوبنا وتنمو بها حياةٌ جديدة. فيقول الرسول بطرس مثلًا: "مولودين ثانيةً، لا مِن زرع يفنى، بل ممَّا لا يفنى، بكلمةِ الله الحيَّة الباقية إلى الأبد" (١بطرس ١:)، والكلمةُ أيضًا تفحصُنا وتختبرُنا، حيث تُطلِق الرسالةُ

إلى العبرانيِّين على كلمة الله ‹‹أمضَى مِن كلِّ سيف ذي حدَّين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميِّزة أفكارَ القلب ونيَّاته›› (عبرانيِّين ٤: ١٢). وتنمو الكلمةُ فينا وتخلِّصُنا، حيثُ تخبرُنا رسالة يعقوب بالقَول: ‹‹فاقبَلوا بوداعةٍ الكلمةَ المغروسةَ القادرة أنْ تخلِّصَ نفوسَكم›› (يعقوب ١: ٢١).

إذا كانت هناك فكرة واحدة في هذه الصور المتنوِّعة فهي الآتي: الكلمةُ هي أمرٌ يصل إلى داخلنا ويعملُ فينا ويصبحُ جزءًا منَّا بينما يغيِّرُنا. والكلمةُ شخصيَّة لأنَّها تواصُلٌ ذاتيٌّ من الله الإلهِ الشخصيِّ، ولأنَّها تصبح جزءًا من شخصيِّتنا متحرِّكةً معنا وحيَّةً فينا. وحين نقرأ الكتاب المقدَّس، نحن مَن هم في المسيح، تميِّزُ الكلمةُ المغروسةُ فينا الكلمةَ المكتوبة في الكتاب المقدَّس، فتُحيِّي الكلمة التي داخلنا الكلمة التي خارجنا، ونقابل الله الإله الذي تحدَّث بالكلمة، ونقابل نفوسَنا الأعمق والأصدق، التي توقَظ مِن نعاسها بالكلمة التي في داخلها.

حين نفتحُ الكتاب المقدَّس نخاطر بلقاءٍ حقيقيٍّ، علاقة حقيقيَّة بربِّ الكون وبنفوسِنا العميقة، ويمكن أن ينتجَ ذلك شعورًا بالخطر، إذ يمكِن أن يبعثَ هذا الأمر شعورًا بالضعف الزائد والشكّ الزائد والرُّعب الزائد، لكنْ لأنَّنا مسيحيِّون صالحون ملتزمون بقراءة الكتاب المقدَّس، نأتي بوسائل تجعل الأمرَ أكثر أمنًا.

قال واعظٌ زائرٌ وهو يحمل كتابَه المقدَّس القديم: "ليكُن هذا الكتاب مألوفًا لديك، فهو دليلٌ لإدارة الحياة!"، فتأوَّهت السيِّدة الجالسة إلى جواري متذمِّرةً وكان صوتُها مرتفعًا حتَّى إنَّ بعض الأشخاص التَفَتوا لينظروا نحونا، واضطُررْتُ إلى وَضْع يدي على فمي لأكتمَ ضحكتي، ولو كنتُ أعرف هذه السيِّدة لما استطعتُ التحكُّم في نفسي، لأنِّي عرفتُ بعد العظة أنَّها إحدى أساتذة الوعظ الجليلات المحترمات في إحدى كلِّيَّات اللاهوت المرموقة، وجلسنا معًا في ما تبقَّى من العظة دون وُقوع أيِّ حادثٍ آخر. كان الواعظ متَّسقًا تمامَ الاتِّساق في لاهوته الكتابيِّ الخاصِّ بإدراة الحياة،

إذ طبَّق نصَّه المختار على كلِّ أنواع الأمور العمليَّة، مثل الأنظمة الغذائيَّة والأمور الماليَّة والأمن الوطنيِّ.

ينصحُنا لاهوتيُّو العبارات الرنَّانة أنَّ نقرِأ الكتاب المقدَّس بوصفه ''الدليل الإرشاديَّ الذي أرسله الله'' أو أن نعتمد عليه حاسبين إيَّاه ''شبكة الأمان'' التي تلتقطُنا حين نوشك على السقوط في الخطيَّة واليأس، ويعلِّمُنا آخرون أن نفتحَه مثلما نفتحُ خزانةَ الأدوية التي تضمُّ علاجاتٍ لكلِّ الأمراض الروحيَّة، أو أن نتعامل معه بوصفه دائرة معارفَ دينيَّةٍ مُجمَّعة، لكنَّ مايكل كيسي (Michael Casey) يحذِّرُنا من استخدام الكتاب المقدَّس بوصفه كتابَ وصفاتٍ لتحضير بعض التأمُّل، ويبدو أنَّه يعني بذلك تحضيرَ بعضَ الشعور بحضور الله[٢]، وأحيانًا نتعامل بعضُ الطرق المعقَّدة مع الكتاب المقدَّس مثلما نتعامل مع متحفٍ، إذَ يضمُّ الكتاب المقدَّس آثارًا قديمة، وتعبيراتٍ من ثقافات سابقة، وسجلَّات تاريخيَّة لشعوب بدائيَّة ولمحاتٍ من لكناتٍ بائدة، وهي أمورٌ تنتمي إلى الماضي، وإنْ كانت جذَّابةً. لكنْ إنْ كنَّا أمَناءَ

مع أنفسنا، لَوَجَدْنا أنَّ ما يجمعُ كلَ هذه الطرق هو أنّها تحمينا من اللقاء الشخصيِّ.

أَتَواصُلٌ أم تَودُّد؟

في فيلم ''مجتمع الشعراء الأموات'' (Dead Poets Society)، يسألُ جون كيتينغ (John Keating) الذي يلعبُ دورَه روبين وليَمز (Robin Williams) طُلَّابَه: ''لماذا اختُرِعتِ اللغةُ؟''، ويُغامِر نيل (Neil) الطالب المتميِّز بتخمين الإجابة قائلًا: ''من أجل التواصُل؟''، فيجيب الأستاذ كيتينغ قائلًا: ''لا! بل من أجل التودُّد إلى النساء!'' والإجابتان صحيحتان لكنَّ تفاعلَهما يرسمُ خطًّا ما بين استخدامين أساسيَّين من استخدامات اللّغة. فالاستخدامُ الأوَّل يركِّزُ على الوصف، واضعًا محتواه بوضوح وحَرْفيَّة، وهذه لُغة الصُّحف وكتيِّبات الإرشادات والعقود، إذ تتعلَّقُ تعلُّقًا أساسيًّا بسؤالَي ''كيف'' و''ماذا''، وغالبًا ما تسيرُ في خطواتٍ: نشرحُ هنا كيف تأخذ هذا الشيء وتوصله بذلك الشيء للحصول على شيء جميل. والمقصود هو نَقْلُ

المعلومات في أكثر صُوَرِ النقل فهمًا ووضوحًا.

أمَّا الاستخدام الثاني للُّغة فهو ليس فقط لوَصْفِ الأمور، بل يهدف إلى إيصال معرفة القلب، وهذه هي اللغة التي يمكن أن تصيرَ أغنية؛ فهي لُغة تتحلَّى بأجمل ثيابِها، وتضجُّ بالشغف والتوق، وتغازل في تلميحاتٍ وإشاراتٍ ومعانٍ ضمنيَّة، وهي لُغة التقاءٍ: شخصيَّة جدًّا، مُتضمَّنة فِي علاقة أو علاقة مُحتَمَلة، وتصلحُ للشعرِ الجيِّد. وحيثُ إنَّه لا توجَدُ هناك امرأةٌ تريد قصيدةً تصفُها بحَرْفيَّة شديدة (''وجنتاك حمراوان مثل وردة..لديك رؤوسٍ سوداء كثيرةٌ على أنفِك'')، فليس قصد الشاعرِ أن تتعلَّم المرأة عن نفسها ما يجعلها تشعرُ بالنَّشوة؛ بلَ يحاول الشِّعر والتشبيه والأغنية معًا وَصْف ما لا يوصَف، كاشفين ما يمكن أن يغيب عن الآخرين.

إذا كانت اللُّغة الأولى تناقشُ العالم الذي نعرفُه بالفعل، فإنَّ الثانيةَ تفتحُ آفاقًا داعيةً إيَّانا إلى عوالم لم نعرفْها بَعْدُ.٣ وكما يشرح الأستاذ كيتينغ، فالتواصل

ضروريٌّ جدًّا لمواصلة الحياة، أمَّا الشغف والرومانسيَّة فهما ما نظلُّ على قيد الحياة من أجله. وهذا هو نوعُ اللغة التي تحوزُ قوَّةَ تغييرنا وليس فقط تنويرنا، وهي لُغة تجتذبُها تساؤلاتٌ عن ''مَن''، فتلك هي أسئلة الهُويَّة والعلاقة. ويشرحُ يوجين بيترسون أنَّ هذا النوع من اللُّغة يسعى إلى التشكيل لا الإعلام: ''حين تكون اللُّغة شخصيَّة، وهي كذلك حين تكون في أفضل صورها، فإنَّها كاشفة. والكشْف دائمًا ما يُشكِّل، وحينها لا نعرفُ أكثر بل نصبح أكثر، وأفضل مستخدمي اللغة من شعراء ومحبِّين وأطفال وقدِّيسين يستخدمون الكلمات لكي يصنعوا حميميَّةً وشخصيَّةً وجمالًا وصلاحًا وحقًّا...وهذا كشْفٌ يتمُّ على المستوى الشخصيِّ''.٤

صحيحٌ أنَّ في الكتاب المقدَّس الكثيرَ ليعلِّمنا بشأن طبيعة الكون، لكنَّ الكثير جدًّا منه يبدو عازمًا على التودُّد إلينا بدلَ مجرَّدِ التواصل معنا. ولُغتُنا المعاصرة تملأ كتيِّبات إرشاديَّة لجعْل الحياة أسهل، لكنَّ الكتاب

المقدَّس مُشبَّع بقصص وشِعر وأمثال وأناشيد وصور شعريَّة تريد استعلان شخص، وكيفيَّة شعوره بنا، وكيفيَّة تشكيله لنا على صورتِه، وليس الإعلانُ الكتابيُّ بشأن ماذا يُستعلَن بقدر ما هو بشأن مَن يُستعلَن، والإعلان الكتابيُّ يعني أنَّ حجاب الهيكل قد انشقَّ وأنَّ المجدَ قد تحرَّر، وأنَّ الله قد انطلقَ.

مكانُ لقاء

تعرقلَتْ قراءتي للكتاب المقدَّس جرَّاء طرقٍ غير شخصيَّة فِي التعامُل معه حيث حسبتُه شيئًا يُستخدَم، إذ فقدتُ إدراك أنَّ الكتاب المقدَّس هو مكانُ لقاء. فحين نفتحُ صفحاته، نُدعى إلى مُحادثة، ليس فقط مع الكُتَّاب البشر بل مع "الكاتب" الذي يسكن في الكتاب المقدَّس ويُشرفُ عليه، ويسوعُ وعد أنَّ الروح القدس سيعلِّمنا كلَّ شيء ويُذكِّرُنا بجميع ما قاله، وأنا أومن بأنَّ الروح القدس يساعدنا لنفهمَ الكتاب المقدَّس ونعيشَه (يوحنَّا ١٤: ٢٦)، فلا يمكن بتاتًا أن نقرأ الكتاب المقدَّس ونكون بمفردنا.

والكلمة التي غالبًا ما نستخدمُها للإلهامِ بطبيعة الكتاب المقدَّس ''موحى به'' تعني حرفيًّا ''مُتنفِّس به''، والتي تأخذُنا إلى وَصفِ بولس في ٢تيموثاوس ٣: ١٦: ''كلُّ الكتابِ هو مُوحى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البرِّ''، ويصكُّ هناك بولس كلمة يونانيَّة جديدة ''ثيوبنيوستوس'' (Theopneustos)، وهي تعني حرفيًّا ''تنفَّسَه الله'' (God-breathed)[٥]؛ فكلمات الكتاب المقدَّس تخرجُ من فم الله، وقد أُطلِق على الروح القدس كثيرًا ''نسمة الله''.

حين ننطقُ بكلمةٍ، فإنَّها تخرج من أفواهنا وتتلاشى، لكنْ حين ينطقُ الله بكلمة، فإنَّ حضوره يُحمَل مع هذه الكلمة، فليس الله منفصلًا عن كلمته بتاتًا، وكلمته متشبِّعة بذاته وهو نافذ فيها- بكيانه وقوَّته وحكمته- حتَّى إنَّ في الكلمةِ نفسِها حضورًا. وحين نفكِّر في هذا تبدو بشارةُ يوحنَّا منطقيَّةً حين تشيرُ إلى يسوع، الابنِ الأزليِّ، بوصفه كلمةَ الله. فحين تكون لديك كلماتَ ممتلئة من كيانِ الله نفسِه، تكون لديك ''كلمة'' ويكون

"الكلمة" هو الله.

يتوسَّطُ يسوعُ المسيحُ ليس فقط في خلاصنا بل أيضًا في قراءتنا للكتاب المقدَّس، وبدءًا من أقدم مفسِّري الكتاب المقدَّس، كان هناك إيمانٌ بأنَّ يسوع هو بطل الكتاب المقدَّس، ليس فقط في العهد الجديد، بل في العهد القديم أيضًا، فكلّ الكتاب المقدَّس يشيرُ إليه، ويجدُ تحقُّقُه فيه، ويتخلَّلُه حضورُه، حتَّى حين لا يستخدم الكُتَّابُ اسمَه، وهناك بعضُ النصوص حيث يعلو صوتُه الآخرين، لكنَّ أسد يهوذا يجولُ في كلِّ صفحات الكتاب المقدَّس، وأينما التفَتْنا يمكنُنا ضمُّ أصواتنا إلى صوت يوحنَّا المعمدان لنعلن قائلين: "هوذا حملُ الله".

الاستماعُ إلى الكتاب المقدَّس

تبدأ كلُّ اللغات في صورة منطوقة، فالكلمة المكتوبة أتت بعد الكلمة المنطوقة بعصور، وأتت القراءة بعد الاستماع بآلاف السنين، فهي دائمًا صورة مشتقَّة من التواصل، فالكلمات التي تحتويها الكلمة المقدَّسة سُمعت قبل أن تُقرأ: في صورة الأنبياء والشعراء والمشرِّعين

وناظمي الشعر والمؤرِّخين والوُعَّاظ المتحدِّثين بها إلى مستمعيهم، وكانت رسائل الرُّسل تُقرأ بصوت مسموع على مسامع المتلقِّين الذين كانوا يجتمعون ليستمعوا ويتناوَلوا مائدة الربِّ، فكانت الكلمات حيَّة ينطقُ بها صوتٌ حيٌّ، حاملةً معها تغيُّر الصوت والنغمة والمشاعر.

يُطلِق يوجين بيترسون على الكلمة المكتوبة اسمَ الصيغة "المجفَّفة" من الكلمة المنطوقة- ثنائيَّة الأبعاد وخالية من ملئها الشخصيِّ. وحين نفتحُ الكتاب المقدَّس ينبغي أن نفعل ذلك مؤمنين بأنَّ لله القدرة على إقامة الحروف الميتة.٦ وكما يقول سكوت ماكنايت: "ما نبحث عنه في قراءة الكتاب المقدَّس هو القدرة على تحويل الكلمات ثنائيَّة الأبعاد الموجودة على الورق إلى قاءٍ ثلاثيِّ الأبعاد مع الله"٧، وليس هذا أقلَّ من معجزةٍ: حين أنظرُ في خطابات قديمة، وأجدُ مُخاطبة لعالمي، ونُطقًا للُغتي، ومناداةً لاسمي.

كانت العلامة الفارقة في تعاملي مع الكتاب المقدَّس

عندما صرتُ "أستمع" إلى الكتاب المقدَّس بدل أن "أقرأه"؛ ففي استماعي إلى الكتاب المقدَّس أذكِّرُ نفسي أنَّ وراء كلِّ الكلمات صَوتًا، وهدفي هو الاستماع إلى شخصٍ قبل فحْص النصِّ. ويطلِق ماكنايت على هذا: المنهج "العلائقيّ" في الكتاب المقدَّس، وهو منهجٌ "يدعونا للاستماع إلى الله وهو يتحدَّثُ في الكتاب مقدَّس مُعطِين انتباهًا بينما نستمع إليه"٨، وفي مثل هذا المنهج، تبرزُ أسئلة مَن بينما نقرأ الأعداد والأصحاحات والأسفار؛ إذ يجب أن تثيرَ كلُّ فقرةٍ تساؤلاتٍ مثل: مَن الله؟ ومَن أنا؟ ومَن الكنيسة؟ ومَن يسوع؟ ومَن يجعل الله منِّي؟ ولا يعني ذلك أن نتجاهل أسئلة كيف وماذا؛ لأنَّها ضروريَّة للفهْم، لكنَّنا نتذكَّر أنَّ الاستماع إلى الكتاب المقدَّس يتعلَّق بالاستماع إلى الله، ويصيغُ ماكنايت ذلك كالتالي: "إنَّ علاقتنا بالله إله الكتاب المقدَّس هي أن نستمع إلى الله فنحبَّه حبًّا أعمق ونحبَّ الآخرين حبًّا كاملًا"٩.

حين نقتربُ من الكلمات بنيَّة الاستماع إلى "الكلمة"،

ينبغي أن نخلَصَ إلى أنَّ هدفَنا هو أكثر من مجرَّد الفهْم العقليِّ؛ فبينما يجب أن نعمل ونصلِّي وننتظر من أجل الفهْم، علينا ألَّا نتعامل معه بوصفه الجائزة الكُبرى، فكلَّما طلَبنا الكتاب المقدَّس أكثر، وجبَ علينا حينها أن نُحضر أنفسَنا إليه أكثر، وحينها تتَّسع دائرةُ "الأدوات" التي نستخدمُها في التفسير، فنحتاج ليس فقط إلى معجم مفهرس وقاموس للكتاب المقدَّس، بل أيضًا إلى اتِّضاع وخضوع وثقة ورجاء. فباستخدام أذهاننا وقدراتنا المنطقيَّة، نُحضرُ قلوبَنا وأحلامنا وتصوُّراتنا، وكلَّ الأجزاء المنيرة والمظلمة في شخصيَّاتنا. فإذا أخضعنا أعمقَ أجزاء نفوسِنا لاستماعنا، فلدينا كلُّ الثقة بأنَّ الله سيكشفُ أعمق أجزاء نفسِه إلينا.

الأفكار الأساسيَّة والافتراضات، أو كيفيَّة القضاء على القصَّة

بوصفي نتاجَ منظومةِ المدرسة الحكوميَّة في المركز الفكريِّ والثقافيِّ لبيورين (Burien)، واشنطن، كان عليَّ أن أقرأ الكثير من الأدبيَّات الكلاسيكيَّة في المرحلة

الثانويَّة. وكان محورُ كلِّ تلك الواجبات المنزليَّة هو اكتشاف ''الفكرة الأساسيَّة'' لكلِّ عمل، فكنَّا نبحث في صفحات ''موبي ديك'' (Moby-Dick) و''لتقتلَ الطائر المحاكي'' (To Kill a Mockingbird) و''آمال عظيمة'' (Great Expectations)، مُمحِّصين الحوارَ والشخصيَّاتِ والحبكَ الدراميَّ حتَّى نكتشف تلك الشذرة الذهبيَّة للفكرة الأساسيَّة، وأصبحَ الدرسُ الأخلاقيُّ المركزيُّ في القصَّة هو الكنزَ الذي نبحث عنه في القراءة، وحين نجدُه نكون قد فهمنا الكتاب. وحتَّى في عزمي الحثيث للحصول على أعلى العلامات، كان هناك سؤال متمرِّدٌ يخطرُ ببالي أحيانًا: إنْ كنَّا نقرأ فقط للعثور على ''الفكرة الأساسيَّة''، فما فائدة القصَّة؟ فبدلَ تمضية ساعاتٍ وساعاتٍ في كتابة ''لتقتلَ الطائر المحاكي''، لماذا لم تكتب هارپر لي (Harper Lee) مُلصقًا صغيرًا يقول: ''العنصريَّة سيِّئة، وعلى الصالحين محاربتها''؟ وحينَها كانت العنصريَّة ستتوقَّف إلى الأبد! وقتَها كنتُ أفهم أنَّ الأدبيَّات هي دروسٌ أخلاقيَّة مُغلَّفة في قصَّة،

والقصَّة هي التغليفُ اللامع الذي نتخلَّصُ منه بُغية الوصول إلى الفكرة الأساسيَّة١٠، وقد رأيتُ كثيرًا الاستراتيجيَّات التفسيريَّة نفسها في قراءة الكتاب المقدَّس وتعليمه، فيكون هدفُنا في تفسير القصَّة هو العثور على المبادئ، وهي المسائل التي يمكن إثباتُ صحَّتِها أو خطئها، والتي يمكن حينَها تطبيقُها على الحياة.

فمثلًا حين نقرأ قصَّة داود وجليات، يمكننا تقطيرُ القصَّة إلى الجوهر الأساسيّ: الله يأخذ جانبَ الصغير، ويصبحُ هذا المبدأ أداةً متاحة يمكن تطبيقُها على الكثير من العوائق التي نواجهُها في الحياة، وهذا المبدأ بسيط ويسهلُ التحكُّم فيه، ويصبح حينَها مفتاحًا أساسيًّا لفتْح أيِّ بابٍ تقريبًا، ولا يهمُّ بعدها المكانُ الذي حصلنا منه على المفتاح أو مَن صنعَه، فلم يعُد سياقُ القصَّة ضروريًّا بمجرَّد أن نكون قد استخلصنا المبدأ، ويصبح سياقُ القارئ هو الأولويَّة، وحينها يمكننا كتابةُ المبدأ على بطاقةٍ صغيرة، ونغلق الكتاب المقدَّس؛ لأنَّنا لا

نحتاجُ إليه لاحقًا.

الاستماع

على الجانب الآخر، بدلَ محاولة استخلاص المبادئ وإخراج الله من الكتاب المقدَّس، ماذا لو سعينا لأن نُؤخذَ إلى داخل الكتاب المقدَّس؟ أريدُ أن أجدَ مكاني في القصَّة الكبيرة، لا أن أستخلصَ قطعًا من القصَّة، سامحًا للقصَّة الكبرى بأن تعيد كتابة قصَّتي أنا، ولذلك تجذبُني طرقُ الاستماع التي تساعدُنا لنجد طريقَنا إلى الكتاب المقدَّس ولنلتقي الله الحاضر حقًّا؛ فهناك طرقٌ تركِّزُ على الحديث إلى الله باستخدام كلمات الكتاب المقدَّس بوصفها نقطة بداية لتلك المحادثات، أي يصبحُ الكتاب المقدَّس صلاةً.

صلاةُ المزامير. إحدى طرق الاستماع إلى الكتاب المقدَّس هي التقليدُ القديم من صلاة المزامير. وقد شكَّلتْ هذه الممارسةُ إيقاعات المجتمعات الرهبانيَّة مدَّة ألف وسبع مئة سنةٍ بينما تبع رجالٌ ونساءٌ المزامير متابعةً مستمرَّة، مُغنِّين ومنشدين إيَّاها يومًا تلو الآخر،

أسبوعًا تلو الآخر، وعامًا تلو الآخر. وأفضلَ عنوانٍ قرأتُه عن هذه الممارسة هو: ’’كلماتٌ من الله، كلماتٌ إلى الله‘‘.

ونحتاج نحن أحيانًا لأن نبدأ بكلماتِ آخرين كي نجد كلماتنا الخاصَّة، وصلاةُ المزامير هي إحدى طرق صلاة كلمات الآخرين لنجد صلواتنا، فندخلُ في مواجدةٍ لتسبيحات كُتَّاب المزامير واحتفالاتهم ورثائهم وألمهم، آخذين اختباراتهم وصراعاتهم إلى نفوسِنا، ومقدِّمين أوضاعَنا وفرحَنا وألَمَنا إلى الله بتلك الكلمات. وفي تكراري لكلماتهم، كثيرًا ما أجدُ نفسي في محادثة مباشرة إلى الربِّ، والأكثر من ذلك تُعدُّ صلاةُ المزامير تقديمَ الكلمات الموحى بها من الله مرَّة أخرى إليه، فإذا كنتَ واحدًا من أولئك الذين لا يعرفون ما يقولونه في الصلاة، فليس هناك مكانٌ للبدء أفضل من صلاة كلمات الله نفسها. فلتشكِّلِ الكلماتُ التي تنفَّسها الله صلواتِنا.

صلاة الحواسِّ. طريقةٌ أخرى تركِّزُ على المحادثة إلى

الله بواسطة الكتاب المقدَّس هي أسلوبُ إغناطيوس في قراءة الكتاب المقدَّس، وإغناطيوس لويولا (Ignatius Loyola) هو مَن أسَّس في القرن السادس عشر الرهبنةَ اليسوعيَّةَ في الكنيسة الكاثوليكيَّة، وطوَّر أسلوبًا مُبدعًا لقراءة الكتاب المقدَّس أطلَق عليه اسم ''صلاة الحواسِّ''١١، وهو تدريبٌ على الاستخدام المُصلّي للتخيُّل.

في هذه الطريقة تغمسُ نفسَك في قصَّة من قصص الإنجيل، راجِعًا مباشرةً إلى فلسطين القرن الأوَّل. وباستخدام كلِّ إمكاناتك التخيُّليَّة تشعرُ بحرِّ الصحراء، وتشمُّ التراب من حولك، وترى الشخصيَّات وتسمع أصواتهم، فلا تدرِسُ الكلمات والشخصيَّات بقدر ما تحاول دخولَ عالَمِهم، فترى التجاعيد على وجوهِهم، وتشعرُ بمخاوفهم وتختبرُ التوتُّرات ما بين الناس وتتبنَّى أسئلتهم كأنَّها أسئلتك أنت، وبعد أن تكون قد تشبَّعتَ في المشهد تشبُّعًا عامًّا، تدخلُ في حديثٍ مع يسوع كما لو كنتَ شخصيَّةً في القصَّة.

فلنجرِّبْ هذا. لنفترضْ أنّك تريد دخول القصَّة التي في مرقس ٩ حيث يقابلُ يسوعُ أبًا يعاني ابنُه نَوباتِ صَرَعٍ حادَّة، فتُصلِّي من أجل انفتاح، ثمَّ تسلِّطُ ضَوءَ تخيُّلكَ على وجه الأب المُضطرب وعلى وجوه الكتبة الموبِّخة وعلى وجوه التلاميذ المرتعبة، وتشمُّ رائحة الجمهور المتزاحم حولَ الولد، وترى الولدَ المسكين ينتفضُ على الأرض وعيناه غائبتان، وترى دوَّامات التراب حوله، وتشعرُ بألمه وخوفه، وتسمعُ لهاث المُشاهدين، وتستشعرُ الرجفةَ في صوتِ أبيه حين يتوسَّل إلى يسوع قائلًا: ''أومن! فأعِن عدم إيماني''.

ثمَّ ترى يسوع يقتربُ من الولد، ولا يزال وجهُه يلمعُ من تجليه على الجبل، ويتحدَّث بسلطان لا مثيل له، ويزفرُ الولدُ ويخور جسمُه، وتصبحُ على يقينٍ بأنَّه مات، لكنَّ يسوع يأخذ الولدَ بيده ويُعينه على الوقوف، وتنفجرُ حياةٌ جديدة، وتشعرُ بدفء أياديهما المتشابكة، ويخترقُ قلبَك فرحٌ واطمئنان بينما يتعانقُ الأب والابن.

والآن، دون تركْك ذلك المشهد الدراميَّ، تتفاعلُ مع

يسوع، ربَّما توجدُ في القصَّة شخصيَّة واحدة أكثر من باقي الشخصيَّات تستطيع أن ترى نفسَك فيها، وفي هذه الحالة تطرحُ الأسئلةَ التي يمليها اختبارُ تلك الشخصيَّة، فإذا تعاطفتَ مع الأب قد تسأل في حضور يسوعٍ عن مكان الإيمان في حياتك، وعن مكانِ الريبة والشكّ. أو ربَّما تتعاطف مع الابن، وتسأل عنَ أماكن الألم، وعن الأمور التي تخاف منها، وإلى كيفيَّة احتاجك إلى الشفاء والحياة الجديدة. ثمَّ تستمع إلى ردِّ يسوع، إذا تحدَّثَ، وإلى أقواله، وإلى نغمة صوته، وإلى تعابير وجهه (ربَّما ابتسامته)، ما إذا بدا شَفوقًا. وأخيرًا تسأل عن الشعور الذي انتابَك بينما كنتَ تستمع إليه.

في قراءة قصَّة من قصص الإنجيل بأسلوب إغناطيوس لا نتعامل مع إعادة البناء التخيُّليِّ بوصفه امتدادًا للكتاب المقدَّس، وينبغي أن نحترس ونزن أيَّ شيء نسمع يسوع يقوله مقابِل اتِّزان كل الشهادة الكتابيَّة، والجماعة، والتمييز المُصلِّي، فما نتخيَّلُه في مشهدٍ ما يميل إلى كَشْف أمورٍ عنَّا أكثر من كشْف

أمور عن الله، لكنَّ هذا الخبر سارٌّ إذ يمكن لتلك الإعلانات الشخصيَّة أن تكون أساسًا لتفاعلات مثمرةٍ مع الربِّ في الصلاة.

القراءة الربَّانيَّة (Lectio Divina). إنَّ ممارسة "القراءة الربَّانيَّة" هي ما أعاد الحياةَ لقراءتي التأمُّليَّة للكتاب المقدَّس؛ فهي تأخذ وحي الكتاب المقدَّس على محمَلِ الجِدِّ حتَّى تعلن أنَّ لكلِّ كلمةٍ ولكلِّ حرفٍ ولكلِّ خطٍّ مصدرَه الأصليَّ في الله، فتلك الكلمات والأحرف ليست عالقةً في الماضي، لكن لأنَّها ممتلئة بالحياة من الروح القدس، فهي وسيلة لتواصل الله معنا اليوم. فالقراءة هنا تستمعُ عبْر الكلمات القديمة بحثًا عن كلمةٍ جديدة، وتُعزَى "القراءة الربَّانيَّة" إلى أحد رهبان القرن الثاني عشر يُدعى غويغو الثاني (Guigo the Second) الذي وضع الصياغة الكلاسيكيَّة لها، والتي تعني حرفيًّا "القراءة المقدَّسة".١٢ والفكرة الأساسيَّة هي أنَّه بالاستقرار في نصٍّ ما وقراءته ببطء عدَّة مرَّات، قد يعطيك الروحُ القدس كلمةً معيَّنة أو جملة أو فكرة ما

في تلك الفقرة وتصبح هذه الكلمة أو الجملة أو الفكرة أساسًا للصلاة والتفكّر، وأفضِّل صياغة الأمر على النحو التالي: في الاستماع إلى الكتاب المقدَّس قد تجدُ أنَّ أمرًا ما فيه ينشدُ لك، فتَنسابُ الكلمات في تتابعٍ سَلِس غير مفاجِئ إلى أن تقفزَ إليك كلمةٌ أو عبارةٌ فجأةً، وتبدأ الملائكة في الغناء، وهذا دليلٌ أنَّ الله يتحدَّث إليك، فتتمسَّك بها تمسُّكًا تامًّا. و"القراءة الربَّانيَّة" تدعك تتَّسعُ بذلك الاختِبار، إذ تقلِّبُ الكلمة في ذهنك، مستمعًا إليها ومصليًا بها، وتنجذب بواسطتِها إلى محضر الله.

والخطوات الأربع في منهاج غويغو باللاتينيَّة هي: "القراءة" (Lectio)، و"اللهج" (Meditatio)، و"الصلاة" (Oratio)، والتأمُّل (Contemplatio). وأودُّ إعادة تقديم تلك المراحل في صياغات تختصُّ بالاستماع.١٣

استمع. اقرأ النصَّ ببطء مرَّتين. اقرأه بصوتٍ مسموع ناطقًا به نُطقًا دقيقًا، متوقِّفًا ما بين الجُمل، أي تقرأه

مثلما تقرأ خطابًا غراميًّا، مُحاولًا الإلمامَ بكلِّ نغمةٍ ورنَّة، وبكلِّ المشاعر في الكلماتِ وما حولها، وبكلِّ لحظات الصمت الحافلة بالمعاني ما بين الكلمات والجُمل، آخذًا الكلمات إلى قلبِك. وإذا أنشدَ أيُّ أمرٍ لك نشيدًا خاصًّا، دوِّن ذلك دون حُكمٍ أو تحليل.

اسأل. اقرأ الفقرة مرَّة أخرى، منتبهًا ثانيةً إلى أيِّ أمرٍ يُنشد لك، متسائلًا ما إذا كانت هناك كلمة أو عبارةٌ تبرز بروزًا خاصًّا؟ أمرٌ يبدو غامضًا أو جذَّابًا ويسترعي انتباهَك؟ في هذه الحالة، أمضِ وقتًا مع هذا الأمر، متفكِّرًا فيه وفي سبب أهمِّيَّتِه البادِية، وهذا الوقت ليس وقتَ تدريبٍ فكريٍّ أو قراءة تفسيرات، بل هو وقت تفكيرٍ شخصيٍّ، واسأل نفسك كيف يتحدَّث هذا الأمر إلى حياتِك؟ هل توجدُ فِي هذا الأمر دعوةٌ لك؟

أجب. اقرأ مرَّة أخرى، مصلِّيًا بالكلمات، والآن تفاعَل مع الربِّ بما قرأتَه، فإذا كانت هناك كلمة أو عبارة أنشدَتْ لك، فاطلُب فهمًا، وإذا ظهرتْ دعوةٌ ما، قدِّمْها إلى الله واستمع منصتًا إلى ردِّه، وإذا طَفتْ إلى السطح

علاقةَ ما أو صراعٌ ما أو جانبٌ مُظلِمٌ من حياتك، فلا تمنعْه، وكُن أمينًا بقدر الإمكان، عالمًا أنَّ الربَّ يفحص قلوبَنا ويعرفنا أفضل ممَّا نعرف أنفسَنا، فهل هناك كلمة جديدة يتحدَّث بها إليك الآن؟

كُن. كلمات الكتاب المقدَّس هي نوافذ يُقصد بها أن تُحضرَنا وجهًا لوجه إلى ''الكلمة''- إلى ما وراء الكلمات، ففي هذه المرحلة الأخيرة، ابقَ في محضر الله، ودع الكلمة التي سمعتَها تطيرُ بك إلى حِضنِه، واجلِسْ هناك في صَمتٍ، مستَمتعًا به، موجودًا معه دون الشعور بضغط الاحتياج إلى التحدُّث أو إلى عمل أيِّ شيء، ودع الله يترنَّم بترنيمته إليك.

تُذكِّرُنا ممارسة ''القراءة الربَّانيَّة'' أنَّنا لا يمكن أن ننتهي بتاتًا من الاستماع إلى الكتاب المقدَّس؛ لأنَّ الله لا يكفُّ عن التحدُّث إلينا بواسطتها. ومثلما يمكننا تذوُّق مقطوعة من الموسيقا الكلاسيكيَّة مرارًا وتكرارًا، مستمعين إلى كلِّ أجزاء الآلات الموسيقيَّة والطبقات والخطوط اللحنيَّة، وسامعين شيئًا جديدًا في كلِّ مرَّة

نستمع فيها إلى المقطوعة نفسها، يمكنُنا أيضًا العودة مرارًا وتكرارًا إلى فقرةٍ من الكتاب المقدَّس؛ لأنَّ غِناها وجمالَها لا ينفدان، ولأنَّ الله يُظهِر لنا أمورًا جديدةً ويتحدَّث إلينا في كلِّ مرَّة بكلماتٍ جديدة، وحينَها يمكننا أخْذُ ما سمعناه لنحملَه معنا طَوالَ اليوم، مثل أغنيةٍ نريدُها أن تعلقَ في أذهانِنا، فتظلُّ تُعزفُ وتُنشدُ مرَّة تلو الأخرى مُذكِّرةً إيَّانا بعِمَّانوئيل، الله معنا.

شخصيَّة المستمع

الاقتراب إلى الكتاب المقدَّس اقترابًا مستمعًا هو أمرٌ شخصيٌّ جدًّا، ولا يستبعدُ صور القراءة الأخرى، لكنَّه يعترفُ أنَّ أفضلَ نَوع من قراءة الكتاب المقدَّس يحدث حين تُختطفُ أذهانُنا إلى محضر الله وتشتعل قلوبُنا بما نسمعُه، ولذلك تُبهِرُني الكيفيَّة التي كان يفهم بها آباءُ الكنيسة في القرنَين الرابع والخامس تفسيرَ الكتاب المقدَّس، فقد كانوا يرفضون فَصْلَ المسعى الفكريِّ عن المَسعى الروحيِّ، بل كانوا مُصمِّمين على أنَّ أهمَّ مكوِّنٍ في القراءة الجيِّدة للكتاب المقدَّس هو شخصيَّة

المستمع.

يشرحُ الأستاذ كريستوفر هول (Christopher Hall) أنَّ ‘‘الآباء كانوا يحسبون الكتاب المقدَّس كتابًا ذا قداسةٍ ينفتحُ إلى أولئك المتقدِّمين في القداسة بنعمة الروح وقوَّته، وشخصيَّة المُفسِّرِ ستحدِّدُ بطرقٍ كثيرة ما يُرى وما يُسمعُ في النصِّ نفسِه’’. فمثلًا، صرَّح أثناسيوس (Athnasius) أسقف القرن الثالث بأنَّ ‘‘فحصَ الكتاب المقدَّس والفهمَ الصحيح له [يتطلَّبان] حياةً صالحة ونفسًا نقيَّة..فلا يمكن أن يفهَمَ شخصٌ تعاليم القدِّيسين ما لم يكُن لديه ذهنٌ نقيٌّ، وما لم يكُن عازمًا حقًّا على محاكاة حياتهم محاكاة حقيقيَّة’’.١٤

كان الآباء ليصرِّحوا أنَّ نَقْص فهمِنا يأتي من رفْضنا أن نعيشَ بحسب ما نقرأه، ليس أنَّ أذهاننا فارغة، بل أنَّ قلوبَنا مغلقة. ويردِّدُ ذلك صدى ما قاله يسوعُ نفسُه: ‘‘إنْ شاء أحدٌ أنْ يعملَ مشيئتَه [أي مشيئة الله] يعرفُ التعليم، هل هو مِن الله، أمِ أتكلَّم أنا مِن نفسي’’ (يوحنَّا ٧: ١٧)، فتعهُّدنا أن نعمل بناءً على ما نسمعُه هو ما

يؤكِّدُ أصالةَ حقِّ كلمات يسوع، فسببُ عدم فهمِنا هو أنَّنا لا نطيع، ويصيغ هذا الأمرَ يوجين پيترسون قائلًا: ”إنَّ أهمَّ سؤالٍ نطرحُه بشأن النصِّ، ليس هو «ماذا يعني هذا؟» بل «ماذا يمكنني أن أطيع؟» فعملٌ بسيط من أعمال الطاعة سيفتحُ حياتَنا إلى هذا النصِّ أسرع كثيرًا من أيِّ عدد من الدراسات الكتابيَّة والقواميس والتفاسير“.١٥

تُمنَحُ الحِكمة في طريق الطاعة، فليس إعلانُ أنَّ الكتاب المقدَّس مُلهَمٌ وموحى به هو الأمر نفسه مثل عيْش حياةٍ مُلهَمة بالكتاب المقدَّس. فحين نهدفُ إلى قراءة ليس فقط الناموس والأنبياء والرسائل، بل لأن نصبح ”رسائل المسيح“، ”معروفة ومقروءة من جميعِ الناس“ (٢كورنثوس ٣: ٢-٣)، سننالُ حينَها دخولًا إلى معنى الكلمة المقدَّسة، فينبغي أن نكونَ مستعدِّين أن نستمعَ، حتَّى حين يكون الأمر صعبًا، فقد نجتهدُ على المستوى الفكريِّ لنفهمَ ما يقصده يسوع حين يقول: اغفروا ”لا...إلى سبع مرَّات، بل إلى

سبعين مرَّة سبع مرَّات" (متَّى ١٨: ٢٢)، لكنَّنا لن نكونَ مستَمعين إلى الكتاب المقدَّس استماعًا حقيقيًّا إلى أن نسعى سعيًا حقيقيًّا لتقديم الغفران إلى الشخص الذي جَرَحَنا جَرحًا عميقًا.

خاتمة: ارتِجالُ الكلمة المقدَّسة

نعلمُ أنَّنا استمعنا جيِّدًا إلى الكلمة المقدَّسة حين نُستدعى بعد ذلك إلى التنفيذ، فلا نهدأ ونستعدُّ لننامَ في الكتاب المقدَّس، بوصفه أغنيةِ هادئةً لما قبلَ النوم، لكنَّنا نقفزُ متيَقِّظين مدعوِّين لنأخذَ ما سمعناه "عزفِه سماعيًّا" وممارستِه في حياتنا.

قبل سنواتٍ عدَّة كنتُ أعزفُ آلةَ "ألتو ساكسوفون" في فريق موسيقا الجاز في المدرسة الثانويَّة، ولا تزال لديَّ ذكرياتٌ حلوة ومرَّة من قيادة السيَّارة في أوقات الصباح المظلِمة الضبابيَّة في مدينة سياتل إلى حجرة الموسيقا حيث كانت مجموعة من المراهقين بالكاد مستَيقِظينَ يحاولون عَزْفَ الموسيقا معًا قدرَ المستطاع. كنتُ ماهرًا في العَزْف بحسب النوتة الموسيقيَّة، لكنْ

حين كانَ الأمر يتعلّق بالعزف السماعيِّ (الارتجال) كنتُ أسوأ ما يمكن. والعزفُ السماعيُّ هو المضيُّ بخيال وشجاعة لابتكار أمر جديد، أي تكوين موسيقيٍّ خاصٍّ. وحين كنتُ أَحاولُ الترديد كنتُ إمَّا أعزفُ مجموعةً عشوائيَّةً مشوَّشة من النغمات، وإمَّا كنتُ أكرِّرُ ما عزفَه شخصٌ كان قبلي.

إنَّ هدف ''الارتجال'' الأسمى هو أن تخلِقَ شيئًا جديدًا لكنْ في إطار الحدود الموسيقيَّة المرسومة، فلا تقتبس ممَّا جاءَ قبلك اقتباسًا حرفيًّا، ولا تعزف نغمات عشوائيَّة، وبينما يمكنُك دفْع الحدود موسِّعًا مدى العزْف، يجب أن يكون عزفُك المنفرد منطقيًّا في إطار المقطوعة المعزوفة، فليس الارتجال عزفًا حُرًّا دون قواعد أو حدود لمجموعة متناثرة من المراهقين مع آلاتهم، لذلك فأفضل العازفين المرتجِلين هم أيضًا أفضل المستمعين. فإذا أمضَيتَ بعضَ الوقت في نادٍ لموسيقا الجاز، للاحظتَ أنَّه في أثناء العزف المنفرد لأحد أفراد الفريق، يستمعُ باقي الأفراد، إذ يعرفون أنَّه

حين يأتي دورُهم يمكن أن يبتكرَ كلّ منهم أمرًا جديدًا، لكن هذا الجديد ينبغي أن يتلاحَمَ مع ما أتى قبله، فيجب على المقطوعة كلّها أن تنساب انسيابًا منطقيًّا سَلِسًا.

إنَّ دعوتَنا هي أن نستمع إلى الكتاب المقدَّس، لا سِيَّما إلى قصَّة المسيح المنسوجة في صفحاته، ثمَّ نرتجلَ بما أعطِينا، ونقيسُ قدراتنا السماعيَّة بالجودة والأمانة اللتين نعزف بهما، فنستمع ليس فقط للامتلاء بالمعرفة، ولا نتعامل مع الكتاب المقدَّس بوصفه مجرَّدَ نوتة موسيقيَّة نتدرَّب عليها مرارًا وتكرارًا لنحفظها؛ فالأجزاء الرئيسيَّة في موسيقا الكتاب المقدَّس هي النغمات والإيقاعات التي تدفعُنا إلى الأمام إلى تكويناتنا الموسيقيَّة الأمينة والمُبدِعة الخاصَّة بنا، فينسابُ عزفنا الارتجاليُّ ممَّا سبق أن سمعناه. وبرَنين نغمات الكتاب المقدَّس في آذاننا، نتحرَّك إلى الأمام خالقين أمرًا جديدًا مُثيرًا، أو مقطوعةً محفِّزة لكلِّ مَن يستمعُ إلينا.

الفصل الخامس

الاستماع إلى الخليقة

من غيرِ المُرجَّح أن يُقال عنِّي بعد وفاتي إنِّي كنتُ ''رجلَ الجبال''؛ فلِحيةُ جون موير (John Muir) عالِمِ التاريخ الطبيعيِّ وحدَها قادرة على العيْش في البرِّيَّة أكثر ممَّا أقدرُ أنا. في إحدى المرَّات، وفي أثناء عاصفةٍ هائجةٍ في سلسلة جبال ''سييرا''، صعد موير إلى قمَّة إحدى أشجار التنوب ليشعرَ بإحساس أن يكون شجرةً وسط رياح عاصفة. وفي محاولتي لمنافسته، توغَّلتُ في الغابة توغُّلًا عميقًا في آخر مرَّة ذهبتُ فيها للتخييم حتَّى وصلتُ إلى منطقةٍ بالكاد تصلُ إليها شبكة هاتفي الجوَّال، لكنِّي أدافع عن هذا الأداء المُخجل بقولي إنِّي نشأتُ في الشمال الغربيِّ، وكانوا يحذِّروننا ألَّا نبتعد إلى الغابة وإلَّا فسيأكلنا ''ذا القدم الكبيرة''.

حين أجتمعُ مع أصدقاء الجامعة، يحلو لهم تذكيري بقصَّة فرشاة الأسنان، فقبل بضع سنوات ذهبنا كلُّنا

للتخييم في ‘‘غابة أنجلوس الوطنيَّة’’ (Angeles National Forest) في الجبال أعلى مدينة لوس أنجلوس، وأعتقدُ أنَّها كانت ثاني رحلةِ تخييم في حياتي، وكان أغلب المجموعة قد ذهبوا عائدين إلى خِيامهم بعدَ العشاء حين نادَتْ صديقتُنا دارسي من داخل خيمتِها نداءً منذرًا قائلةً: ‘‘ما ذلك الصوت؟’’، فانضمَّ إلى السؤال باقي الأصدقاء من داخل خيامِهم قائلين: ‘‘هل ذلك مُحرِّك؟ هل هناك سيَّارة هنا؟ ماذا يحدث؟’’، فوقفتُ خارجًا في الظلام ونظرتُ حولي صارفًا نظرًا عن الموضوع وقلتُ: ‘‘لا، ما مِن أحدٍ هنا، ماذا تسمعون؟’’، فشرح شون زميل غرفتي في الجامعة قائلًا: ‘‘إنَّه طنينٌ مثل طنينِ المحرِّك’’، فتمتمتُ قائلًا: ‘‘آه، تلك فرشاة أسناني’’، ويبدو أنِّي لم تصلني الرسالة التي تشترطُ أنَّ معدَّات التخييم المطلوبة لا تتضمَّن فرشاة أسنان كهربائيَّة.

حين أكتبُ فصلًا عن الخليقة، لا أفعل ذلك بوصفي مناديًا بالمذهب الطبيعيِّ أو كأنِّي القدِّيس فرنسيس في

هذا الزمن، ولا توجد سناجب أو عصافير تعشِّش على كتفي بينما أكتب هذا، بل أحسبُ نفسي أقربَ إلى الشخصيَّة الكرتونيَّة هومر سيمبسون، الذي يتخيَّل نفسَه ينتقلُ إلى الغابة ويحتفظ بسجل لأفكاره هناك، فيكتب: ’’كم أودُّ لو كنتُ أحضرتُ التلفاز! كم أشتاقُ إليه!‘‘.

لم يأتِ اهتمامي بهذا الموضوع بينما كنتُ منتشيًا على قمَّة جبل ناظرًا إلى الأفق الفسيح في جميع الاتِّجاهات، ولا بينما كنتُ أقتفي بإصبعي أثر الخطوط الموجودة على ورقة خريفيَّة داكنة، بل أصبحتُ منفتحًا إلى القوَّة والعجب الموجودين في العالم الخارجيِّ بينما كنتُ في غرفتي أقرأ كتابًا- كتابًا عتيقًا يقول أمورًا من قَبيل:

’’إذا أرى سماواتك عملَ أصابعك، القمرَ والنجومَ التي كوَّنتَها، فمَن هو الإنسان حتَّى تذكرَه؟ وابنُ آدم حتَّى تفتقدَه؟‘‘ (مزمور ٨: ٣-٤).

’’صوتُ الربِّ على المياه. إله المجد أرعَدَ. الربُّ فوقَ المياه الكثيرة. صوتُ الربِّ بالقوَّة. صوتُ

الربِّ بِالجلال. صوتُ الربِّ مُكسِّر الأرْز، ويُكسِّر الربُّ أرْزَ لبنان ويُمرِحُها مثل عِجْل. لبنان وسريون مثل فرير البقر الوحشيِّ. صوتُ الربِّ يقدح لهب نار. صوتُ الربِّ يزلزل البرِّيَّة. يزلزل الربُّ برِّيَّة قادش. صوتُ الربِّ يُولِّدُ الإيَّل، ويكشف الوعور، وفي هيكله الكلُّ قائلٌ: «مجدٌ»'' (مزمور ٢٩: ٣-٩).

''ارفَعوا إلى العلاء عيونَكم وانظروا، مَن خلَق هذه؟ مَن الذي يُخرِج بعددٍ جُندَها، يدعو كلَّها بأسماء؟ لكثرةِ القوَّة وكونِه شديدَ القدرة لا يُفقد أحدٌ'' (إشَعياء ٤٠: ٢٦).

''انظروا إلى طيور السماء: إنَّها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماويُّ يقوتُها. ألستم أنتم بالحريِّ أفضل منها؟ ومَن مِنكم إذا اهتمَّ يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة؟ ولماذا تهتمُّون باللباس؟ تأمَّلوا زنابقَ الحقل كيف تنمو! لا تتعبُ ولا تغزلُ. ولكن أقولُ لكم: إنَّه ولا

سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإنْ كانَ عشبُ الحقل الذي يوجَد اليومَ ويُطرح غدًا في التنُّور، يُلبِسُه الله هكذا، أفَلَيسَ بالحريِّ جدًّا يُلبِسُكم أنتم يا قليلي الإيمان؟'' (متَّى ٦: ٢٦-٣٠).

''إذْ معرفةُ الله ظاهرةٌ فيهم، لأنَّ الله أظهَرَها لهم، لأنَّ أمورَه غيرَ المنظورة تُرى منذ خلْق العالم مُدرَكةً بالمصنوعات، قدرتَه السرمديَّة ولاهوتَه'' (رومية ١: ١٩-٢٠).

كلَّما تريَّثتُ في قراءة نصوص كهذه، ضاقَ صَدري من السعي نحو الله بالكلمات المكتوبة فقط، وتوقَّعتُ أنَّ لديه المزيدَ ليقوله لي؛ فالكتاب المقدَّس لا يقودُنا في النهاية إليه بل يوجِّهُنا إلى خالقٍ وفادٍ ورازقٍ موجودٍ وفعَّالٍ في الأمور اليوميَّة. وفي إعادة صياغةٍ لما قاله إبراهام كيپر (Abraham Kuyper): حين ينظرُ هذا الخالق إلى كلِّ بُقعة من الكون يمكنه أنْ يقول ''هذه البقعة ملكي''.

سبقَ أنِ التَقَيتُ الإلهَ البارعَ في الكلمات، لكنِّي كنتُ

أقلّ معرفة بالإله البارع في صُنْع كل متر مكعَّب من السماء والأرض، ثمَّ صادفتُ التقليدَ السِّلتيَّ القديم الذي يقدِّم ليس نصًّا واحدًا بل نصَّين مقدَّسين للدراسة: الكتاب المقدَّس، وما يُطلقون عليه اسم ''الكتاب الكبير'' أي الخليقة. ومع أنَّ لديَّ أرففًا وأكوامًا من كتب اللاهوت في شقَّتي، فقد كشفتْ تلك اللحظة فجوةً هائلةً في مكتبتي- فجوةً في حجم الخليقة كلِّها، وعلَّمني القدِّيس برنارد كلير□و (Saint Bernard of Clairvaux) أنَّك ''ستجدُ في الغابات أمرًا أكثر من ذاك الذي في الكتب، وستعلِّمُك الأشجارُ والأحجار ما لن تتعلَّمَه من الخبراء قَطّ''[١]، فبينما تتحدَّث الكتبُ عادةً نثرًا، تتحدَّثُ الخليقةُ شِعرًا، فإذا بذلنا الوقتَ للاستماع، قد نكتشف أنَّنا محاطون بأمثالٍ واستعاراتٍ وأناشيدَ تتحدَّى مهارة أفضل شُعرائنا المُلهِمين.

أعطاني لاهوتي مسوِّغًا رفيعًا لعدم انبهاري بالبراعة الفنِّيَّة المحيطة بي، وهنا أكشفُ ميولي المُصلِحة حين أقول إنِّي أومن بأنَّ القلبَ البشريَّ المتمرِّد يميلُ إلى

عبادة الأوثان، إذ نميلَ إلى أخذ أيِّ شيء جيِّد وجعله جيِّدًا أكثر من اللازم، مُحوِّلين مخلوقاتٍ إلى آلهة نعبدُها، وبينما يقولُ الرسولُ بولس إنَّ طبيعة الله مُعلَنة في الخليقة في رومية ١، يربطُنا جميعًا بعد ذلك بأصحاحَين بأغلال الخطيَّة وقدرتها على تشويه أذهاننا وقلوبنا. فمن جهة نكونُ قد وُلِدنا لنسبِّح الخالق بواسطة مخلوقاته، لكنَّنا نجدُ أنفسَنا نسبِّح المخلوقات ونتناسى الخالق أو نعيدُ صنعه من جديد، وهذه هي جذور عقيدة وَحدة الوجود (Pantheism)- وهي الإيمان بأنَّ كلَّ شيء هو الله- أو وَحدة الموجود (Panentheism)- وهي الإيمان بأنَّ الله هو في كلِّ شيء، وفي عزمي ألَّا أنزلق إلى هذه المنحدرات، ثبَّتُّ عينيَّ إلى الأرض وأغلقتُ أذنيَّ أمامَ المعجزات اليوميَّة من حولي.

لكنْ إذا استخدمتُ اللاهوت لأقيَ نفسي من التلذُّذ بأعمال الله وسماع صوته بواسطتها، يكون هناك أمرٌ منحرفٌ انحرافًا مروِّعًا في تناوُلي للَّاهوت؛ فمن غير المعقول أن ندَعَ آخرين ممَّن لا يتَشارَكون في معتقداتنا

ينالون اختبارًا للطبيعة أعمقَ من الاختبار الذي لنا لأنَّنا نخشى من الهَرطَقات. وبينما يكونُ صحيحًا أنَّ جوهرَ الله لن يوجدَ في تلك الصخرة الموجودة على جانب الطريق، فمن الصحيح أيضًا أنَّه إنْ لم نصرُخْ مُسبِّحين، فالحجارة ستصرخ، ويجب ألَّا يتهلَّل بالخليقة أيُّ أحد أكثر ممَّا يتهلَّل المسيحيُّون بها، ويجب ألَّا يقف حاميًا للبيئة أيُّ أحد أكثر ممَّا يفعل المسيحيُّون؛ لأنَّنا التقَينا ملكَ الخليقة وعروشَه متناثرةً في كلِّ مكان.

بينما أتَّفقُ مع جون كالـ□ن حين يقولُ إنَّه ‘‘من اللائق أن يثقبَ أذنَيه إلى «الكلمة»، فذلك أنفعُ’’[2]، أتحمَّسُ أيضًا حين يقول: ‘‘وفي الوقت نفسه، لا نخجلْ من التلذُّذ التقيِّ بأعمال الله المتاحة والظاهرة في هذا المسرح الأروع’’[3]، فحين تتجدَّدُ قلوبُنا وأذهانُنا فينا بسماع البشارة، تُستعادُ كلُّ حواسِّنا ونتمكَّنُ من اختبار تحرُّكات الله في العالم خارجنا اختبارًا واضحًا، فنحنُ نعيشُ في عهد الخليقة الجديدة- العهدِ الذي دُشِّنَ حين خرج رجلٌ من قبرٍ في صباح أحد أيَّام الآحاد، وعيناه

تتأقلمان مع الشمس المشرقة على الأسبوع الجديد، وفي هذه الخليقة الجديدة يُستعادُ البشرُ إلى الغرض الأصليِّ الذي خُلِقوا من أجله، والخليقة نفسُها تتجدَّدُ لتصنع ما صُمِّمتْ لتصنعه، وهو تحديدًا: توجيه البشر إلى الله الذي أتقن العالَمين بكلمته، مكوِّنًا ما هو ظاهر ممَّا هو غير ظاهرٍ.

الاستماع للوصول إلى سرِّ الخليقة

العالم الذي يصنعه الله والكلمة التي ينطقُ بها يعملان معًا ليعلنا السرَّ العظيمَ للخليقة[٤]؛ فالخليقةُ وحدَها تقدِّمُ في أحسن الأحوال اتِّجاهًا عامًّا نحوَ الخالق، و"الكلمة" تعطينا الإحداثيَّات الدقيقة[٥]، ونرى تلميحاتٍ إلى السرِّ في العهد القديم، في كلمة الله الخالِقة في التكوين، وفي الحكمة التي تتَّخذ صورةَ شخص في سِفر الأمثال، لكنَّنا لا نتعلَّم السرَّ تعلُّمًا كاملًا إلَى أن تأتي الصفحاتُ الأولى للعهد الجديد، فإرشادُ النجوم وتوقُّعات الأنبياء، أي العالم والكلمة، قادا حُكماءَ الشرق إلى بيت لحم، حيث وصلوا إلى إدراك أنَّ سرَّ

الخليقة الذي كان خفيًّا ليس معلوماتٍ لكنَّه شخصٌ- شخصُ يسوع المسيح. فقبْل تلك اللحظة كان هو الفاعل في الخليقة، لكنَّه الفاعل غير المعروف، لكن منذ تلك النقطة فصاعدًا لا نفهمُ الخليقة ما لم ندرك أنَّها صُنِعتْ بالمسيح ومن أجل المسيح؛ فهو مصدرُ الخليقة وهو وسيلتُها وهو هدفُها، فهو ""اللوغوس"" (الكلمة)، الحكمة التي بها صُنِع العالم وهو مَن به يُحمَل كلُّ شيء معًا، فهو مكانُ التقاء الكلمة والعالم.

وما إنْ هُمِسَ إلينا بسرِّ الخليقة، يتحرَّرُ كلُّ شيء، فحين نفهمُ أنَّ الله موجودٌ في يسوع المسيح، نبدأ في سماع أصداء صوته في كل مكان، فقد أصبح للخليقةِ وجهٌ وشخصيَّة، وندرك حينَها أنَّ الخليقةَ منذ أوَّل نسمة نتنفَّسُها تُعلِّمُنا عن النعمة، فوراءَ كلِّ المادَّة هناك عقلٌ، ووراءَ كلِّ جمال العالم هناك حكمةٌ، ووراءَ كلِّ المرح والمُتعة اللذين يُرَيانِ في الخليقة هناك محبَّةٌ، ويُطلِق أن. تي. رايت (N. T. Wright) على الخليقة ""شارةً"" أو ""لافِتة""؛ فهي توجِّهنا بكلِّ أمانةٍ بالإشارة إلى

"الخالق" وإلى اليوم الذي فيه ستُنظَم السماءُ والأرضُ عُرسَ أعراس الدهور، فكلُّ أمجاد الخليقة ومعجزاتها وعجائبها هي دقّاتُ طبولٍ متتابعةٌ معلنةٌ قُربَ الاستعلان الكامل ليسوع المسيح، حين سيُصرخُ بالسرِّ من أعلى جبالٍ وفي أعماق البحار.

صوتُ الكون

نعرفُ الكونَ بواسطة الضَّوء، فما يمكنُنا ملاحظتُه يعتمدُ على إضاءة الشمس والنجوم، لكنَّ الكونَ ليس صامتًا، فها كاتبُ المزمور يعلنُ ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة:

"السماوات تحدِّثُ بمجدِ الله، والفَلَك يُخبِرُ بعمل يدَيه. يومٌ إلى يوم يُذيعُ كلامًا، وليلٌ إلى ليلٍ يُبدي علمًا. لا قول ولاً كلامَ. لا يُسمع صوتُهم. في كل الأرض خرَج منطقُهم، وإلى أقصى المسكونة كلماتُهَم" (مزمور ١٩: ١-٤).

يقدِّم هذا المزمور إلينا كونًا يعظُ، فليست الخليقةُ مأدبة لإمتاع أعيُننا فقط، لكنَّها تتحدَّثُ برسائل إلى آذاننا

الداخليَّة. ورُغمَ أنَّه لا توجدُ كلماتٌ مسموعة، فإنَّ منبرَ الكون يقدِّم أقوى المواعظ التي ستسمعُها في حياتك؛ فالخليقةُ حيَّة ومتكلِّمةٌ، ويرنُّ صوتُ الرسائل في السماء وتُسجَّلُ على الأرض، ليس كخرافات أو خريطة الأبراج؛ فهي تتحدَّث في انسجامٍ. سمعَ القدِّيس أغسطينوس الرسالةَ في القرن الرابع:

''لكنْ ما إلهي؟ طرحتُ سؤالي إلى الأرض فأجابت قائلةً: «لستُ الله»، وأعلنتْ كلُّ الأشياء التي على الأرض الأمرَ نفسَه، فسألتُ البحرَ وشقوقَ العُمق والكائنات الحيَّة التي تزحفُ فيها، لكنَّهم أجابوا قائلين: «لسنا إلهَك، اطلُب ما هو فوقنا»، فتحدَّثتُ إلى الرياح العاصفة فأجاب الهواءُ كلُّه وكلُّ ما يعيشُ فيه...«لستُ الله»، وسألتُ السماء والشمسَ والقمر والنجومَ، لكنَّهم أخبروني قائلين: «ولا نحن الله الذي تطلبه»، فتحدَّثتُ إلى كلِّ الأشياء التي حولي، كلِّ ما يمكن استقباله بواسطة الحواسِّ، وقلتُ: «ما دُمتُم لستُم إلهي، فلتخبروني بشأنه،

أخبروني شيئًا عن إلهي»، فأجابوا إجابةً واضحةً: «الله هو ذاك الذي صنعنا»".[٦]

السماوات والأرض والبحار هي جميعها وعَّاظٌ مكرَّسون أمناءُ لأنَّ كلَّ ما يعملونه هو التغنِّي بتسبيحات الخالقِ، فيقفون على منابرهم دون كَللٍ شاهدين عن القوَّة الصريحة والجمال الرائع والرحمة الحانية والإبداع المرح لصانعهم، بل حتَّى الجماد يشهدُ دونَ أن ينبسَ بأيِّ صوتٍ عن ذاك الذي نفخَ حياةً في العالم، ويحفظُ العالمَ لحظة بلحظة.

نطقَ الله فأوجدَ الخليقة، والآن تنطقُ الخليقةُ بوجودِه، وما دامَ الكونُ قد تكوَّن بكلمة الله، فلا ينبغي أن نُدهَشَ من أنَّ عالمه هذا، تمامًا مثل كلمته، يردُّنا ويغذِّينا ويُلهمنا ويعلِّمنا ويعظنا ويدهشنا ويزعجنا ويحرِّكُنا ويعزِّينا، ولأنَّ الخليقة مولودة من حديث الله، فكلُّ استكشافنا ورحلاتنا ودراستنا وتمتُّعنا بالطبيعة هي أعمالٌ من أعمال الاستماع المقدَّس. وقد تقدِّمُ الخليقةُ نفسَها إلينا بوصفها فنًّا لأعيننا، فنعبِّر عن شكرنا

وعِرفاننا لأنَّ "الفنّان" اختار لوحة تقطرُ ألوانًا ونورًا وعجبًا، لكنْ يمكنُنا الوصولُ ببطء إلى فهم أنَّ الخليقة أيضًا هي وليمةٌ تُبهِر آذانَنا الروحيَّة حين نتيح أنفسَنا للرَّسائل التي يهمسُ الله بها بواسطة هذه الخليقة.

عِظة الخليقة

إنْ كان ثورو (Thoreau) قد ذهبَ إلى الغابة عن عمْدٍ، فقد غمستُ أنا نفسي في عالَم الله لأستمعَ عن عمْدٍ أيضًا، إذ أردتُ أن أتيح نفسي لمنبر الخليقة، كي أجلس في كنائس صخريَّة ورمليَّة وعُشبيَّة وأسمع عِظاتِهم، وكما يصيغُها ريتشارد فوستر، أردتُ دراسةَ كتابِ الطبيعة لأكتشف ما قد يعلِّمُ الربُّ بواسطته.[٧]

هناك أمرٌ آخر دفعني لأخطُوَ نحو البرِّيَّة، وهو الإنهاك. فإذا ظننتَ أنَّك تسأمُ من سماع راعي كنيستك وهو يَعِظُ، فلتتخيَّلْ مدى ضَجَر راعي كنيستك من سماع نفسه وهو يَعِظُ، فأن يكون الشخصُ قسًّا لهو دعوةٌ نبيلةٌ حقًّا، لكنَّ من الممكن أيضًا أن تكون أيضًا دعوةً مستنزفةً للنَّفس، ففي بعض الأيَّام تبدو عروسُ

المسيح مثل عروس "فرنكنشتاين" المسخ، وأعرفُ أنَّ البشرَ هم قمَّة الخليقة، وأنَّ اختباراتنا الأكثر امتلاءً بالخليقة تتضمَّنُ الجماعةَ، فالشعورُ بالاقتراب إلى الله في الخليقة أكثر ممَّا هو في الكنيسة هو شعور حقيقيٌّ، لكنَّه جوهريًّا ليس الروحانيَّة الكتابيَّة الكاملة. ومع ذلك، فهناك أمرٌ شافٍ بشأنِ الانسحاب إلى الطبيعة حين تكون الكنيسةُ قد أنهكتْك، فالخليقةُ تسبِّحُ الله حتَّى إنْ لم أستطع أنا. يقولُ جون ميور (John Muir)، الذي جرحتْه الكنيسةُ باكرًا في حياته لكنَّه وجدَ علاجًا في عُزلة الطبيعة، إنَّ "كلَّ شخصٍ يحتاج إلى الجمال مثلما يحتاج إلى الخبز. يحتاجٌ إلى أماكن للَّعب والصلاة حيث يمكن أن تشفيَ الطبيعة وتُبهج وتعطي قوَّة للجسد والنفس".[٨] وقَبْل ذلك بقرون، اعتاد القدِّيس فرنسيس الأسيزيُّ أن يسيرَ في الحقول ويعظَ بالبشارة إلى الأزهار والحيوانات، وأميلُ أنا إلى السماح للأزهار والحيوانات بأن تَعِظَني؛ فعظاتُها لا تصيرَ مملَّة على خلاف عِظاتي.

الخبرُ السارُّ، لا سيَّما لِمَن هم مثلي من النوع غير المُغامِر، هو أنَّ الخليقةَ تحيطُ بنا، فلسنا نحتاج إلى تعقُّب خطِّ سيْر لِويس وكلارك (Lewis and Clark) المستكشفَين الشهيرَين لكي نحصل على نُصح الخليقة. عشتُ مدَّة عشر سنوات في شقَّة على سفوح جبال سان غابرييل (San Gabriel) جنوب كاليفورنيا، وكان مكتبي يطلُّ في بضعة أيَّام من الشتاء على خطٍّ من النخيل على تلالٍ يتناثر عليها الثلج. ومن إحدى زوايا المشهد، كانت القمم الصغيرة تغلِّفُ أحدَ الجبال ويُدعى جبل بولدلي (ويُترجم الأقرَع)، وأُطلِق عليه هذا الاسم بسبب غياب الأشجار عنه.

أمَّا في الأسابيع الأخيرة من الصيف، حين كانت الشمسُ تنتقمُ انتقامَها الأخير، دعاني هذا "الجدُّ الأقرَع" من مخبئه، بينما جعل حرُّ الصحراء من المستحيل أن تغامر خارج المنزل في ساعات النهار، وكنتُ حبيسَ غرفتي المكيَّفة بينما ينتابُني القَلقُ الشديد.

وفي أحد فصول الصيف كان القلقُ البالغُ متمكّنًا. وفي ذلك الوقت، حفَّزَ القلقَ المزمنَ ذاكَ توتُّرٌ كنتُ أشعرُ به بشأن المستقبل وبشأن أحلامي وإن كانت ستتقاطع يومًا مع الواقع. وكانت طاقتي القلِقة تحتاجُ إلى شيءٍ من الحركة، فأخذت سيَّارتي وقدتُها إلى شلّالات سان أنطونيو (San Antonio Falls)، والتي تقعُ على مسافة ثُلثي الطريق إلى قمَّة ''الجبل الأقرع''.

أنا مقتنعٌ أنَّ يسوع لم يكُن تائهًا في لحظة من لحظات الأفكار الغريبة حين أشار إلى الحقول المزروعة بالحياة والألوان وأخبر تلاميذه قائلًا: ''تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو! لا تتعبُ ولا تغزِلُ. ولكن أقولُ لكم: إنَّه ولا سليمان في كلِّ مجده كان يلبس كواحدة منها. فإنْ كان عشبُ الحقل الذي يوجَد اليوم ويُطرح غدًا في التنُّور، يُلبِسُه الله هكذا، أفليس بالحريِّ جدًّا يُلبِسُكم أنتم يا قليلي الإيمان؟'' (متَّى ٦: ٢٨-٣٠)، إذ كان يعرفُ أنَّ واحدةً من أفضل الطرق لمحاربة القلق وهمساته القاسية بشأن الاحتياج هي أن تغمس نفسَك في الغنى

الوفير للخليقة، وبطريقة ما يبدو وعدُ "السلام الذي يفوق كلَّ عقل" أكثر حقيقةً حين أطلبُه بينما أجلسُ على جبلٍ أو على مقربةٍ من المياه؛ فالخليقةُ ملآنةٌ بالهِباتِ التي تُعطى دون سببٍ، وليس بوصفها مكافأةً أو مقابلَ عَمَلٍ، فالزنابقُ تنمو هكذا دون سببٍ، وتنسابُ شلَّالاتُ المياه فقط لأنَّها تستطيع ذلك، والبطُّ يجدِّف ويثرثرُ لأنَّ هذا هو ما يفعلونه، ولا يهتمُّون قطُّ بهُمومي، فهُم يعيشون في عالَمٍ كبير، أمَّا عالَمي فصغير.

تجري شلَّالاتُ سان أنطونيو في قناة من الصوَّان منحوتة في منحدرات حادَّة، وهناك صخورٌ كبيرة متناثرة عند القاع تُستخدم كمقاعد مؤقَّتة، وليس هذا الشلَّال مُبهِرًا؛ إذ ينسابُ الماء في منظومة ثلاثيَّة الطبقات، ويسقطُ ويتجمَّعُ كما في مِغرفةٍ، ثمَّ يغوص مرَّة أخرى، ثمَّ مرَّة أخيرة، وأُطلِقُ عليه اسم "شلَّال الثالوث" الذي يتدفَّقُ إلى حياةٍ أبديَّة، وهناك شكلٌ ما عند القمَّة يشبِهُ الرأس الطويل والعنق الملتوي كما لحِيَّة

ما قبل التاريخ، والتي تجعلَك لا تثق به، لكنْ ليس للغَريم الصوان أيُّ سلطان لإيقاف النعمة العنيدة والإنعَاش الذي لشلَّال الثالوث، ولا لمنع بركة المياه الموجودة عند القاع من إيجاد طريقها تحت الصخور لتكوِّنَ المجرى أدناه.

جلستُ هناك في ذلك اليوم على مقعدي الصخريِّ، تاركًا الشلَّالَ يَعظني، طالبًا إلى الله أن يتحدَّثَ في كاتدرائيَّتي تلك التي في الوادي، وأعتقدُ أنِّي انجذبتُ إلى شلَّال الثالوث في أثناء ذلك الموسم؛ لأنَّ الشلَّال المتدفِّقَ كان يردِّدُ صدى الأرق الذي كنتُ أشعرُ به، إذ بدا كأنَّ الاندفاعَ المستمرَّ للماء وللصوت يتعاطفُ مع الطاقة التي تتسابقُ في داخلي، وفي البداية أكَّدتْ زمجرتُه العنيدة مدى قلقي، لكنْ مع استمراري في الجلوس هناك، تخطَّى قلقي وهدَّأه وامتصَّه، فأصبح ذهني هادئًا، وتنفَّس جسدي ثانيةً، وسلَّمتُ قلقي إلى قُوى تفوقُني.

قيادة السيَّارة في المناطق الجبليَّة قد تكون رفاهةً لأولئك الذين يعيشون على ارتفاع، لكنَّ الأمر ليس كذلك في ما يتعلَّقُ بالمشي مسافةً طَويلة، وأريدُ هنا أن أقترحَ التدريب الروحيَّ للمشي مسافةً طويلة، ويتطلَّب هذا التدريب مسافةً طويلة؛ لأنَّ الحديث الفرديَّ الذي يتسارعُ في رؤوسنا يحتاج إلى بُرهةٍ لكي يخرج ويعبِّرَ عن نفسه، ويتطلَّبُ التدريبُ مشيًا لأنَّ التحرُّك أسرع من ذلك سيجعل العالَم ضبابيًّا، ومن المفترَض أن تجعلنا هذه الممارسة نبطئ من أنفسِنا. يبدو أنَّ كلَّ ما أقرأه هذه الأيَّام يتعلَّقُ بأناس يتكلَّمون عن "الانتباه"، فالقِطار السريع للحياة المعاصرة يجعلُ المناظر الطبيعيَّة حولنا تمرُّ مرورًا خاطفًا، وقد قرَّر بعضُنا أنَّنا نحتاج إلى الإبطاء أو النزولِ من القطار لئلَّا يفوتَنا ما هو أمامَنا، إذ نكرِّسُ طاقةً أكثر من اللازم للسنين والأشهر والساعات على حساب اللحظة التي نعيشُها حاليًّا، ويتعلَّقُ المشي لمسافة طويلة بالانتباه، وباستقبال كلِّ لحظة بوصفها عطيَّةً، والاستماع إلى العظات التي

تقدِّمُها إلينا الخليقةَ.

يمكن أن نمارسَ السَّيرَ لمسافة طويلة في أيِّ مكان، بدءًا من السير في مكان يعجُّ بالطبيعة مرورًا بالسير في حيٍّ من أحياء المدينة، والفكرة هي أن نفصل أنفسنا لنتواصل معٍ ''القوَّة'' التي تتدفَّقُ في العالَم، فنحرِّرَ نفوسنا من كلِّ شيء، خارجيٍّ وداخليٍّ، يمنعنا من أن نكونَ حاضرين تمامًا، بينما نمارسُ ''القراءة الربَّانيَّة'' في الكتاب الكبير، كتاب الخليقة.

في أوَّل عشر دقائق من سَيْري أسمحُ للضَّباب بأن يندفعَ بعيدًا عن نفسي، مهدِّئًا ذهني وقلبي، ومُسلِّمًا نفسي إلى هبات الله المتمثِّلة في كلِّ ما يحيطُ بي مباشرةً، ثمَّ أبدأ في ملاحظة ما أراه وما أسمعُه، بغضِّ النظر عن كَونه كبيرًا وصاخبًا أو صغيرًا وهادئًا، ولا أحاول أن أدخِل المعنى أو أركِّز في أيِّ أمر واحد فقط، فأنا فقط ألاحِظ، وفي بعض المرَّات إذا كنتُ أرتدي النظَّارة، أخلعها حتَّى أستطيع أن أولي انتباهًا أفضل إلى الأصوات من حولي، فنظري دون مساعدة النظَّارة

هو نظرٌ ضعيفٌ لرجل في الثمانين من عُمره، لذا فإذا خلعتُ نظَّارتي أعتمدُ اعتمادًا كبيرًا على سمعي. ورغم مَيلِنا إلى استيعاب الخليقة استيعابًا يعتمدُ كثيرًا على أعيننا، فهناك سيمفونيَّةٌ ثريَّةٌ تُعزفُ إذا سمحنا لآذاننا بأن تقوم ببعض العمل.[٩]

ثمَّ بعد أن أكون قد تصفَّحتُ كتاب الخليقة، مستقبلًا إيَّاه على مداه الواسع، أبدأ في توجيه الانتباه إلى أيِّ شيء يومضُ نحوي أو يُنشدُ إليَّ- أيِّ شيء مُحدَّد يجذبني إلى العُمق. فإذا كانت المرحلة الأولى هي استقبال السيمفونيَّة بوصفها عملًا كاملًا، أبدأ الآن في التركيز على آلات موسيقيَّة معيَّنة، فهل هذه سحليَّة تتسكَّع في الطريق؟ هل ما سمعتُه هو نداء معيَّن للطُّيور؟ هل هو الريحُ يهزُّ الأوراق؟ أم هو شكلُ فرع من أفرع شجرة؟ هل هو نشيدُ أصوات تغنِّي غناء الليل؟ أيًّا كان، ادرسْه، واستمع إليه، واسأل نفسك: ماذا ترى؟ وماذا تسمعُ؟ ماذا يبدو مهمًّا أو معبِّرًا؟

ليس ضروريًّا أن تكون ملاحظاتُنا لاهوتيَّة أو

روحيَّة، فنحن ببساطة نتيقَّظ منتبهين إلى مهارة عمل يد الله من حولنا، ونستمع جيِّدًا، وهناك الكثير من الدروس التي يمكن استخلاصُها من العالَم إذا أعرنا انتباهنا إليه، فالجبال والمحيطات تشيرُ علينا بالصبر وتذكِّرُنا بأن نهدأ ونُبطئ، وكاتب الأمثال رَأى أنَّ النمل يستحقُّ الانتباه: ''اذهبْ إلى النملة أيُّها الكسلان. تأمَّلْ طرقِها وكُن حكيمًا. التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلِّط، وتُعِدُّ في الصيف طعامَها، وتجمع في الحصاد أُكلَها'' (أمثال ٦: ٦-٨)، وجوناثان إدواردز وجد معنى روحيًّا عظيمًا في خيوط عنكبوت، فأنهى خطابًا طويلًا عن الموضوع كالآتي: ''عُذرًا إذا ظننتُ أنَّ بإمكاني أن أقدِّمَ إليك على الأقلِّ الفرصة لتكوين ملاحظات أفضل لهذه الحيوانات العجيبة، وهي ملاحظاتٌ تستحقُّ توصيلَها إلى العالَم المُثقَّف، إذ يلمعُ من شبكاتها المتلألئة الكثيرُ جدًّا من حكمة الخالق''.[١٠] واستخدم إدواردز أيضًا صورة العنكبوت العالقة فوق لهب لتصوير رُعب القدوم أمام الله الإله القدُّوس، ويبدو أنَّ

الرجلَ كان متعلقًا تعلقًا غريبًا بالعناكب!

إذا شعرتَ بأنَّ السير تدريبٌ غريبٌ عليك، فلديك الكتاب المقدَّس بوصفه دليلًا إرشاديًّا متاحًا لتفسير العالَم، إذ يعظُ قوس قزح بوعود عهد الله ورحمته، وتذكِّرُنا الدجاجةُ مع فراخها برعاية يسوع الحانية لشعبه، وتشيرُ الريحُ إلى العمل العجيب للروح القدس، وتحاكي الأنهارُ صدى العدل الذي سيتدفَّقُ يومًا ما على الجبال، وشروقُ الشمس نذيرٌ بالقيامة والخليقة الجديدة، وتذكِّرنا الأزهار والعشب بالطبيعة البائدة للحياة البشريَّة وجمالها في مقابل استمراريَّة الله وبقائه، وتأخذُنا شجرةٌ إلى جنَّةٍ حيث أعطى الله حياةً في البداية، وتأخذُنا إلى النهاية حين ستجلبُ شجرةُ الحياة الشفاءَ إلى الأمم، وتذكِّرُنا الدببة الغاضبة أنَّه ليس لأحَدٍ أن يَسخرَ بنبيٍّ لأنَّه أقرع.

إذا استَرعى أمرٌ ما انتباهَك، احمله في ذهنك وقلبك بينما تسير، وليَعِظْك برهةً، وليأخذْكَ إلى حوار مع ذاك الذي تصوَّرَه وصنعَه، وليتصاعد الأمرُ إلى أن يصل

إلى شكرٍ وعرفانٍ على الجَمال والرحمة والحكمة التي أحاطنا بها، ولتنتهِ بعبارة: ”أشكرُك“.

نشيدُ الخليقة

تشرحُ عالمةُ الفلك يانا لي□ن (Janna Levin) أنَّه إن استطعنا الاقتراب من الثقوب السوداء والاستماع إليها دون أن نتبخَّرَ في الحال، فسنجد أنَّها تُصدر ضجيجًا، فهي تدور وتتحني، باسطةً وضاغطةً الفضاءَ من حولها، ومُصدرةً رنينًا مثل يدٍ كونيَّة تحيط بآلة ”فلوت“ بِلَّوريَّة، فالسماء المُظلمة التي نتوه فيها في أثناء ساعاتِ الليل الهادئة تتمايلُ وتنبضُ وترنُّ كما لو كانت تعملُ بطُبولٍ كوكبيَّة. وتقول لي□ن إنَّ هناك ”تأليفًا صوتيًّا مكتوبًا في الفضاء“[١١]؛ فللكون لحنٌ موسيقيٌّ مكتوبٌ له.

قد يكون هذا اكتشافًا جديدًا لعلم الفلك الحديث، لكنَّ الناس منذ الأزمنة العتيقة يرقصون على نغمات الخليقة، فالأصحاح الأوَّل من الكتاب المقدَّس، وهو بداية السماوات والأرض، يبدو في أفضل صورِه حين

نسمعُه مصاحَبًا بالموسيقا، فللبناءِ الأدبيِّ إيقاعٌ وسُرعة، ضرباتٌ إيقاعيَّة تخفقُ عبْر الفقرةِ، وهناك نغمةٌ ختاميَّة للأبيات تتماسكُ معًا بالقِرارات المتكرِّرة في كلِّ يوم من أيَّام الخليقة: "وقالَ الله" و"وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومًا..."، وفي كلِّ يوم تُقدَّم إلينا آلة جديدة من آلات الخليقة، مُضيفةً صوتًا جديدًا، لتملأ ما أتى من قبل، بانيةً ببطء نحوَ لحظة الذروة، حيث أعلى نغمات سيمفونيَّة الخليقة في صورة بشر مصنوعين على صورة الله.

كلماتُ أغنية الخليقة تضعُ إيقاعات واضحة:

فهناك ستَّة أيَّام عملٍ ثمَّ يومُ راحة، ستَّة أيَّام وسبت، فتسيرُ أسابيع السنة كالتالي: ستَّة وواحد، ستَّة وواحد، ستَّة وواحد، ويصيغُها روب بل (Rob Bell) قائلًا: "الله هو إلهُ التكوين الإيقاعيِّ الأخَّاذ".[١٢]

يفصِّلُ يوجين بيترسون الموسيقا تفصيلًا أكثر، مشيرًا إلى أنَّ الله يؤدِّي عملًا خالقًا واحدًا في اليوم الأوَّل والثاني والرابع والخامس من أيَّام الخلْق، أمَّا في

اليومين الثالث والسادس فيؤدِّي عملَين مختلفَين، فمثلًا، في اليوم السادس يخلقُ (١) الحيوانات لتطوفَ الأرض، و(٢) البشر ليملأوا الأرض ويحكموها، ثمَّ في اليوم الأخير من الخلْق، السبت، يتكرَّرُ رقمُ اليوم (٧) ثلاث مرَّات، في الأيَّام الستَّة الأخرى يُذكَرُ رقمُ اليوم مرَّة واحدة فقط، وإذا أحضرتَ كلَّ هذه الأرقام معًا تجد النموذج الآتي: ١، ٢، ٣ / ٣، ٤، ٥، ٦ / ٦ ثمَّ ، وفي الموسيقا الحديثة نعزفُ موسيقانا على إيقاع ٤/٤ أو ٦/٨، لكنْ ربَّما كان شعبُ الله في العالَم العبريِّ القديم يولي اهتمامًا إلى هذا النموذج الإيقاعيِّ: واحد، اثنان، ثلاثة وثلاثة، أربعة، خمسة، ستَّة وستَّة، سبعة، سبعة، سبعة![13]

يجتذِبُني التفكير في اقتراب الله إلى الفوضى الأوَّليَّة من اللَّاخليقة مثلما يسيرُ قائد أوركسترا من طراز رفيع إلى غرفة فريق الموسيقا للصفِّ الخامس الابتدائيِّ، إذ تكون الفوضى هي صوتُ كلِّ الآلات التي تصدحُ في الوقت نفسه بتنافرٍ لحنيٍّ مزعج ينتجُ عن مبتدئين غير

مدرَّبين يعزفون بآلاتهم أيَّ صوتٍ يصدرُ عنها. وكانت الآلهة المتقلِّبة للمجتمعات المجاورة تزدهرُ على هذا النوع من النشاز، صانعةً العالَم جرَّاء عنف الآلهةِ أو تنازعها، أمَّا الإلهُ الحقيقيُّ فسمعَ الفوضى وكان ردُّ فعله أن كَتَب مقطوعة موسيقيَّة من الجمال والعذوبة حتَّى إنَّ الكونَ كلَّه وقف ورقص على نغماتها، فعزفها المايسترو مرارًا وتكرارًا إلى أنْ أُنهكت قُوى الفوضى.

يبدو الأمرُ كما لو أنَّ الله كان قادرًا أن يكتبَ نشيده الانتصاريَّ مباشرةً على سطح الخليقة، فنجدُ أنفسَنا في عالَم ليس جامدًا، بل ينبضُ بإيقاعات مستمرَّة من النهار والليل، الشروق والغروب، سحب كثيفة وسحب منقَشِعة، مراحل مختلفة من ظهور القمر، النوم والاستيقاظ، العمل والراحة، الخريف والشتاء، سُباتُ الأشجار وظهور البراعم، وقت إلقاء البذار والحصاد، ويستمرُّ إيقاعُ الخليقة نابضًا.

في كلِّ صباح نستيقظُ على صوت أغنيةٍ لم نكتبْها[١٤]، على صيحاتٍ توقظنا من نومنا وتجعلنا ننهض

ونتحرَّك، وحين تلمس أقدامُنا الأرض نخطو نحو رقصةٍ مستمرَّة، وليس بيننا مَن وُضِع هناك فقط للمشاهدةِ دون أن يرقُصَ؛ فالحياة البشريَّة مُصمَّمة لتُعاش إيقاعيًّا، في تناغُم مع الإيقاعات الداخليَّة للخلْقِ، وحين نحاول الوقوف فوق الخليقة للمشاهَدةِ فقط بدل المشاركة، فإنَّنا نتجاهل إيقاعاتها الطبيعيَّة ويصطدمُ الزمنُ بنفسه، وتتسابُ الساعات والأيَّام والأسابيع بعضها إلى بعض، ونبدأ نفقد أثرَ بداية أمرٍ ما وانتهاء آخر، فدون فَصْلٍ وتحديدٍ تبدأ حياتُنا في التشابُهِ المرعبِ مع تلك النقطة عديمة الشكل من الفوضى التي أخضعها الله بأغنيته، فقد يكون البشرُ هم تاجَ الخليقة لكنَّنا لَسْنا أصحابَ سِيادةٍ عليها، فلا تأتي الحرِّيَّة الحقيقيَّة من محاولة السيطرة على إيقاعات الحياة، بل من التحرُّك في تناغُم معها.

النوم

لقد مكَّنتْنا اختراعاتُنا التكنولوجيَّة، بدءًا بالمصباح الكهربائيِّ، من عَزْل أنفسنا عن الإيقاعات التي لم يكُن

لأسلافنا خِيارٌ سوى أن يعيشوها.[١٥] لقد قلَبْنا النور والظلام، فلو أردنا، نقدر أن نعملَ طَوالَ الليل وننام طَوال النهار، ويبدو أنَّ الغرب كلَّه صارَ مدينة ضخمة لا تنامُ بتاتًا. ويؤثر هذا جسمانيًّا؛ فقد كشفتْ دراسات عدَّة في أميركا وباءً من الحرمان من النوم، وقلَّةُ النوم هي أحد الأسباب الأساسيَّة لحوادث السَّير، وهي أيضًا عاملٌ مساهِم في حالاتٍ مثل السكَّريِّ والسُّمنة.

لنعاسنا الثقافيِّ أيضًا تأثيرٌ روحيٌّ خفيٌّ، لكنَّه أخبث؛ فهناك نوعٌ من تحدِّي الله حين نرفضُ أن ندَعَ أجسادَنا تنالُ حاجتَها من النوم، ونختار النشاط مفضِّلين إيَّاه على الراحة، وليست صدفةً أن يكونَ اليوم الأوَّل بعدَ خلْقِ البشر في سِفر التكوين هو السبت، فقد كُلِّف البشرُ بإرساليَّة عمل الأرض وإعمارها، ثمَّ بمجرَّد أنِ استَجمَعوا طاقتَهم لمثل هذه المهمَّة الضخمة، أشرقَتِ الشمسُ على يوم...راحة! والسبتُ هو الهبوطُ المفاجئ العظيم لعمل أسَبوع كامل، وهي رسالةٌ واضحة أنَّ العالَم ليس ملكنا ولا ينتمي إلينا انتماءً نهائيًّا، فلا توجدُ

كمِّيَّةٍ معيَّنة من العمل أو النشاط الذي سيحافظ على العالَم في دورانه حول محوره، فالله لا ينعسُ ولا ينام، لكنَّ فكرة أن نكونَ بشرًا تعني أنَّنا ننامُ، والنومُ عطيَّة عميقةٌ من الراحة والإطلاق والانفصال. "بسلامة أضطجعُ بل أيضًا أنام، لأنَّك أنت يا ربُّ منفردًا في طمأنينة تُسكِّنني" (مزمور ٤: ٨).

ويعملُ النومُ على استردادِ أجسادِنا وأذهانَنا، كما أنَّه يذكِّرُنا أنَّ العالم يستطيعُ بطريقة ما، مدَّة ثماني ساعات يوميًّا، التصرُّف من دوننا، فليس العالم منتظرًا انتظارًا قلقًا لنُعطيَه نحن دفعة البداية في الصباح، فيمكننا الاطمئنان عالمين أنَّه حتَّى إنْ غِبنا عن العالم، فستظلُّ نبضات الإيقاع مستمرَّة.

الفصول

الفصول في جنوب كاليفورنيا هي حالةٌ مزاجيَّةٌ جدًّا؛ فأنماطُ الحالة الجوِّيَّةِ تتبعُ تقويمَ المبيعات: فهناك الصيف، وهناك عيد الميلاد المجيد، وإذا أغمَضْتَ عَينَيك وأشرتَ عشوائيًّا إلى أيِّ يوم من أيِّ شهر،

فأغلبُ الظنُّ أنَّه سيكون يومًا مُشمسًا دافئًا والسماء زرقاء صافية، لذا حاولتُ سنواتٍ عديدة الحصول على وظيفة في التنبُّؤاتِ الجوِّيَّة في لوس أنجلوس؛ إذ يبدو أمرُ توقُّع الحالة الجوِّيَّةِ أمرًا غاية في السهولة.

تتَّسمُ أنماطُ الجوِّ هناك بالانتظام، ونتيجة لذلك غالبًا ما تتَّسمُ أنماطُ حياتنا بالانتظام ذاته في مثل تلك المنطقة، ويلاحظ روب بل أنَّه ‘‘حين يكون الجوُّ هو ذاتَه على مدار العام، فإنَّ المرءَ يميلُ لأنْ يعيشَ على المنوال ذاته على مدار العام’’[١٦]، فحين تتجاهلُ الحالةُ الجوِّيَّةَ إشارات التغيُّرات الموسميَّة، فإنَّ الأمرَ ذاته يحدثُ لنا أيضًا، وللأسف حين تتحرَّكُ تحرُّكًا مستمرًّا بالسُّرعة ذاتها، وتنشغلُ بالأنشطة نفسها، غالبًا ما ستجدُ نفسَك منهكًا وقلقًا ومُضجرًا.

ماذا لو استرشدنا بإيقاعات التقويم بدلَ محاولة تجاوُزها؟ فالحالةُ التي تدورُ في السماء فوقَنا تتوازى غالبًا مع الحالة التي تدورُ فينا، كما أنَّها تؤثِّرُ فيها أيضًا. وربَّما تكون الفصول كتابًا يمتلئ بالدروس

للنَّفس، ويرشدُنا متى نتحرَّكَ سريعًا ومتى نهدِّئ من سرعتنا، متى نعمل ومتى نستريح، متى نركز على العالم خارجَنا ومتى ندخل بياتًا شتويًّا حيث نتعمَّق إلى الداخل.

كم أعشقُ فكرة أنَّنا نجدُ في كلمة ''متساقطة'' (Deciduous) في عبارة ''أشجار متساقطةُ الأوراق'' باللغة الإنكليزيَّة كلمة ''Decide''، وتعني يقرِّر، مُضمَّنة فيها، ويروقُني اعتقادُ أنَّ أشجارًا معيَّنة ''تقرِّر'' أن تُسقط أوراقَها سنويًّا، كما لو كانت مُرهقةً من جرَّاء تقديم الكثير من الطاقة لأوراقها، وتحتاج إلى التغيير. ورغم أنِّي أعيشُ في بيئةٍ في أشجارٌ دائمة الخُضرة، فقد اتَّخذتُ قرارًا أن أعيشَ حياةً فيها بعضِ التساقُط، وأنا عازمٌ أن أستمعَ إلى الفصول، وأن أقبلَ تعليماتها، حتَّى وإنْ كانت تلك الفصول حيثُ أعيشُ متخفِّيةً، ولا تقدِّمُ تعليمَها تقديمًا واضحًا.

في مرحلةٍ من حياتي، عشتُ على بعد ساعة ونصف في الجزء الداخليِّ في جنوب كاليفورنيا، وكان الموقعُ

يتميَّز بشتاءٍ وصيفٍ أكثر برودة قليلًا، وكنتَ إذا كسرتَ بيضةً على الرصيف عند الظهر في شهر آب/ أغسطس لصارت دجاجة على الفَور، لكن الأمرُ الذي أقدِّرُه بشأن العيْش في جوٍّ يتميَّز بتغيُّرات طفيفة هو أنَّ هذا الجوَّ يُجبرني على الانتِباه إلى الفروق الدقيقة للتغيُّرات الموسميَّة؛ فالصيفُ يتغيَّرُ إلى الخريف لكن عليك فحْص هذا التحوُّل فحصًا حريصًا، وقد درَّبتُ نفسي ببطء لألاحظ الغطاء المنخفض من السحب التي تلامس الجبال في شهر أيلول/سبتمبر، ويزيد دفءُ الهواء زيادةً أبطأ قليلًا في الصباح ويبردُ أسرع قليلًا في ما بعد الظهر، ويبدأ قوسُ الشَّمسِ في التحوُّل ليُشبه بسمةً مقلوبةً أكثر منها ابتسامةً عريضةً، ويسقطُ الضَّوءُ سقوطًا مختلفًا ملقيًا بظلالٍ أطول، وتتنحَّى جانبًا الأشعَّةُ الورديَّة الصارخة لغروب الشمس لتحلَّ محلَّها درجاتُ اللون البرتقاليِّ والكهرمانيِّ الرقيق باسطًا ستارَ الخريف.

أتعلَّمُ أيضًا ملاحظة التغيُّرات الشعوريَّة- والتي تكونُ

خفيَّة أيضًا- المُصاحِبة للانتقالات ما بين الفصول، وأعتقدُ أنَّ ليتن فورد (Leighton Ford) مصيبٌ حين يسأل: ‹‹أليس صحيحًا أنَّنا غالبًا ما نفكِّرُ في الفصول لا في ما يختصُّ بتواريخ البداية والنهاية بقدر ما نفكِّر فيها في ما يختصُّ بتأثيرها فينا: برودة الشتاء، وإيقاظ الربيع، وحماسة الصيف، ورثاء أوراق الخريف؟››[١٧] فالأمرُ عندي هو أنَّ الخريفَ مَوسمٌ من الحُزن المُنعِش، حين نتعجَّبُ من الألوان الزاهية ونحتفل بالحصاد، ومع ذلك نرثي التقهقر المحتوم للعالم عائدًا إلى الأرض، أمَّا الشتاء فهو موسمٌ تأمُّليٌّ، للتفكُّر بشكر وعرفان في الأمور التي نلناها من قبل، مع رجاء هادئ لما سيأتي لاحقًا، والربيعُ يزهرُ بالتجديد والرومانسيَّة والقيامة، والصيفُ هو وقتُ انفتاحٍ ووفرةٍ واسترخاء، حين يكون العيْشُ سهلًا.

حين نلاحظ أنماط التقلُّب من حولنا، نُعطى تصريحًا لاحتضان التغيُّرات والردود المتنوِّعة في نفوسنا وأجسادنا، ولسنا في حاجة إلى محاربتها، فالفصول

تزيلَ عنَّا ضَغطَ اضطرارنا لأنْ نحتفظ بتعبيرات وجوهنا نفسها، ونتصرَّف بالطريقة نفسها طَوال العام؛ فليس العامُ صيفًا دائمًا، ولا نحتاج لأن نعيشَ ونشعرَ كما لو أنَّه كان صيفًا دائمًا، وتمامًا مثلما تتغيَّرُ ملابسُنا بتغيُّر المواسم، تتغيَّرُ حياتنا الروحيَّة والشعوريَّة أيضًا، ويمكننا الدوران في إطار فصولنا نحن- فصول السكون والحياة الجديدة، النشاط والهدوء، الاحتفال والحُزن، الإزهار والحصاد، الانفتاح والانغلاق، التقشُّف والوفرة.

ربَّما يمكننا التفكير في إيقاعات الخليقة بوصفها شريكَنا في الرَّقْص، فإذا حاولتَ رقْص "السامبا" الوقت كلَّه ستُرهَق وينتهي بك الأمرُ متعبًا متألِّمًا، فأحيانًا تحتاج لأن تُبطئ من سرعتك وترقص "الـ□الس"، ومرَّات تحتاج لأن تقفَ فقط وتتمايل قليلًا، كما تحتاجُ كلَّ بضع أغنيات إلى الجلوس وعدم الرقْص؛ فالشتاءُ يعطينا الفُرصة لنَسكُنَ برهةً، أمَّا الربيعُ فيدعونا لنُسرِعَ ونُنجزَ العمل، وكلُّ المواسم تقدِّمُ

إلينا إيقاعًا مختلفًا، أنشطةً مختلفةً وطرقًا مختلفةً للاستجابة لحياة الله داخلنا.

يمكننا أيضًا السماح لإيقاعات الأيَّام والفصول أن تُشكِّلَ حياة صلاتنا، إذ نضيفُ أصواتَنا إلى جوقة تسبيح الخليقة والتي لا يمكن إيقافُها، وقد صلَّتْ طوائف مهمَّة من الكنيسة مع الخليقة لقرونٍ طويلة، وهي أساسُ الشعائر اليوميَّة- فترات الصلاةً المنتظمة التي تقدِّمُها جماعات المؤمنين وترجعُ تاريخيًّا إلى اليهوديَّة القديمة والمسيحيَّة الأولى.[١٨] وهذا الشكلُ المنظَّم من الصلاة، والذي يُطلَق عليه أيضًا اسم صلاة الساعات، أُنجزَ في أديرة القرون الوُسطى، حيث كان يجتمعُ المبتدئون ما بين خمس وسبع مرَّات يوميًّا، عند الشروق، والظهيرة، ومنتصف اليوم، والغروب ووقت النوم، لإنشاد المزامير وتكرار صلوات مكتوبة ورفعُ تشفُّعاتٍ من أجل العالم. وممارسةُ الصلاة المنسوجة مع العمل والوجبات والتسلية الموجودة في اليوم العاديِّ هي طريقةٌ من طرق الاعتراف بحضور الله المستمرِّ

في كلِ الحياة، فكلَ ساعةٍ من ساعات اليوم، بانتهاء الساعة ما قبلها وبانتظار الساعة التالية، هي نطاقُ الربِّ، ومن ثمَّ كلُّ الحياة هي تقدمةٌ إيقاعيَّة من أنشطتنا وتوجُّهاتنا وراحتنا نقدِّمها ببساطةٍ إليه.

كم يروقُني التفكيرُ في صلاة الساعات بوصفها سهرًا للحراسة من أجل الربِّ، مثل حارسٍ في برج مراقبة قديم، ينتظرُ الفجرَ انتظارًا لكي يضربَ الظلامَ.وحين نخصِّصُ أوقاتًا محدَّدة للصلاة، نسهرُ متيقِّظين من أجل تحرُّكات الربِّ عبْر اليوم كلِّه، فلسنا فقط ملتزمين باللحظات النادرة من التسبيح التلقائيِّ والتشفُّع أو الصراخ طلبًا للمعونة، لكننَّا نتبعُ أنماطًا متكرِّرة منتظمة، وهي دقَّات حياة الصلاة المنتظمة، إذ يوقظنا الربُّ في الصباح ويدعونا للعمل ويباركُنا ويرزقُنا وجباتِنا، ويحرسُ نومَنا، ونعترفُ نحن أنَّه حاضرٌ في رجاء الشروق وفي وهج منتصف النهار وفيِ المذاق الحلو والمرِّ للغروب وفي رَيبة الليل، ففي كلِ ساعة نراقبُ وننتظرُه.

ويراقبُ أيضًا التقويمُ الأوسع للكنيسة إيقاعاتِ السنة، رابطًا الموسميَّ والروحيَّ معًا، وأحيانًا تتحرَّكُ الأحداث الكُبرى في التقويم الطقسيِّ بتواصلٍ مع الفصل، ومرَّات تعملُ في تَبايُن مع هذا الوقت من السنة، فقد أسَّس آباءُ الكنيسةِ الخامس والعشرين من كانون الأوَّل/ديسمبر ليكونَ ذكرى الميلاد إذ تطابقَ مع الانقلاب الشتويِّ، وكانت أيَّام السنة الأقصَر والأكثر إظلامًا هي خلفيَّة دخول "نور" العالَم إلى الليل العميق، أمَّا موسم الصوم الكبير (Lent) على الجانب الآخر فيأتي من الكلمة اللاتينيَّة بمعنى "الاستطالة"، إشارةً إلى المرور البطيء لنور النهار في أشهُر الشتاء، وموسم الصوم الكبير هو وقت رزينٌ من اختبار النفس والتوبة، لكنَّ قلوبَنا ترتفع ارتفاعًا بطيئًا بينما يطول النهارُ ويقتربُ وعدُ القيامةِ أكثر فأكثر، فنُمضي موسمًا نتأمَّلُ في ظلمتنا الداخليَّة بينما تفيضُ الأيَّامُ فيضًا بطيئًا بنورٍ أعظم. ويشرحُ هنري نووين أنَّ "موسم الصوم الكبير، حيث يتصارعُ الشتاءُ والربيعُ

على السيادة، يساعدُنا مساعدةً خاصَّة كي نصرخَ طالبين رحمةَ الله". [19]

حين أفكِّرُ في كلِّ إيقاعات الخليقة التي تردِّد صدى مجد الله، أبتهج منبهرًا بالمدِّ والجزر، وليست هناك عندي ممارسات روحيَّة كثيرة على القدر نفسه من المعنى مثل الجلوس على الشاطئ، مصلِّيًا مع حركة الأمواج، وقد تعلَّمتُ مؤخَّرًا أنَّ هذا جزءٌ من تقليد يُطلقُ عليه "الصلاة مع العناصر"، والتي فيها نسمحُ لمكوِّنات الخليقة الأساسيَّة- الأرض والريح والماء والنار- أن تجذبَنا إلى الصلاة.[20] ولارا، إحدى الصديقات، تشبهُني في انجذابها إلى الماء، وترى أنَّ رياضةَ ركوب الأمواج هي عملٌ من أعمال العبادة، فتقول: "حين تكون في المحيط، تدرك سريعًا أنَّه ليس بإمكانك قهرُه، فهو أقوى منك بكثير. فإنْ حاربتَه خسرتَ، لكنَّك إذا كنت ماهرًا مهارةً كافية يكون ما تفعله هو التحرُّك مع إيقاعه، والأمر يشبِه التعامُل مع الله، لن تغلب الله بغضِّ النظر عن اجتهادك في

المحاربة، لكنْ يمكنك أن تتعلّم كيف تتحرَّك في انسجامٍ معه”.

لديَّ خَوفٌ شديدٌ غيرُ منطقيٍّ من قناديل البحر، لذا أفضِّل البقاء على الشاطئ على ممارسة ركوبِ الأمواج، فأجلسُ على الرملِ عند الغسق وأصلّي بحسب ما أسماه إغناطيوس لويولا تعزيات الله وإطلاق المآسي؛ ففي اصطدام الأمواج أسحبُ شهيقًا من الهواء المالح وأستقبلُ تعزيات الربِّ: رحمته وجوده وحضوره، وحين تهربُ الأمواجُ عائدةً أزفرُ، مطلِقًا المآسي، الأماكن التي في حياتي حيث لا يبدو الله حاضرًا فيها وأجزاء حياتي الداخليَّة التي لا أريدُها.

أنينُ الخليقة

في القرون الأولى للكنيسة كان المسيحيُّون الجُدد يعتمدون في فجر يوم أحد القيامة، وبعد أن يغطسوا في الماء، كانوا يبزغون مواجهين ناحية الشرق، نحوَ الشمس المُشرقة المُشرِفة على القيامة وعلى الحياة الجديدة، وبسيادة النهار على الليل كانت الخليقة الجديدة

تنمو جزءًا جزءًا.

لكنْ في بعض المرَّات تهطلُ الأمطار في خدمة شروق القيامة، ومرَّات تتقطَّعُ نبضةُ الإيقاع القديمة، وكثيرون منَّا يعون بإيقاعات الخليقة فقط في تلك اللحظات، حين تتوقَّف الموسيقا ونُترك دون مقعدٍ نجلس عليه، ولا نجدُ بتاتًا بثًّا إخباريًّا ينطلقُ بادئًا بجملة: "جاءنا الخبرُ التالي: أشرقتِ الشمسُ اليومَ"، فالأعاصير والزلازل والفيضانات والنيران هي ما ينال اهتمام الصحافة، ونجدُ أنفسَنا في أقصى درجات الاضطراب حين تتوقَّف الأمور التي نحسبُها أمورًا مفروغًا منها، حين تصبحُ الدورات المُعزِّزة للحياة هي قُوى الموت[٢١]، وفي تلك اللحظات نواجِه ضعفَنا ونفقدُ مؤقَّتًا وهمَ أنَّ لنا السيطرة والتحكُّم في بيئتنا.

ليست كلُّ أغاني الخليقة بهيجة؛ فأحيانًا تُقاطِعُ المسيراتُ الجنائزيَّةُ المواكبَ الاحتفاليَّةَ، وفي كلِّ مرَّة تعطِّلُ فيها الكوارثُ والموتُ توقُّعاتنا ونمطَ حياتنا اليوميَّ ننتبهُ إلى أنَّ أمرًا ما في العالَم قد انحرف

انحرافًا بشعًا. قال سي. أس. لويس إنَّ الألم هو بوقُ الله للعالم ليعلِّمنا أنَّ هناك خطأ ما[٢٢]، ويحكي الكتابُ المقدَّس ليس فقط عن بشرٍ متألِّمين، بل يخبرُنا أيضًا عن الخليقة الكاملة الصارخةً صراخَ الألم، فحين أنكرنا ‘‘خالقَنا’’، عطَّل هذا الإنكارُ حياتنا وعلاقاتنا وعطَّل كذلك حياةَ الخليقة كلِّها وأنماطها، كما لو أنَّ عصيان الإنسان سبَّب تحوُّلًا في طبقات الأرض فاصطدم بعضُها ببعض، مُخلِّفًا جبالًا حيث كانت هناك سهولٌ، وهادمًا غاباتٍ محوِّلًا إيَّاها إلى أودية، ويختبرُ العالمُ كلُّه هزَّات ارتداديَّة رهيبة منذ ذلك الحين، وقد عانت الأرضُ الاختناقَ من تشبُّعها من دمائنا منذ أن قتل قايينُ هابيلَ. وعلَّق البابا يوحنَّا بولس الثاني على هذا قائلًا: ‘‘حين يحوِّل الإنسان ظهرَه إلى خُطَّة «الخالق»، يستثيرُ الإنسانُ اضطرابًا له تداعيات محتومة على باقي منظومة الخليقة، فإذا لم يكُن الإنسانُ في سلامٍ مع الله، لا يمكن أن تكونَ الأرضُ نفسُها في سلام’’.[٢٣]

يقولُ بولس إنَّ الخليقة تئنُّ في عبوديَّتِها وتتطلَّعُ إلى

الفداء والحرِّيَّة، وفي تلك اللغة نسمعُ صدى عذاب الأمَّة العبرانيَّة قديمًا في الأسْر المصريِّ، بل نسمعُ صدى ورطة الإنسان والبشريَّة ككلٍ، وفي رومية ٨ يستخدمُ بولس الكلمة اليونانيَّة نفسها للإشارة إلى أنين الخليقة، وفي الآية التالية أنين البشر في صراعِهم في انتظار خلاصهم.[٢٤] فمصيرُ الخليقة ومصيرُ البشريَّة متشابكان؛ فإذا ذهب الواحدُ يذهبُ الآخر أيضًا، لذا علينا الاستماع ليس فقط إلى عظة الخليقة وإلى أغنية الخليقة، بل أيضًا إلى أنين الخليقة. ونستمعُ إلى أنينها لأنَّه أنيننا أيضًا؛ فقصَّة الخليقة هي قصَّتُنا، وبينما صُنِع العالم الطبيعيُّ من أجل الحياة والجمال والتسبيح، فقد أصبحَ مُبعَدًا عن غرضه الحقيقيِّ وهو الآن في حالة حربٍ مع نفسِه ومعنا نحن. ويظهرُ هذا التوتُّر الدراميُّ أمامَنا كلَّ يوم: فالجمالُ يختلطُ بالعُنف، وتتصارعُ السحب المشوَّمة مع السماوات الزرقاء، وتتداخل الكوميديا مع المآسي، وتخنقُ الأعشابُ الضارَّةُ الأزهار، ففي كلِّ مرَّة تندلع النيرانُ في غابةٍ وفي كلِّ

مرَّة يجرفُ فيضان كلَّ ما في طريقه، نسمعُ أنينَ الخليقة.

الاستماع إلى أنين الخليقة معناه أن نفكِّر جدِّيًّا أنَّنا مصدر ألمها، فليس فقط تعدِّي البشر هو ما عطَّل الإيقاعات الصالحة التي غرسَها الله في العالم، بل أيضًا إساءاتنا المستمرَّة إلى الخليقة تستعبدُها أكثر وأكثر، ويبدو الكثيرُ من الخليقة كما لو كنتَ تقرأ تقرير الشرطة عن جرائم البشر وطمعهم، وهناك الآن إجماعٌ واسع أنَّ إساءة تعامُلنا مع البيئة يساهِم في درجات الحرارة المتزايدة، والحالة الجوِّيَّة الغريبة، وانصهار الأنهار الجليديَّة وما ينتج عنه من ارتفاع في مستوى سطح البحر، وتآكل السواحل، وزيادة معدَّل الفيضانات، ونقصان عائدات المحاصيل والأرض الزراعيَّة، والتخريب الواسع للنظم البيئيَّة[٢٥]، وتئنُّ الخليقةُ تحت ثقل التلوُّث الواسع، وارتفاع مستويات غازات الاحتباس الحراريِّ التي تعترضُ الإيقاعات الطبيعيَّة لتدفُّق الهواء.

أحيانًا يكون أنينُ الخليقة أنينًا صاخبًا، وأحيانًا يبدو هذا الأنين مثل صمتِ الكهوف. تناولَت مقالةٌ في صحيفة ''ذا غارديان'' *(The Guardian)* قصَّة رجلٍ كان يسجِّلُ أصوات الطبيعة حولَ العالم على مدى أربعين عامًا، ويرثي بيرني كراوس (Bernie Krause) حقيقةَ أنَّ البيئات التي زارَها قبل بضعة أعوام، حين كانت المياه وقتها تثرثر مع الحيوانات التي ترعى وتلعبُ وتتصادم بعضُها مع بعض، قد صارت الآن صامتة. ويبدو أنَّ صوتَ الطبيعة يتلاشى ويتضاءل، فانقراضُ الأنواع وتقلُّص البيئات والتلوُّث والاضطراب الذي يُسبِّبُه الإنسانُ- كلُّ ذلك يُسكِتُ النُّظم البيئيَّة إسكاتًا لا يمُكن إصلاحُه، تلك النظم التي كانت يومًا ما صاخبة مُفعمة بالضجيج. ويكتبُ كراوس قائلًا: ''صمتٌ عظيمٌ ينتشرُ فوقَ العالم الطبيعيِّ حتَّى في الوقتِ الذي يُصبِح فيه صوتُ الإنسان صامًّا للآذان، وقليلًا قليلًا تدخلُ الأوركسترا الضخمة للحياة وجوقةُ العالم الطبيعيِّ في عمليَّة من الإسكات، وقد

صار هناك الآن نقصٌ هائلَ في الكثافة والتنوُّع في مخلوقات مُعبِّرة ذوات أصوات أساسيَّة، الكبير منها والصغير". [٢٦]

يجبُ أيضًا أن نتذكَّر أنَّ الاستماع إلى أنين الخليقة لا ينفصلُ عن سماع صرخات الفقراء، ففي البلاد الأفقر يُشعرُ أكثر بتأثيرات إساءاتنا إلى الخليقة، فالفقراء يتأثَّرون أكثر بالتغيُّرات المناخيَّة المُفرطة وبالكوارث الطبيعيَّة، وقدراتُهم على التعافي منها أقلُّ، فهُم أكثر عُرضةً للنزوح بفِعل الفيضانات والمجاعات، كما أنَّهُم أكثر تأثُّرًا بالنزاعات التي كثيرًا ما يشتعلُ فتيلُها نتيجة لنقص الموارد.

ومن ثَمَّ ليس المُنطَلق بيئيًّا تجريديًّا ما يجعلنا نستمع إلى أنينِ الخليقة، بل نستمع لأنَّنا مدفوعون بالمحبَّة- محبَّة لعالَم الله ومحبَّة لشعب الله، وفي المحبَّة علينا أنْ نواجه أنفسَنا بالأسئلة الصعبة بشأن الكيفيَّة التي نستهلِكُ بها الطاقة ونتخلَّصُ من النفايات، والكيفيَّة التي نبني بها ونستخدم المساحات، والكيفيَّة التي نزرعُ بها ونأكل،

والأشخاص والأشياء التي تدفعُ ثمنَ سعينا القاسي إلى الربح والزيادة.

يمكننا الاستمرارُ في إمالة آذاننا إلى أنين الخليقة؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الألمَ ليس هو الفصل الأخير في القصَّة، فكلُّ شيء يتغيَّر حين نعيد فهْم سياق الأنين في إطارٍ جديد، وها هو بولس يحدِّدُ موضع الأنين:

''لأنَّ انتظار الخليقة يتوقَّعُ استعلانَ أبناء الله. إذ أُخْضِعَتِ الخليقةُ للبُطل ليس طوعًا، بل من أجل الذي أخضَعَها على الرجاء. لأنَّ الخليقةَ نفسَها أيضًا ستُعتَقُ من عبوديَّة الفساد إلى حرِّيَّة مجد أولاد الله. فإنَّنا نعلَمُ أنَّ كلَّ الخليقة تئنُّ وتتمخَّضُ معًا إلى الآن. وليس هكذا فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضًا نئنُّ في أنفسِنا، مُتوقِّعين التبنِّي فِداءَ أجسادِنا'' (رومية ٨: ١٩-٢٣).

ليس هذا الأنين أنينَ مُحتَضِرٍ، وليس هو الكلمات الأخيرة التي يتنهَّدُ بها مَن تنسلُّ عنه الحياةُ، بل هو أنينُ غُرفة الولادة، أصواتُ الرجاء والتوقُّع، العذابُ

والصراعُ اللذان يُفسِحان مكانًا لحياة جديدة.

هناك تفصيلةٌ أخرى لافتة للنظر في الجزء الخاصِّ بالأنين في رومية ٨، وهي أنَّ الله أيضًا يئنُّ، فالكلمة اليونانيَّة نفسها مُستخدَمة في وصف أنين الخليقة والبشريَّة تنطبقُ أيضًا على الروح القدسِ، ‘‘وكذلك الروحُ أيضًا يُعينُ ضعفاتِنا، لأنَّنا لسنا نعلم ما نصلِّي لأجله كما ينبغي. ولكنَّ الروحَ نفسَه يشفعُ فينا بأنَّات لا يُنطق بها’’ (رومية ٨: ٢٦)، فالله أكثر من مجرَّد متفرِّج على أنيننا؛ هو يئنُّ معنا وينضمُّ إلى صوتنا في جوقة غُرفة الولادة، وهو يتبنَّى قصَّتَنا واستعبادَنا واشتياقاتنا وموتنا ويجعل من أنيننا أنينَه في الجمعة العظيمة، وفي أحد القيامة تُصبحُ أنَّاتُ اليأس تلك صرخاتِ ميلادٍ جديد، فدمُه المسفوكُ على الأرض يشفي ليس فقط أولئك مَن سفكوا دمًا بل أيضًا الأرض نفسها التي تصرخ تحت ثِقل القهر الذي تعانيه، ويومًا ما ستظهرُ أزهارُ الخليقةِ الجديدة وتخنقُ الأعشاب الضارَّة التي للمنظومة القديمة.

نستمع إلى أنين الخليقة ونتشارك في ألمها، عالمين أنَّ الأمورَ لم تُستردَّ بعْدُ استردادًا كاملًا. ورغمَ أنَّ كلَّ المؤشِّرات توحي بأنَّ هذا الأنين هو أنين الموت، فإنَّنا نعلمُ أنَّ هذه الأنَّات بطريقةٍ ما تلدُ حياةً جديدة، وفي يوم ما ستُسكِتُ أغنيةُ الخليقةِ الجديدة تنافُرَ الفوضى نهائيًّا، وستُسبِّحُ السماءُ والطبيعةُ بحمد الربِّ، لكنَّ موسيقا المستقبَل بدأتْ بالفعل، وهي مقطوعة تعجُّ بهدف السلام، في عالَم من الازدهار والوفرة والعلاقة، وإذا انتبهنا قد نسمعُ أحيانًا ألحانَ السلام التي تنبعثُ عائدةً نحو الحاضر وتشوِّقُنا نحوَ عالَم مستقبَليٍّ.

قبل بضع سنين اندلعَ حريقٌ في غابة في التلال قُربَ سانتا باربرا (Santa Barbara) والتي أثارتها رياح سانتا آنا السيِّئة، ولعدَّة أيَّام أتلفَتِ الأشجار بشراهة، ودمَّرَتِ البيوت والبنايات العامَّة، طاردةً الحيوانات والناس المقيمين هناك مشتِّتةً إيَّاهم في بحثهم عن الأمان. لكنِ حتَّى في وسط المأساة كانت هناك همساتٌ لعالَم

مستقبليٍّ، فسعى المُنقِذون لينقذوا الحيوانات بقدر ما يستطيعون لكنْ بسبب عدم وجود مساحة كافية لتسكين الحيوانات التي أنقذوها، كان على بعض هذه الحيوانات أن يقيموا في القفص ذاته. وفي أحد الأقفاص لم يكُن لدى هؤلاء الحُرَّاس سوى أن يجعلوا غزالًا صغيرًا يتشارك في القفص نفسه مع وشق أحمر صغير، وكانوا متخوِّفين من حدوث الأسوأ، لكنَّ الموقف كان يائسًا ولم تكُن هناك خياراتٌ أخرى. وحين وُضِع الوشق الأحمر في القفص بعد أن كان الغزال الصغير فيه، قفزَ الوشقُ نحوَ الغزال ليلعَبا، ونَمَتْ ما بين العدوَّين الطبيعيَّين صداقةٌ سريعة، فكانا يلعبان معًا ويأكلان معًا وينامان معًا، وأظهرتِ الصورُ الوشق نائمًا فوق الغزالِ الصغير، وحين وصلتْ أقفاص أكثر تسمح بأن يُقيم كلٌّ منهما في قفص منفصلٍ رفضا أن ينفصلا.

ها تحقيقٌ مبكِّرٌ للوعود النبويَّة- تحقيقٌ يبشِّر بالعالَم الأفضل الذي وُصِف في إشعياء:

"فيسكنُ الذئبُ مع الخروف، ويربُض النمِرُ مع

الجَدي، والعِجْل والشبل والمسمَّنُ معًا، وصبيٌّ صغيرٌ يسوقُها. والبقرة والدُبَّة ترعيان. تربُض أولادُهما معًا، والأسدُ كالبقر يأكُل تبنًا. ويلعبُ الرضيعُ على سَرَبِ الصِلِّ، ويمُدُّ الفطيمُ يدَه على جُحر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يُفسدون في كل جبل قدسي، لأنَّ الأرضَ تمتلئ من معرفة الربِّ كما تُغطِّي المياهُ البحرَ" (إشعياء ١١: ٦-٩).

ولمَن لهم آذانٌ للسمع، إليكم مقدِّماتٍ هادئةً إلى هذه الموسيقا المستقبليَّة تهمسُ إلينا الآن.

الفصل السادس

الاستماع إلى الآخرين

أخذتُ الاستماعَ على محمَل الجِدِّ حين أدركتُ أنَّ هناك أشياء تنقصني، إذ كانت هناك طبقاتٌ من المعنى وفرصٌ للتواصل تتخفَّى تحت سَطح علاقاتي، لكنِّي لم أكُن أسمعها، حتَّى مع أولئك مِن أعزِّ أحِبَّائي، وكنتُ ماهرًا في قول الأمور التي تبدو حكيمةً، لكنِّي كنتُ أكثر مهارةً في الاحتفاظ بالناس على مسافةٍ مناسبة، فحين كانت المحادثة تتحوَّل نحوَ المشاعر، كنتُ أبدأ في البحث عن باب الخروج.

لم تكُن محاولات هروبي محاولات واعية، فلم أكُن مدركًا أنِّي أنسحبُ من محادثاتٍ ومن أشخاص لديهم الشجاعة، أو ربَّما الغباء، بما يكفي للتعبير إليَّ عن أفكارهم ومشاعر قلوبهم، ولم يكُن الامر كما لو أنِّي كنتُ أخرج من الغرفة مغادرًا، لكنْ لو كان ممكنًا لأطلَقَ قلبي ساقيه هاربًا، وكنتُ أحسبُ لحظةَ الألم أو

المصيبة أو الشعور النقيِّ فرصةَ لمشاركة تبصُّري، لإنقاذ شخص من ضعفه، ولتصحيح تفكيرٍ مُشوَّش، ولتبخير الألَم، وفي ذهني كانت أشبَه بفرصةٍ للتفاعُل مع المشكلةِ، وفي الحقيقة كنتُ أفصِلُ تفاعُلي مع الشخص، وكنتُ أظنُّ أنِّي أضيفُ قيمةً إلى المحادثة، لكنِّي كنتُ أقلِّلُ من شأن مُساهماتِ الشخص الآخر. ولدهشتي، لم تفلح استراتيجيَّتي لإصلاح الناس بتاتًا، ولا حتَّى مرَّة واحدة!

بعد ذلك ببضع سنين، حين طُلب إليَّ تسجيل الجُملة المعبِّرة عن رسالتي الشخصيَّة في الحياة، كتبتُ هذا:

''فوقَ كلِّ شيء آخر، أريدُ أن يعرفَ الناسُ الذين في حياتي أنَّه حين يأتون إليَّ، بأيِّ شيء في ذهنهم أو قلبهم، أنَّهم سيُسمعون، وأنا مُكرَّسٌ لسماع قلوب أولئك من هم حولي''.١

من غير المُرجَّح أن يُذكَر هذا الاختبار في سجلَّات التاريخ المسيحيِّ جنبًا إلى جنب مع شاول في الطريق إلى دمشق أو القدِّيس أغسطينوس في لحظة ''خُذ

واقرأ''، لكن من الواضح أنِّي مررتُ بنوعٍ من اختبار التحوُّل، ويودُّ مَن يعرفونني من قُربٍ لعقود أن يمنحوني كأسَ ''الأكثر تحسُّنًا''، وهو ما نعرفُ جميعًا أنَّه يعني ''كنتَ شنيعًا حقًّا، لكنَّنا الآن لا نشعرُ بالحرج نفسه أن تكون معنا في فريقنا''، فيمكنني الحصول على كأس ''المستمع الأكثر تحسُّنًا''، وهو بالتأكيد كأس على شكل أذنٍ ذهبيَّة.

لم تكُن دونا لتتركني لأفلتَ من المحادثات المشاعريَّة، وكنَّا نلتقي كلَّ أربعاء بعد الظهر، وكانت تكرِّرُ ذلك قائلةً: ''ابقَ في الشعور، ابقَ في الشعور، ابقَ في الشعور''، وكانت دونا قد وضعتْ يدَها على ميلي إلى الهروب من المشاعر، مِن مشاعر الناس الذين أعملُ معهم ومن مشاعري أنا، وكان النمطُ واضحًا: ففي كلِّ مرَّة يشاركُ فيها شخصٌ ما شعورًا حقيقيًّا، كنتُ أخبره بطريقة أو بأخرى ألَّا يشعر به، وفي بعض المرَّات كنتُ أحاول مجادلته لإثنائه عن الشعور، وفي بعض المرَّات كنتُ أحاول تحويلَه بطريق الدعابة، وفي بعض

المرَّات كنتُ أقدِّمُ تطمينًا سريعًا مثل: ‘‘لا تقلقْ، فأنا واثقٌ بأنَّ كلَّ الأمور ستكون على ما يُرام’’، وفي أوقات أخرى، كنتُ أحاول أن أصلِّي ليُنزع الشعورُ منه، أي كنتُ طاردَ المشاعر!

كانت الطريقة التي أتعامل بها مع مشاعر الآخرين مؤشِّرًا، كما هي الحال دائمًا، على الطريقة التي كنتُ أتعامل بها مع مشاعري أنا، ففي كلِّ مرَّة أسيرُ فيها نحوَ محادثة مشاعريَّة مُحتملة، كنتُ أدخلُ المحادثة تاركًا قلبي على الباب؛ فلم تكُن لديَّ القدرة الكافية على دخول عالَم المشاعر الخاصِّ بالآخرين، إذ لم يكُن طريقُ عالَم المشاعر الخاصِّ بي طريقًا مألوفًا لديَّ، وحين تكون المسألةُ هكذا، ستكون لديك على الأرجح خدمة الإشراف على الناس بدلَ الجلوس معهم، لكنَّ أفضل الاستماع هو ما يحدثُ حين تجلسُ منصتًا.

أتوقَّعُ أنَّها لم تكُن صدفةً أنِّي سرعان ما وجدتُ نفسي في خدمةٍ تتمحورُ حولَ الاستماع، ولا أعرفُ ماذا أصابني لأقولَ نعم لوظيفة قسٍّ في نُزل رعاية مرضى

في نهاية حياتهم، فلا بدَّ أنَّ أحدَهم في مكانٍ ما وصفَ لي الاستماع على أنَّه علاجٌ لنفسي، ويومًا بعد الآخر مدَّة أربعة أعوام، كنتُ أجلسُ بجانب فراش المحتَضَرين والنائحين، وكم كانت إجابتي مملَّة حين يسألني شخصٌ في تجمُّع أو حفلٍ ما: ‘‘ما عملُك؟’’، ورغم أنَّ كلَّ مجالات الخِدمة هي خدمات استماع (أو ينبغي أن تكون هكذا)، فإنَّ الخدمة في نُزُل رعاية المحتَضَرين تحديدًا يكون الحضور الاستماعيُّ فيها هو تقريبًا كلُّ ما لديك لتقدِّمَه، لكنَّ من الواضح أنَّ هذا ليس بقليل، فلدى المرضى في هذا النُّزل مشاعرُ كبيرة، وما يُدهِشُ هو أنَّه لم يكُن للمرضى الذين تعاملتُ معهم اهتمامٌ كبيرٌ بالمساهمات التي كان يمكن أنْ أقدِّمَها في مواقفهم، وحتَّى المستوى الذي لديَّ من الحكمة لم يكن كما يبدو قادرًا أن يصلح من ‘‘مشكلة الموت’’ هذه كلِّها، لذا كنتُ أستمعُ، وكنتُ أتعاطفُ معَهُم تعاطُفًا وجدانيًّا، وكنتُ أعكسُ المشاعر، ورحلَ بعضُهم عن هذا العالم في سلامٍ، وكان في ذلك الوقت حين اختفتْ

عبارةُ "أنا أستمعُ فقط" من قاموس مفرداتي؛ فالاستماع العميقُ مؤثِّرٌ تأثيرًا يصعبُ معه أن يكون مصحوبًا بكلمة فقط.

قلبٌ مستمعٌ

يمكنك أن تعطيَ شخصًا ما كلَّ أدوات الاستماع، ويمكنك أن تعلِّمَه كلَّ التقنيات الصحيحة، ويمكنك أن تقدِّمَ إليه كلَّ الكلمات البارعة- الاستماع النشط، الاستماع الانعكاسيَّ، إعادة الصياغة والتكرار، الأسئلة مفتوحة النهاية- لكنَّ قدرة استماع الشخص لا تتحدَّدُ بالتقنيات والأدوات الموجودة في جَعبته، فليست للناموس القدرة على إعطاء الحياة، وليس مبتغاي، ولا شخصيَّتي، أن أرسم خطوطًا فاصلةً لمجموعة من القواعد للاستماع الفعَّال، إذ أعتقدُ أنَّنا نظلمُ الاستماعَ بجعله أمرًا ميكانيكيًّا أكثر من اللازم. ويجبُ ألَّا يكون ثقيلًا أو مُملًّا مِثل اضطرارك إلى أكل بعض الخُضَر، بل يمكن أن يكونَ غايةً في الإنعاش الاستماع إلى شخصٍ ما بينما ترى عينَيه تلمعان بينما يكتشفُ أمرًا

جديدًا عن نفسه، ويشعرُ بأنَّ مشاعره مقبولة، وهذا واحدٌ من أعظم أسباب سعادتي.

أفضلُ الطرق لتتطوَّر في استماعك هي تمضية الوقت مع مستمع عظيم، وقد نلتُ من استماع مستمع مخضرمٍ لي أكثرً ممَّا نلتُه من قراءة عشراتَ الكتبً عن الموضوع. وإذا التقيتَ شخصًا يحسَبُ الاستماع نشاطًا طبيعيًّا حدسيًّا، فأضمنُ لك أنَّ هذا الشخص استُمِع إليه حين كان طفلًا، ولم يحظَ الجميعُ بآباء يستمعون إليهم جيِّدًا، ولذلك فالكثيرون يمارسون حياتهم بناءً على عجزٍ استماعيٍّ، لذا نحتاج لأنْ نجدَ مستمعًا نحاكيه، والحقيقةُ هي أنَّه من غير المُرجَّح أن نسمعَ ما لم نكُنْ قد سُمِعنا أوَّلًا.

ما أسعى إليه في بحثي هو قلبُ المستمع؛ فحين سألَ الربُّ الملكَ سليمان عمَّا يريده، طلبَ سليمانُ ما يُترجَم عادةً إلى "قلب فهيم" أو "ذهن مُميِّز"، لكنَّها في العبريَّة حرفيًّا "قلبٌ مستمعٌ" (١ملوك ٣: ٩).٢ وهذه صلاتي أنا أيضًا- من أجل قلبٍ مستمعٍ. لا يمكن أن

يعطيكَ أكثر المعلَمين موهبةَ قلبًا مستمعًا، وأولئك مَن ينمو لديهم قلبٌ مستمعٌ هم مَن يريدون أن يكونوا أشخاصًا بنَوعيَّة معيَّنة، ولذلك لا يهمُّني كثيرًا في الاستماع السؤال عن ماذا، ما يهمُّني أكثر هو السؤال عن مَن، فأسألُ نفسي مَن أحتاج لأن أكونَه لتكونَ لديَّ القدرة على الاستماع؟ مَن الشخصُ الذي يوصَف بالمستمع العظيم؟

من ناحيةٍ، يمكنُك إضافة بعض توابل الاستماع إلى كلامك، مثل تحلية دواء مرٍّ، لكن هل أنت مدفوعٌ حقًّا لتعلُّم كيفيَّة الاستماع إلى الآخرين؟ وهناك تكلفة؛ فبناء الشخصيَّة يكلِّفُ الأنا ثمنًا باهظًا، فهل ستستمعُ ليس مرَّة واحدة فقط بل مرارًا وتكرارًا، مُقبلًا إلى العلاقات بقَصدِ الاستماع أوَّلًا؟ لا يمكنك فقط أن تضغط زرًّا في اللحظة المناسبة فتستمع، بل يمكنك فقط الاستماع استماعًا موثوقًا به في اللحظة المناسبة إذا أصبحتَ من نَوعيَّة الشخص المستمع، الشخص الذي نما لديه قلبٌ مستمعٌ. أريدُ أن أكون مستمعًا، وليس مجرَّد شخصٍ

يستمع أحيانًا.

يبدأ الوصولُ إلى ذلك المكان ببعض التفكير الذاتيِّ الأمين، فلأي غرض أدخل محادثةٍ؟ هل هي فرصة للتعبير عن آرائي، أم فرصةٌ لكي أسمع أنا؟ هل أسعى إلى الانتباه؟ هل أحاول تسلية الشخص الآخر أو تقديم أداءٍ ما إليه، لكي أقنعَه أنِّي محبوبٌ أو جذّاب؟ هل أحاول أن أظهرَ للآخرين أنِّي على حقٍّ وأحوِّلهم إلى طريقة تفكيري؟ هل المحادثة سباقٌ لحل مشكلةٍ؟ هل لديَّ أجندةٌ جامدةٌ أرغبُ في تنفيذ نقاطها؟ ويرتبطُ بهذه الأسئلة أيضًا، كيف أرى الشخص الآخر في المحادثة؟ أهو مجرَّد شخص أعكسُ عليه أفكاري؟ هل أنا الخبيرُ المُفترَض وهو المبتدئ الذي يحتاج إلى التعلم؟ جمهورٌ لا يملك سوى الاستماع إلى قصصي مُضطرًّا؟ طرفُ نزاعٍ أحاول هزيمتَه؟ شخصٌ يتلقَّى كلامي الفارغَ من أيِّ معنى؟

إذا كنَّا أمناء، فسنكتشفُ على الأرجح أنَّ بعضًا من تلك الأساليب هي على الأقلِّ صحيحة جزئيًّا لجميعنا،

وإذا لم تكُن واثقًا بشأن شعورك بالذَنب في هذه المناطق، اسأل صديقًا موثوقًا به سيقولُ لك الصدق، وحينها سيقلُّ شكُّك، وإذا تعمَّقنا أكثر قد نكتشف أنَّ أساليب محادثاتنا وطرق تعاملنا مع الناس تنبعُ من بعض الأنانيةِ في قلوبنا، فعكسُ القلب المستمع ليس هو القلب المتكلِّم، بل القلب الأنانيُّ.

أعتقدُ أنَّ الاستماع الحقيقيَّ هو في حالة حربٍ ضدَّ الأنانيَّة الراسخة في القلب البشريِّ، فالقلبُ المستمع هو قلبٌ يسعى لكي يعطي ويتعلَّم ويُرحِّب ويخدُم؛ ففي صورةٍ صغيرة، لكنَّها حقيقيَّة، يحاكي الاستماعُ عمل يسوع في إخلائه لنفسِه، الذي تنازل طواعيةً عن حقوق سيادته ليخدمَ ويبذلَ حياته٣؛ فالقلبُ المستمع يثابر ليَطرحَ عنه السيطرةَ، متخلِّيًا عن كلِّ الطرق التي يمكننا بها التلاعُب بمحادثةٍ من أجل مكاسبنا، وهو قلبٌ قادر أن يتوقَّف في منتصف فكرةٍ ويقول: ''أنت على حقٍّ''، فقلبُ المستمع هو قلبٌ يخضعُ. قلبٌ يبدأ في ممارسة نصيحة بولسَ ''خاضعين بعضُكم لبعض في

خوف الله" (أفسس ٥: ٢١)، ويسعى القلبُ المستمعُ لأن يكونَ حاضرًا، ويركِّزَ على شيء بخلاف نفسِه مقدِّمًا اهتمامًا وانتباهًا.

محاولة إصلاح الآخرين أو إنقاذهم أو تغييرهم هي كلُّها طرقٌ خفيَّة لممارسة السطان على آخرين، فبدل دخول عالَم شخص آخر، نحاول إجباره ليدخل هو عالمنا، أمَّا الاستماع الجيِّد فيقلبُ ديناميَّة السُّلطة، فمَن سيكون السيِّد يصبح الخادم، ومَن كان في مكان الجمهور المضطرِّ إلى الاستماع يصبح هو مَن يحكي القصَّة.

لا يتوقَّفُ الجزء الخاصُّ بسؤال "مَن" في حياة الاستماع عند المستمع فقط، فرغم أنَّ ذلك سيبدو أمرًا مفروغًا منه وبديهيًّا جدًّا، فإنَّ علينا تذكير أنفسِنا أنَّنا نستمع إلى أشخاصٍ؛ فالاستماع الجيِّد يطردُ الصورة السطحيَّة عن الناس، حيث إنَّ الناس هم حاملو صورة الخالق المحبوبون، الذين يتَّسمون بالتعقيد إذ لهم جمالٌ خاصٌّ وجوانب وطبقات عدَّة، وهُم أيضًا مجروحون

ومتناقضون، هُم أذهانٌ وقلوب ونفوسٌ وأجساد، يفيضون بالأحلام والشغف والجراح والندم والمخاوف، وكما صاغَ الأمرَ إتش. جاكسون براون (H. Jackson Brown) قائلًا: "تذكَّر أنَّ كلَّ مَن تلتقيه يخافُ من أمرٍ ما، ويحبُّ أمرًا ما، وقد فقد أمرًا ما" ٤. ومن الشائع أنَّ فيلون السكندريَّ (Philo of Alexandria) قال: "كُن لطيفًا؛ فكلُّ مَن تقابلُه يحاربُ في معركةٍ ضخمة" ٥، لذا علينا التحرُّك بحرصٍ ولُطف، والتركيز على سماعِ قلوبِ الناس الذين في حياتنا وليس فقط كلماتهم.

أقترحُ أنْ يكون هدفُنا هو الاستماع إلى وليس الاستماع من أجل، ففي الاستماع من أجل نستمعُ مثل ممثِّل الادِّعاء، في محاولةٍ لكشف دافع خفيٍّ أو اصطياد الشخص متورِّطًا في موقف تناقُض أو إيجاد شيء يؤكِّد شكوكنا، فننصب حينها الفخَّ، متأهِّبين لنَقولَ في أيَّة لحظة: "أرأيت؟"، ولذلك فالاستماع من أجل هو استماعٌ تفكيكيٌّ، حيث نفصِّلُ الناسَ ونحلِّلُهم إلى أجزاءٍ، إذ نستمعُ لنجمعَ البيانات، فنختزل الناسَ في

أمورٍ أو فئات أو مواقف في جدَلٍ ما. كما قد نراهم بوصفهم مشكلات تحتاج إلى حل، أمورًا تحتاج إلى تشخيص، أو عيوبًا تحتاج إلى تصحيح، فنستمعُ من أجل مساحات نبثُّ فيها أفكارنا، ونكون حينها في خطر تحويل الناس إلى مجرَّد مصدَّاتٍ لآرائنا وتحويل كلماتهم إلى منظومة لتأمُّلاتنا، ويكتبُ ديتريتش بونهويفر (Dietrich Bonhoeffer) "ليست إرادة الله أن أشكِّلَ الشخص الآخر بحسب الصورة التي تبدو جيِّدة لي، بمعنى أن يكون على صورتي".٦

حين نستمعُ إلى الناس، نقبلُهم بوصفهم كيانًا كاملًا، وليسوا أجزاء، حتَّى إذا كانوا يقدِّمون إلينا فقط جزءًا صغيرًا من أنفسِهم، فذلك الجزء الصغير يرتبطُ بأجزاء وذكريات وقصص ومشاعر وخسارة وأحلام؛ فالاستماع "إلى" هو عملٌ بنَّاءٌ؛ حيث نساعد الناسَ ليجدوا تكامُلًا لأجزائهم المتنوِّعة، وهو دعوةٌ للآخرين كي يستقرُّوا، ويكونوا أنفسَهم ويتحدَّثوا بحرِّيَّة، ولا يهمُّ إنْ كانت اختباراتهم مختلفة عن اختباراتي، أو خلفيَّاتهم

غير مألوفة لي، أو إن كانوا يرون الأمور رؤية مختلفة ولهم آراء مختلفة ويتعاملون مع المشاعر تعامُلًا مختلفًا، فمع كلِّ هذا هُم مُرحَّبٌ بهم في مكاني.

كيف تصبح مستمعًا سيِّئًا

إذا كانت الرغبة أمرًا أساسيًّا للوصول إلى الاستماع الجيِّد، فأصلُ الاستماع السيِّئ ليس هو التقنية المعيبة، بل هو نقصان الدافعيَّة؛ فالدافعيَّة ستسترُ أيَّ قدرٍ من أخطاء الاستماع، وفي الوقت نفسه، ستقودُ الشَّخصَ إلى شَحْذِ طُرق استماعه وتحديد أنماط الاستماع السيِّئة لديه، فلنكُنْ صادقين مع أنفسِنا: هناك بعض الاستماع السيِّئ، وقد تكون المشكلة الأكبر هي أنَّ هذا الاستماع السيِّئ يتخفَّى في صورة استماع جيِّد. فبعضُ الناس يعتقدون أنَّهم مستمعون جيِّدون في حين أنَّهمٍ ليسوا كذلك، وبعضُ الناس يصفُون آخرين خطأً أنَّهم مستمعون جيِّدون.

إليك بعضًا من أولئك المشتبه فيهم في تلك القضيَّة المستمرَّة من الاستماع السيِّئ.

- المزايدة. ‘‘أتعتقدُ أنَّ ذلك مهمٌّ؟ فلأخبرْك بشأن ما حدث لي الأسبوع الماضي!’’ وهنا يجلسُ المستمعُ صامتًا بينما يقصُّ الشخصُ الآخر قصَّته فقط ليحاول المزايدة بقصَّة أفضل وأمتع، وهنا تكون المحادثة منافسة أكثر منها محادثة.
- خفَّة يد. ‘‘نعم، نعم، صحيح، رائعٌ، لكن ما أودُّ حقًّا الحديثَ بشأنه هو...’’، وهنا يهدِّئُ الاستماعُ المتحدِّثَ خادعًا إيَّاه نحوَ شعورٍ زائف من الأمن لئلَّا يرى الخدعة، وهي ما لدى المتحدِّث من نقاط محدَّدة يرغبُ في تمريرِها في المحادثة.
- المفتِّش. ‘‘ألم تقُل الأسبوع الماضي إنَّك...’’، وهنا يطرحُ المستمعُ سلسلة من الأسئلة، وغالبًا ما تكون أسئلة مُغلقة، بطريقةٍ تبدو وكأنَّها مِن مُحقِّقٍ يستجوبُ مشتبهًا فيه، محاولًا الإيقاعَ به لكي يعترفَ، وهنا يكون

الاستماع أشبَهَ بالبرقِ الذي يسبقُ الرعد، أو الفتيلِ المحترق ما قبلَ الانفجار.

- تغيير المسار. ‘‘يذكِّرُني ذلك بـ...’’، وهنا يأخذ المستمعُ الموضوع الذي تناوله المتحدِّثُ ويحوِّله، مهما كان التحويل مُقحَمًا، إلى الموضوع الذي يريدُ هو الكلام عنه أو إلى القصَّة التي يريدُ أن يذكرها، وحينها لن يمنعه أيُّ شيء عن التكلُّم بشأن ما أتى ليتكلَّم عنه.
- الإسقاط. ‘‘أنا أعاني الأمرَ نفسَه تمامًا!’’، وهنا يُسقِطُ المستمعُ مشكلاته على المتحدِّث، ثمَّ يُسقِطُ حلولَه على مشكلات المتحدِّث؛ فالمُسقِط يرى نفسَه في كلِّ محادثة.
- الاستجواب. ‘‘ما رأيُك في...؟ ما...المُفضَّل لديك؟ لماذا ستنتقل إلى...؟’’، وهنا يبدأ المستمعُ يظنُّ أنَّ فكرة الاستماع تتعلَّقُ بطَرْح الأسئلة، وليس هذا بالأمر السيِّئ، لكنَّه حينَها يُمطِرُ المتحدِّثَ بالأسئلة كأنَّهما في مباراة،

وهذا سيِّئ. وهنا نتعلَّم أنَّ من الممكن للأسئلة رغم فائدتها أن تكونَ مُسيطِرةً جدًّا، ويمكنها أن تكون وسائل لتمرير ما في أجندة السائل من نقاطٍ.

- كلمة السرِّ. "الجبن! أكلتُ أفضل جبنٍ في حياتي في حفل عشاء مع عُمدة المدينة الأسبوع الماضي!"، وهنا يجلسُ المستمعُ في هدوءٍ عبْر محادثة المتحدِّث، لكنَّه يلتقطُ كلمة واحدة يستخدمُها المتحدِّث، وسطَ بحرٍ من الفقرات، ويتعاملُ معها بوصفها كلمةَ السرِّ التي ستفتح البابَ لمحادثةٍ جديدة تمامًا، وليس للسياق الأصليِّ أيَّة علاقة بالحديث الذي ستقودُ إليه كلمةُ السرِّ، وقد يبدو هذا الأمر مضحكًا، لكنَّه يحدثُ أكثر ممَّا تعتقد، وغالبًا ما تبدأ جملة كلمة السرِّ بعبارة "بمناسبة...".
- الخاطف. ينبغي تقديرٍ مجهود المستمع في هذه الحالة؛ فعلى الأقلِّ هو أمينٌ ولا يحاول

التظاهُر باستخدام ما قاله المتحدِّث لينطلقَ إلى موضوعٍ آخر، إذ يمتنعُ تمامًا عن الحديث بينما يتكلَّم الشخصُ الآخر، ثمَّ بعدها يبدأ هو في التكلُّم بشأن أيِّ شيء في ذهنه، كما لو كان الطرفان يعانيان صممًا، ويُذكِّرني هذا بتعبير سمعتُه يقول إنَّ معظم الناس لا يدخلون حوارًا ثنائيًّا، بل يؤدُّون حوارًا أحاديًّا في وجود شخصٍ آخر.

- الحِرفيُّ. ‘‘إليك ما ينبغي أن تفعله...’’، وهذا الشخصُ يستمعُ مثلما يستمعُ الميكانيكيُّ إلى طقطقةِ المحرِّكِ محاولًا تشخيص المشكلة بُغية حلِّها، وعلى عكس الاعتقاد الثقافيِّ الشائع، ليس الرجال فقط هم مَن يَقَعون في هذا، بل النساء أيضًا.
- مسألة خلافيَّة. ‘‘لا أتَّفقُ مع ذلك الأمر!’’، هناك للأسف عددٌ من المستمعين الذين يستمعون تحديدًا باحثين عمَّا يختلفون معه. وإنْ كنتَ لا

تصدِّقُ هذا، فاسألْ قسًّا بشأنِ ما يتكلّمُ به الناسُ إليه بعد عِظةٍ يُقدِّمُها، حتَّى وإنِ اتَّفقوا مع ٩٩٪ ممَّا تقولُه العظة، فيسنقضُّون على ما لا يتَّفقون معه، وإنْ كان ١٪، وبذلك يتجاهلون ما هو مهمٌّ للمتحدِّث.

- المُشتِّت. ‘‘نعم، لكنَّك...’’، وهذه الاستراتيجيَّة هي ملاذ مَن يجدون صعوبةً في تقبُّلِ النَّقد. ولنكُن أمناء مع أنفسِنا: نحن جميعًا ننتمي إلى هذه المجموعة منِ الناس. فإذا قدَّم إلينا أحدُهم رأيًا، نردُّ الجميل سريعًا دون تمضية وقتٍ لاستيعاب ما قاله.
- السؤال المرتدُّ. ‘‘هل أمضيتَ إجازة جيِّدة؟ أنا شخصيًّا...’’، وهنا يسألُ الشخصُ شخصًا آخر سؤالًا وقصدُه الحقيقيُّ هو الإجابة عن هذا السؤال بنفسه، إذ ينطلقُ السؤال خارجًا ثمَّ يرتدُّ ثانيةً، فإذا كنتَ تعرفُ إجابة سؤالك فيجب عليك ألَّا تطرحَه. وفي بعض الأحيان،

حين يُطرح أمامي سؤالَ مرتدٌّ، أردُّ قائلًا: "لِمَ لا تخبرني كيف كانت إجازتك أنت؟"، وعادةً ما يُفهم ما أقصدُه حين أقول ذلك.

يقولُ المتَّهمون بهذه التصرُّفات الاستماعيَّة السيِّئة إنَّ نيَّاتهم طيِّبة، ويقولون إنَّهم يجلسون في هدوء سامحين للشخص الآخر بالكلام قبل أن يتدخَّلوا، ثمَّ يكونون قد استمعوا استماعًا ناجحًا. والمشكلةُ هنا هي أنَّ الصمتَ والاستماع ليسا الأمر ذاتَه؛ فليس الاستماعُ هو ما تفعلُه حين لا تعرفُ ماذا تقولُ، فإذا استخدمتَ صمتك للتعمُّق في ما يحدثُ داخليًّا- لتستمعَ إلى حوارك الفرديِّ الداخليِّ، أو لتصل إلى أسئلة أكثر، أو لتكوِّنَ نقدًا أو ردًّا، أو لتعدَّ قصَّتك الخاصَّة أو لتفعلَ أيَّ شيء آخر يكون فيه التركيز أقلَّ على ما يتواصلُ به الشخصُ الآخر وأكثر على أفكارك أنت بشأن ما يتواصلُ به الشخصُ الآخر- فحينها أنت لا

تستمعُ استماعًا جيِّدًا؛ لأنَّ الاستماعَ الحقيقيَّ هو مسألةٌ داخليَّة، ووحدَه المستمع هو مَن يقدرُ حقًّا أن يعرفَ ما إذا كان يستمعُ أم لا في أيَّة لحظة. فمن الممكن بسهولة أن تلعبَ دورَ الاستماع دون أن تصبح مستمعًا حقيقيًّا.

المشكلة الثانية والأشهرُ هي أنَّه حين تكون قد انتهيتَ من الامتناع عن الحديث، تُحوِّل المحادثةَ إليك في الحال، فيكون ردُّك أو قصَّتُك أو اختلافُك أو سؤالك أو الأجندة الخاصَّة بك هي كلُّها عنك أنت. ونتيجةً لذلك، يبدو الهدوء الذي قدَّمتَه أشبه بتصنُّع، كما لو أنَّك كنتَ ببساطة تنتظرُ من أجل فرصةٍ سانحة حتَّى يحينُ دورُك في الكلام، فإذا كنت "تستمع" بحيث يحتاج المتحدِّثُ إلى التحوُّل المفاجئ إلى الاستِماع، فلستَ تفعل الأمر بالطريقة الصحيحة.

يبدأ الاستماعُ الجيِّدُ بفرضيَّة أنَّ هذه المحادثة ليست عنك أنت، وليسمح لي القارئ بتكرار نفسي: هذه المحادثة ليست عنك أنت، ومع ذلك فكلٌّ ما فينا يريدُ أن يجعلها عنَّا، وهو إغراء موجودٌ دائمًا، حتَّى وإنْ لم نكُن مدركين له، أو ربَّما خصوصًا إنْ لم نكُن مدركين له.

إنَّ هدفي هو تبسيط فنِّ الاستماع، فنِّ عدم جعلِ المحادثة تدورُ حولك بقدر المستطاع، لذا تخيَّلْ سهمًا كبيرًا يرفُّ فوقَ المساحة ما بين شخصَين في محادثة، وهذا السهمُ ذكيٌّ جدًّا وقادرٌ على قراءة الأذهان، ويدور السهمُ مشيرًا إلى الشخص الذي يتركَّزُ عليه الانتباهُ في المحادثة. فعلينا كي نستمعَ أن نُذكِّر أنفسَنا أن نوليَ انتباهًا مُحبًّا ومركَّزًا على آخر، لذا فبوصفك المستمعَ في هذه المحادثة، هدفُك هو المحافظة على السهم مشيرًا إلى الشخص الآخر لأطول مدَّةٍ ممكنة، وهذا هو كلُّ ما في

الأمر، فوجِّهِ السهم نحوَ اهتمامات الشخص الآخر واحتياجاته وقلبه، وشجِّعه على الاستمرار في الكلام، وليتعمَّق في فكرةٍ أو قصَّة أو ذكرى أو شعور، وحينها تكونُ مستمعًا حقًّا، فإذا لم تذكُر أيَّ شيء آخر من هذا الفصل، فقط تذكَّرْ هذا.

مشكلةُ هذا السهم هي أنَّ قوَّة جاذبيَّته تسحبُه دائمًا بقوَّةٍ في اتِّجاهِك أنت، تمامًا مثل بوصلة تشيرُ في اتِّجاه الشمال، فمكان استقرار السهم هو فوقك أنت، فهو يريدُ أن يشير إليك، لذا فحتَّى في الوقت الذي فيه يتمركز فوق الشخص الآخر يهتزُّ محاوِلًا العودة إلى مكان استقراره، لذا فعلى المستَمع الجيِّد أن يكونَ صارمًا في دَفْع السهم في اتِّجاه الشخص الآخر، وفي أثناء مسار المحادثة تحتاج إلى دَفْعه بعيدًا عنك ليس فقط مرَّة واحدة بل مرَّاتٍ متكرِّرة.

إذَا السؤال المحوريُّ في محادثة استماعيَّة هو: كيف يُحافَظ على السَّهْم مشيرًا إلى الشخصِ الآخر؟ إنَّ أفضل طريقة لدفْع السهم هي بطَرْح أسئلةٍ جيِّدة مفتوحة النهاية، والسؤال مفتوح النهاية هو السؤال الذي ليسَتْ له إجابة مختصرة بنعم أو لا، فالأسئلة التي لها إجابات مختصرة هي الأسئلة المغلقة.

سؤال مُغلق: هل استمتعتَ بعُطلة نهاية الأسبوع؟ [الإجابتان المحتملتان: ''نعم'' أو ''لا''].

سؤال مفتوح: كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع خاصَّتك؟ [الإجابات المحتملة تضمُّ: ''كانت رائعة، فقد ذهبنا إلى...'' أو ''كانت فظيعة بسبب...''].

مع أنَّ للأسئلة المغلقة فائدةً في جَمْع المعلومات وتأكيدها، فإنَّه يميلُ إلى الحدِّ من المحادثة؛ إذ يتركُ المتحدِّث دون أيِّ مكان

يمكنُه الذهاب إليه، ويديرُ السهم عائدًا إلى المستمع بعد أن يُجاب عنه. أمَّا السؤال المفتوح فهو دعوةٌ، وهذه الدعوة ترحِّب بالمناقشة وبالاستفاضة من جانب المتحدِّثِ، والسؤال المفتوح الجيِّد هو سؤالٌ لطيفٌ محبٌّ للمعرِفة دون تلميح للسيطرة أو لأجندة خاصَّة. وبدلَ أن يكونَ مُلزمًا مثلما هي الحال مع السؤال المغلق، يعطي المتحدِّثَ الحرِّيَّة للإجابة كيفما شاءَ أو حتَّى حرِّيَّة عدم الإجابة أصلًا؛ فالسؤال المفتوح يجعلُ الشخصَ يتكلَّم عن نفسه، وإذا كنتُ قد تعلَّمتُ أيَّ شيء بشأن الاستماع، فهو أنَّ الناسَ يحبُّون التكلُّم عن أنفسِهم، فإذا جعلتَ شخصًا، حتَّى لو كان خجولًا، يتكلَّم عن نفسه، فيمكنك أن تتوقَّع محادثةً طويلة.

يتميَّزُ الكثيرون بمهارة طرح السؤال الأوَّل، ومع ذلك فالسؤال الثاني هو غالبًا السؤال الذي

يفتحُ المحادثة. وأغلبُ الناس معتادون نوع المحادثة من نمط الذهاب والإياب، مثل مباراة تنس كلاميَّة، لذا فبعد أن يكونوا قد انتَهَوا من الحديث يتوقَّعون أنَّ الشخص الآخر سيبدأ، لكن ماذا لو أخذتَ ما قاله وقدَّمتَ سؤالَ متابعة؟ فسيؤخذُ على حين غرَّة، ويتعطَّل النموذج التقليديُّ من هذه المباراة الكلاميَّة ويمكن حينها للاستماع الحقيقيِّ أن يبدأ، إذ يمكن أن يفتَحَ سؤالٌ غير متوقَّع يُطرَح في الوقت الصحيح عالَما كاملًا، وكثيرًا ما سيتباطأ إيقاعُ المحادثة عند تلك النقطة إذ يدركُ المتحدِّثُ أنَّك مهتمٌّ بما يقولُه وأنَّك لن تقتحم المحادثة إذا توقَّف ليفكِّرَ أو إذا تحدَّثَ ببطء، وسيبدأ الشخصُ يثقُ بأنَّك لستَ فقط هناك في انتظار دورك لتتحدَّث أنت.

يبدو الأمرُ بسيطًا أكثر من اللازم، لكنِّي لا أعرفُ سؤالًا ثانيًا أفضل مِن سؤال ''أيمكنُكَ

أن تُخبرَني المزيدَ بشأن ذلك؟''، ويمكنك تعديلُه بالتأكيد ليناسبَ السياقَ والموضوعَ، لكنَّ ذلك هو جوهر السؤال. فمثلًا إذا عادت زوجتُك إلى المنزل بعد يوم سيِّئ وبعد أن شاركتك السبب، فبدل أن تتكَّلم مباشرةً عن يومك أنت، يمكنك أن تسأل: ''أخبريني بالمزيد، لماذا ضايقكِ ذلك الموقف بهذا القدر؟''، أو مثلًا لو تسبَّبَ ابنُك في مشكلةٍ ما في المدرسة، فبدل توبيخه، يمكنك أن تسأله دون إخجاله: ''كيف كان شعورُك حين فعلتَ ذلك؟''، فإذا كانت لدى الشخص قصَّة يَحكيها، أو شكوى لينفِّسَ بها أو فكرة يشارك بها، أو اعتراف يقدِّمه، أو شعورٌ يعبِّر عنه، أو سرٌّ يخبر به، فالمستمع الجيِّد سيقول له: ''أخبرني بالمزيد''.

طريقةٌ أخرى لدفْع السهم ليعود إلى المتحدِّث هي أن تردَّ عاكسًا إليه ما قد سمعتَه، ودائمًا ما

تظهرُ هذه الطريقة في جلسات المشورة الزوجيَّة، لا سيَّما مع الأزواج الذين تمرُّ بِهم السنين وهم يتكلَّمون عن أمرَين مختلفَين ظانِّين أنَّهما يتكلَّمان عن الأمر نفسه، والمثال التقليديُّ يبدو هكذا:

المتحدِّث: أنا حزينةٌ لأنَّك لا تُخرِجُ القمامة حتَّى، بينما أعدُّ أنا الطعام وأنظِّفُ المطبخ بعدها، أنا لا أشعرُ أنَّك تُثمِّنُ المساهمات التي أقدِّمُها.

المستمع: يبدو لي بناءً على ما تقولينه أنَّك لا تشعرين بأنَّ ما تفعلينه في المنزل مقدَّرٌ، وتشعرين بذلك حين لا أُخرِج القمامة.

لنكُن أمناء مع أنفسِنا: لو كانت هناك محادثات أكثر من اللازم مثل هذه المحادثة، لاستُنزِفَ الحبُّ من أيَّة علاقةٍ. وبوصفي ممَّن يجلسون في بعض من جلسات المشورة هذه سأعترفُ أنَّ الردَّ على المتحدِّث مقدِّمًا انعكاسًا

لما قِيلَ، وإعادة صياغة ما قاله الشخصُ، وفعلُ ذلك بصورة مُفرطة يجعلني أريدُ أن ألقيَ بنفسي من النافذة! لكنَّ الهدف هو قَطْع الطريق على ردٍّ دفاعيٍّ والاحتفاظ بالاهتمام مركَّزًا على المتحدِّث، فبدل رَفْض ما قيلَ أو إظهار الخصومة، يتوقَّف المستمعُ ليُلاحظَ ما قاله الشخصُ الآخر وما المشاعر وراء الجُملة، فيحتفظ بالسَّهْم موجَّهًا إلى الآخر.

في مسار المحادثات اليوميَّة، لا ينبغي للردِّ الانعكاسيِّ أنْ يكونَ بهذه الميكانيكيَّة، فمثلًا إذا دخلَ زوجُكِ في نوبة شكوى بشأن رئيسِه؛ لأنَّه مسيطرٌ على كلِّ الأمور الصغيرة والكبيرة في العمل، يمكنُكِ الاحتفاظ بالسهم مشيرًا إليه بإظهار مواجدتكِ قائلةً: ‘‘يبدو أنَّك غاضبٌ وتشعر بأنَّك مسَيطرٌ عليك في العمل هذه الأيَّام’’، ثمَّ يمكنكِ التوقُّف، فلستِ تختصرين ببساطة ما قاله كما لو أنَّكِ تكتبين

تقريرًا بالنيابة عنه من المحادثة، لكنّكِ تستجلبين ذهنَكِ وقلبك ومنظورك إلى المحادثة، لكنَّكِ هنا تمارسين نوعًا مخترِقًا من الاستماع، إذ تستمعين مصغيةً إلى جوهرِ ما قاله الشخصُ الآخر، الأمر الذي قد لا يكَون المتحدِّث نفسُه قادرًا على فعله، حيث تغربلين الكلمات مُحدِّدةً لبَّ المشاعر أو الأفكار أو المعتقدات أو المشكلات، وفي هذه الحالة تكونين قد استمعتِ مصغيةً إلى الشعور القابع تحتَ تحدِّيات عمل زوجِك، ويُطلق على هذا تأييد الشعور وهو أمرٌ كبيرٌ، فحين يؤيِّدُ شعورُ شخصٍ يصبح انفتاحُ المحادثة أمرًا ممكنًا، وحينها تكون الأمور على وشك التعمُّق.

طريقةٌ ثالثة لدفْع السهم نحوَ الشخص الآخر هي بالإجابة عن سؤالٍ بسؤال، وإذا كنتُ قد تعلّمتُ أيَّ شيء في الاستماع على مدار خمسة عشر عامًا الماضية فهو أنَّ الناس

يحبُّون طلب النصيحة، لكنَّهم حين يطلبونها لا يكونونِ في الغالب يريدونها، بل يريدون فرصةً لمناقشة صراعهم، فلكلِّ طلب نصيحة قصَّةٌ شخصيَّة أو مشكلة شخصيَّة وراءه، فإذا قدَّمتَ النصيحة أسرع من اللازم، فأنت لا تسمعُ الشخص، فرَدٌّ بسيطٌ مثل ’’لماذا تطرحُ هذا السؤال؟‘‘ سيأخذُ المحادثة إلى مستوى الدافع، حيث يوجدُ المعنى الحقيقيُّ. وعمومًا كلَّما اكتشفتَ ما يريده الشخصُ الآخر التكلُّم بشأنه تسيرُ المحادثةُ طريقًا أفضل.

وأخيرًا، طريقةٌ للاحتفاظ بأن يظلَّ السهمُ الذكيُّ موجودًا فوقَ الشخص الآخر هي بالاستماع النَّشط، فالمستمع الخامل يقدِّمُ تجاوبًا وتعبيرات وجه غيرِ كافية، حيث يحملقُ في المتحدِّث حملقةً سارحة، أمَّا الاستماع النشطُ فيقرُّ بأنَّ المحادثة الجيِّدة تتضمَّنُ طرفَين منخرطَين، وفي الحقيقة،

يعملَ المستمعُ عملًا أصعب من المتحدِّث، فلكي تكون مستمعًا نشطًا عليك الانخراط في التفاعل انخراطًا مرئيًّا، بحيث تساعدُ المتحدِّث ليثقَ بأنَّك حاضرٌ وملتَفتٌ، وتتضمَّنُ التعبيراتُ الكلاسيكيَّة للاستماع النشط، فضلًا عن الأسئلة الجيِّدة، إيماءَ الرأس بالموافقة، تواصلَ العينَين، تعبيراتٍ مثل ''أها'' أو ''حقًّا؟'' أو ''صحيح''، ووضعُ جسمٍ يدلُّ على الانتباه مثل الميْل إلى الأمام في اتِّجاه المتحدِّث، وأحبُّ تشبيه الاستماع النشط بما اختبرتُه في بعض الكنائس الخمسينيَّة حيث يُحمِّسُ جمهورُ المتعبِّدين الواعظ بردودٍ صوتيَّة مثل ''آمين'' و''نعم، نعم''٧، فالاستماع النشطُ هو طريقةٌ لإخبار المتحدِّث أن يستمرَّ، وإذا لاحظتَ أنَّ المتحدِّث أصبح حيًّا ومفعمًا بحيويَّة أكثر في أثناء المحادثة، فأنت تمارِسُ الاستماع النشط، لهذا يمكنُك أن

تستمرّ.
يتطلَّبُ الاستماعُ النشطُ طاقةً، وقد يكون ذلك شاقًّا بعد يوم طويل، إذ يلعبُ التعبُ عامًلا مهمًّا في الاسًتماع الخامل، وأعتقدُ أنَّ هذا هو سببُ صعوبة الاستماع في عائلاتنا، إذ نكونُ مع شريك الحياة وأطفالنا في أقصى لحظات تعبِنا في أثناء اليوم، ويمكنٍ أن يكونَ الأمرُ مُحبطًا إذ يمكننا تمضية كلِّ اليوم مستمعين إلى أناسٍ قد لا نجدُ الاستماعَ إليهم ممتِعًا، وبعد ذلكً حين نكون مع أناسٍ نريدُ الاستماع إليهم أكثر من أيِّ شخص آخرً تكون طاقتُنا قد نفدت. ونحتاج أحيانًا إًلى القدرة على قول: ’’أريدُ حقًّا سماعَ ذلك، لكنّي منهكٌ الآن، ولا أستطيعُ أن أولِيك انتباهي الكامل، هل يمكنني الاستماعُ إليك في الصباح؟‘‘، ورأيي أنَّ فترات قصيرة من الاستماع النشط أثمنُ كثيرًا جدًّا من فترات طويلة من الاستماعِ الفاتر.

إحدى طرق قياس مهارة المستمع هي قياس جودة ردوده، فليس معنى الاستماع هو البقاء صامتًا أو الحملقة السارحة في المتحدِّث، إذ يمكننا التيقُّن من أنَّه إذا كان الشخصُ يقدِّمُ استنتاجات لا ترتبطُ بمنطق ما قيل أو إذا كان ينحرفُ بالمحادثة إلى منعطفاتٍ أخرى فهو لا يستمع استماعًا جيِّدًا، فالمستمعُ الماهر يردُّ ردودًا دقيقة ومباشرة على ما قد قيل، وتتسابُ أسئلتُه انسيابًا حيويًّا من المحادثة نفسها، وليس كما لو كانت المحادثة ما بين غريبَين.

أن تفهمَ قبل أن تُفهَم

''أيُّها السيِّدُ القدُّوس، هَب ألَّا أطلب:
أن أتعزَّى بقدر ما إن أعزِّي،
أن أُفهم بقدر ما أفهَم،
وأن أحَبَّ بقدر ما أُحِبُّ''.٨

القلبُ المستمع، آخذًا هذه الإشارة من صلاة

القدِّيس فرنسيس، هو القلب الذي يطلبُ أن يَفهَم قبل أنْ يُفهَم، وهذا العملُ هو عملٌ راديكاليٌّ في عالَم من التبرير الذاتيِّ، ولهذا نحتاج إلى طلب قوَّةٍ من الأعالي لإنجازه، وحين أفكِّر في أنماط محادثاتي اليوميَّة، أدركُ قدر الجهد الذي أبذلُه في إيضاح نفسي والدفاع عنها محاولًا جعْل الشخص الآخر يفهمني، لا سيَّما إذا كان هناك اختلافٌ أبذلُ كمِّيَّات مَهولةً من الطاقة محاولًا شَرْحَ نفسي، فماذا لو أخذتُ الطاقة نفسَها وركَّزْتُها على فَهْم الشخص الآخر، ساعيًا إلى الإيضاح حين أتشوَّشُ، وطارحًا بلُطفٍ الأسئلة التي تتعمَّقُ بنا إلى عالَم الشخص الآخر؟

يعرفُ المستمعُ المخلصُ أنَّ هناك دائمًا المزيد لتعلُّمه بشأن الآخر بغضِّ النظر عن مدى معرفتك به؛ فهناك دائمًا المزيد عن القصَّة، وهناك المزيد من الطبقات التي يمكن

استكشافُها، والمزيد من الذكريات التي يمكن قصُّها، والمزيد من المخاوف التي يمكنُ أن تقودَنا نحوَ الصمت، ويجبُ ألَّا ننسى أنَّ الاستماع من أجل الفْهم يفترضُ أنَّه ليس لدينا فهمٌ كافٍ عن الشخص الآخر، فكم من نزاعات واختلافات تبدأ لأنَّنا نعتقدُ أنَّنا بالفعل نفهمُ بعضُنا بعضًا؟ وترتفعُ مستويات الخطر حين نفترضُ أنَّا نعرفُ ما سيقولُه الشخصُ الآخر، والرأي الذي سيتبنَّاه أو دوافعه الحقيقيَّة.

يمكنُنا بالفعل البدء في الردَّ على شخص قبل أن يكونَ قد نطقَ بكلمةٍ، وذلك هوً أحدُ الأسباب التي تجعلُ من الاستماع إلى الأشخاص الذين نعرفُهم لوقتٍ طويل أمرًا أصعب حقًّا، إذ نفترضُ أنَّنا نعرفُهم بالفعل، فقد فقدنا القدرة على الاندهاش تُجاهَهُم، لكنَّ الاستماعَ النَّشطَ دائمًا ما يكون منفتحًا إلى

الدهشة، فالاستماع يأخذ جدِّيًّا فكرة أنَّ الأشخاص الآخرين هم حقًّا ‘‘آخرون’’، وأنَّ البشر هم ألغاز مُدهشة بلا نهاية، وأنَّه بغضِّ النظر عن طول المدَّة التي عرفتَ فيها شخصًا ما، ففي الحقيقة ليس لديك وُصولٌ كافٍ إلى الأمور العميقة داخلَه، ولذلك فالاستماع المستدام مطلوبٌ.

لا يمكن أن يتعايَشَ معًا الاستماع من أجل الفهم من جهة وإصدار الأحكام من جهةٍ أخرى. فإذا صرفتَ طاقتَك في تقييم وتفنيد ما يقولُه الشخصُ الآخر، فلن تكونَ لديك مساحةٌ ذهنيَّةٌ للاستماع، فليست وظيفة المستمع الوقوف خارجَ الموقف والنُّطق بحكم، معلنًا أنَّ الشخصَ الآخر مذنبٌ أو بريء، مخطئ أو مصيب؛ فنوعُ الاستماع الذي أنادي به يتعلَّقُ بدُخول عالَم شخص آخر، حيث تتَّسخُ قدمانا في تربة حياته العميقة، فبينما يهدفُ القاضي

إلى الحياديَّة، يعزمُ المستمعُ على الانحياز، فالاستماع من أجل الفهْم يعني أخْذ جانب الشخص الآخر محاوِلًا الرؤية والتفكير والشعور مثلما يفعل هو، متخيِّلًا نفسَك داخل عالَمه، وهدفُك هو أن تفهَمَ عالمه من الداخل، وستعرفُ إذا كنتَ تقدِّمُ إلى شخص ما حضورًا مستمعًا دون إصدار أحكام لو أصبح هو منفتحًا انفتاحًا متزايدًا وكشف إليك عن ضعفه، أمَّا إذا بدأ في الانغلاق شعوريًّا، فهو على الأرجح يشعرُ بأنَّه يُحكمُ عليه.

الاستماعُ البطيء

تتصحُنا الحكمة القديمة بأن يكونَ كلُّ إنسان ''مسرعًا في الاستماع، مبطئا في التكلُّم''، أمَّا الجزء الثاني من تلك الجُملة فليس بجاذبيَّة الجزء الأوَّل لكنَّه ضروريٌّ أيضًا إذ يقول: ''مبطئًا في الغضب، لأنَّ غضبَ الإنسان لا يصنعُ برَّ الله'' (يعقوب ١: ١٩-٢٠)، ويعلمُ

يعقوبُ أنَّ غضبَنا من الآخرين يكون غالبًا متعلِّقًا بنا أكثر ممَّا يتعلَّق بهم، وهناك ما يُسمَّى الغضب الصالح لكنَّه عادةً ما يكون نوعَ الغضب الذي لله، أمَّا نسخة غضبنا نحن فعادةً ما تكون سخطًا أو غطرسةً، إذ يُريدُ غضبُنا أن يغيِّرَ الآخرين ويتحكَّم فيهم، جاعلًا إيَّاهم أشخاصًا يحملون تشابُهًا غريبًا لنا، أمَّا الاستماع فيقدِّمُ العطيَّة المقدَّسة المُمثَّلة في السماح للآخرين بأن يكونوا أنفسَهم، إذ نَدَعهم لتكونَ لهم أفكارُهم الخاصَّة وليشعروا بمشاعرهم الخاصَّة ويؤمنوا بمعتقداتهم الخاصَّة دون الهجوم عليهم أو اختبار كلماتهم بواسطة فلاترنا الناقدة؛ إذ نهدفُ إلى فهْمهم بشروطهم لا بشروطنا.

الاستماع المصغي من أجل الفهْم هو استماعٌ بطيء، ولذلك فأغلبنا لا يفعله، لأنِّي إذا أصدرتُ حكمًا سريعًا ووزَّعتَ نصائحَ سريعةً

يمكنني المُضيُّ قدمًا والانتقال إلى الأمر التالي، والحقيقةُ هي أنَّ أسلوبَ استماعك يكشفُ أسلوبَ حياتك، فإذا كانت حياتُك متشبِّعة بالانشغال والعجَل والارتباك، فسيكون استماعُك مشتَّتًا ومندفعًا، ولا يمكن أن يكونَ الاستماع من أجل الفهْم مجرَّد نقطةٍ في قائمة أعمالك تريد إنجازَها سريعًا، إذ يتطلَّبُ انتباهَك وتركيزَك ومهارةً في الملاحظة.

ودائمًا ما يتحسَّنُ هذا النوع من الاستماع بمرور الوقت؛ لأنِّي كلَّما استمعتُ إلى شخص أتعلَّمُ كيف يعبِّر عن نفسِه، وفي عملي بوصفي راعيًا روحيًّا، حيث لديَّ الفرصة للاستماع إلى الشخص نفسه في مناسبات عدَّة، وصلتُ إلى قناعةٍ أنَّ الاستماع من أجل الفهْم يتعلَّقُ ليس فقط بفهْم كلمات معيَّنة يقولها الشخصُ، بل بفهْم كيفيَّة استخدامه للكلمات؛ فبعضُ الناس يحاولون استخدام الكثير من

المنطق والعقل قدر الإمكان، بينما يستخدمُ آخرون الكلمات بوصفها مشاعر، بينما يستخدمُ آخرونَ الفكاهة للتَّشتيت بعيدًا عن ألمهم، كما يستخدمُ آخرون المبالَغة لجَذْبِ الانتباه إلى أمورٍ مهمَّة، لذلك يصبحُ المستمعُ العظيمُ متعلِّمًا لكلِّ لكنةٍ مميِّزة لكلِّ فردٍ.

وبالمثل، إذا كنتُ جادًّا بشأن الاستماع من أجل الفهْم، فسوف أستمعُ إلى التلميحات غير الكلاميَّة التي تُشكِّلُ الغالبيَّة العُظمى ممَّا يتواصلُ به الشخصُ. ويقولُ خبراء الاستماع إنَّ ٧٪ فقط من المعنى الذي يريدُ الشخصُ إيصاله يصلُ بالكلمات المنطوقة، و٥٥ بالمئة يحدثُ بلغة الجسد- الحركات وتواصل العينَين ووضع الجسم- و٣٨٪ بالصوت- نبرة الصوت وحجمه وسرعته وشدَّته.٩ وإذا كنَّا سنستخدمُ تعبير ''لغة الجسد''، فعلينا أن نولي تركيزًا مساويًا ''لاستماع الجسد''، إذ يتضمَّنُ

جزءٌ كبيرٌ من هذه الممارسة الملاحظةَ، فألاحِظُ حين تحمرُّ عَينا شخص ما أو حين تلمعان، وحين يجلسُ مائلًا إلى الأمام أو ينكمش جالسًا على كرسيِّه، وحين ينخفضُ صوتُه أو ينظر إلى الأرض، وكيف يعلو صوتُه أو يرتعشُ، وأغلبُ الناس يعرفون معنى هذه الأمور بالفطرة، لكنَّنا لا نوليها اهتمامًا دائمًا أو نفكِّرُ في معناها مثلما نفكِّرُ في ردودنا.

أذنٌ صالحة

إذا أردنا أن نفهَم قبل أن نُفهَم، علينا تعيين ما أطلق عليه جون شتاينبك (John Steinbeck) ''أذن صالحة'' ١٠، وهي تلك التي تسمعُ ما دونَ السطح؛ فلكلِّ نصٍّ نصٌّ ضمنيٌّ أيضًا، وغالبًا ما تكون الرَّسائل الضمنيَّة أعلى قوَّةً وحقًّا، وهي قاعدةٌ من قواعد طبيعة البشر أنَّنا غالبًا نقولُ ما لا نقصدُه، إذ نستخدمُ كلماتٍ لا تعبِّر

بحقٍّ عمَّا نشعرُ به، فنشوِّهُ ونُخفي ونعتم؛ لأنَّنا غالبًا ما نخشى تقديم أنفسِنا على ما هي عليه حقًّا وأن نُرفض بسبب ذلك، ولذلك فإذا أردنا أن نكون مستمعين استماعًا عميقًا علينا أن نستمعَ إلى ما بين السطور وإلى الصمت والمشاعر والشكوك وإلى المعتقدات المتعمِّقة المؤثِّرة في حياة الشخص واختياراته وصورته الذاتيَّة، فنستمعُ إلى القصَّة التي لا تُتلى.

هناك غالبًا محادثتان تحدثان في الوقت نفسه في أثناء التفاعل الواحد، فهناك المحادثة الجارية على مستوى الكلمات، وهي المحادثة الظاهرة، وهناك المحادثة الجارية تحت السطح.

وإليكم إعادةَ صياغةٍ لمحادثة خضتُها قبل بضع سنين مع طالب يُدعى ريان (Ryan) حين كان في آخر فصلٍ دراسيٍّ له في كلِّيَّته، وكان

قد خاضَ المحادثة نفسها بشأن مستقبله مدَّة أسابيع، وكان عالقًا مثل أغنية تتكرَّرُ وتتكرَّرُ، لذا حاولتُ الاستماع إلى الموجات الجارية تحت السطح.

ريان: ''أصارِعُ حقًّا بشأن ما عليَّ فعلُه بعد التخرُّج، وأحاول أن أقرِّر ما بين العمل المُرسليِّ والانضمام إلى المُنظَّمة غير الربحيَّة «عَلِّم من أجل أميركا» (Teach for America) لأكون معلِّمًا، وقد فكَّرتُ كثيرًا في ذلك، وصلَّيتُ بشأنه وتكلَّمتُ بشأنه دون توقُّف، لكنْ ما من إجابات آتية''.

آدم: ''لماذا وقعَ اختيارُك على هذَين الخِيارَين؟ ما الذي يجذبُك إليهما؟''

ريان: ''لا أعرفُ. أريدُ أن آخذَ ما تعلَّمتُه في الكلِّيَّة بشأن قلب الله من جهة العالَم، وأطبِّقَه في العالَم. أريدُ أن يكونَ لحياتي معنى، وأريدُ مساعدةَ الفقراء''.

آدم: ‘‘تلك دوافع صالحة بكلِ تأكيد، لكنَّ التفكير والكلام والصلاة بشأنها لم يقُد إلى أيِّ وضوح؟ لماذا تظنُّ أنَّ الأمر كذلك؟’’.

ريان: ‘‘لا أعرف! لقد خضتُ على الأرجح في مئةِ محادثةٍ تقريبًا مع الناس- مع والديَّ وأختي وأصدقائي ومع قسِّ كنيستي- ويبدو أنَّ كلَّ هذا لم يساعد في شيء، وأنا أفكِّرُ حتَّى في الصوم والصلاة لعدَّة أيَّام’’.

آدم: ‘‘يبدو ذلك منهكًا، فأنت تحاول محاولات جاهدة، وأتساءلُ ما إذا كنتَ تحاول التحكُّم في الأمور تحكُّمًا أكثر من اللازم’’.

ريان: ‘‘ولماذا أفعل ذلك؟’’

آدم: ‘‘لا أعرفُ على وجه التأكيد، ماذا تظنُّ أنت؟’’

ريان: ‘‘أريدُ فقط أن أفعل بحياتي شيئًا قيِّمًا، فلا أريدُ الحصولَ علىِ وظيفة مثل كلِّ شخص آخر لأجني المالَ فقط، وأظنُّ أنِّي إذا حصلتُ فقط على وظيفةٍ بعد الكلِّيَّة، فسأظلُّ مستقرًّا في رتابةٍ يوميَّةٍ، ولن أفعلَ شيئًا ذا قيمة حقيقيَّة’’.

آدم: ‘‘آه، أتساءلُ إذا كنتَ تشعرُ بالخوف؛ لأنَّنا غالبًا حين نتصرَّفُ تصرُّفات فيها تحكُّمٌ يكون السببُ أنَّنا نخشى من أمر ما، ما رأيُك؟’’.

ريان: [بعد فترة انتظار طويلة] أخافُ من الكثير من الأمور: من التخرُّج، ومن فقدان إيماني بعد التخرُّج، كما أخافُ من الاستقرارِ في حياةٍ فاترة، ومن أن أكون ضئيلًا عديم الأهمِّيَّة.

بعد تلك اللحظة تغيَّرتِ المحادثة، إذ كُنَّا قد حدَّدنا شعورًا- الخوف- قابعًا متخفِّيًا في

صورة المأزق الذي يمرُّ به ريان؛ فالمشاعر تدفعُ سلوكنا أكثر كثيرًا من التفكير العقلانيِّ، فبمجرَّد أنْ كنَّا قد انتقَلْنا إلى ما وراء عمليَّة اتِّخاذ القرار خاصَّته وتحرَّكنا إلى المشاعر التي تغذِّيها، كان يمكن حينها إحراز تقدُّمٍ.

في هذه المحادثة نجدُ بعض الموضوعات التي تظهرُ بانتظام حين تستمعُ من أجل الفهْم. أوَّلًا، ليست المشكلة الحاليَّة هي حقًّا ما تدور حوله المحادثة، فلو كنَّا قد استمررنا مع مزايا العمل المُرسليِّ أو التدريس وعيوبهما، لوَصَلتِ المحادثة إلى طريقٍ مسدودٍ.

ثانيًا، هناك قوَّة هائلة في تسمية المشاعر، فتقولُ الكلمة في أبسط صورة ممكنة: خائف، غاضب، مجروح، خجلان، حزين، وكثيرًا ما يمكنك رؤية ردِّ فعلٍ جسمانيٍّ في الشخص الآخر حين تُسمِّي شعوره، إذ يُطلِق نفَسًا عميقًا ويسترخي، كما لو أنَّ الشعورَ غير

المُسمَّى كان هو الضغط القابع على كتفَيه والضيق الجاثم على صدره.

ثالثًا، يتطلَّبُ الاستماعُ العميقُ تجريبيًا، فلستَ تعلمُ الإجابات، لكنَّك تطرحُ الأسئلة التي لا تعرف إجاباتَها، وليس دورُك أن تستكشفَ الدوافع مثل مُحقِّق يحاول أن يحلَّ لُغزًا ما، وذلك لأنَّك لستَ الخبير في ما يتعلَّقُ بحياة الشخص الآخر، وأريدُ التشديدَ على هذا الأمر لأهمِّيَّته؛ فهو يعرفُ نفسَه أفضل منك، ويوجدُ حلُّ مشكلاته داخلَه هو، ويتضمَّن الاستماعُ الجيِّدُ مساعدة شخصٍ آخر على اكتشاف الحلِّ، ولا يتضمَّنُ أن تحلَّ أنت مشكلاته، فأنت تريدُ أن تُشجِّعَ المتحدِّث ليفكِّرَ بالأصالة عن نفسه، لذا فحين تستمع استماعًا جيِّدًا تمارسُ تخمينًا جيِّدًا، فتسألُ أسئلة حريصة، وتَفكِّر لتقدير المشاعر وتستوضح ما لديك من تشوُّش، وتتحقَّقَ من الفهْم الصحيح ما بين الحين

والآخر (''إذا فهمتُك فهمًا صحيحًا، أنت تقولُ...هل يعبِّر هذا بدقَّة عمَّا قلتَه؟'') وذلك لتتحقَّقَ من أنَّك على المسار الصحيح.

المستمع الذي أنقذَ عَشاءَ عيدَ الشُّكر

ما ذلك الصمت الغريب وصوت مضغ الطعام الذي تسمعه؟ إنَّه ذلك الوحش المزمجرُ ثنائيُّ الرأس الخاصُّ بالموضوعات غير المسموحِ بمناقشتها- الدين والسياسة- قد ضربَ ثانيةً مائدة العشاء الخاصَّة بأسرتك في تجمُّعٍ أسريٍّ في ذكرى احتفال عيد الشكر، وهما مَوضوعان من الموضوعات القليلة التي تجعل الناس يصمُّون آذانهم محاولين التغطية على أمرٍ لا يودُّون سماعَه، فليس سرًّا أنَّه حين يتعلَّقُ الأمرُ بالموضوعات الساخنة يريدُ الجميعُ الثورةَ ولا يريدُ أيُّ شخص الاستماعَ، وحتَّى إذا حاولنا الاستماع فأغلبنا لا يعرف كيف يستمعُ استماعًا يبني المواجدةَ ويضمُّ

الجميع معًا، لكنِّي أعتقدُ أنَّ هناك طريقةَ للخروج من هذا المأزق.

نحتاج لأنْ نبدأ بالاعتراف بأنَّ عقائدنا اللاهوتيَّة والسياسيَّة هي عقائد شخصيَّةٌ متأصِّلة، بقدر ما نريدُ أن نعتقد أنَّها مبنيَّة على المنطق والحقيقة الخالصة، إذ توجد تحتَ منصَّاتنا الأيديولوجيَّة تعهُّداتٌ شعوريَّة ومعتقدات شغوفة بشأن أنفسنا والعالم، وعلاقات وخبراتٌ شخصيَّة، وحين ينتقدُ أحدُهم سياستنا أو ديننا فهو لا ينتقدُ موضوعًا ما لكنَّه ينتقدُنا وينتقدُ معتقداتنا الأساسيَّة بشأن الكيفيَّة التي يسيرُ بها العالَم، والكيفيَّة التي تتماسكُ بها حياتُنا- أو على الأقلِّ الكيفيَّة التي نظنُّها ونؤمن بها.

الخبرُ السارُّ للمستمع هو أنَّ لكلِّ قصَّةٍ لاهوتيَّةٍ هناك قصَّة خلفيَّة؛ فالناس لا يتعزَّون بمعتقداتهم فقط لأنَّهم قرأوا كتابًا ووجدوا فيه

فكرةً جيِّدةً، بل هناك قصصٌ داخلَهم في انتظار أن تُتلى، ويمكننا تغيير المحادثة تغييرًا كاملًا إنِ استَطَعْنا إيجاد تلك القصص، فأحدُ الأشخاص يؤمن بالجحيم لأنَّه تعرَّض إلى الإساءة وهو طفل، وأخرى لا تؤمن بها بسبب جدَّتها المحبوبة غير المؤمنة، وكثيرًا ما نؤمن بأمر ما بسبب أنَّ شخصًا نحبُّه يؤمن به، ونُظْهِرُ شكرَنا وعرفانَنا وولاءنا لذلك الشخص بالتمسُّك بمعتقده.

إذا أرَدْنا اختراقَ الجدل البلاغيِّ والدائريِّ، يمكننا استكشاف السبب الذي من أجله يتمسَّك الآخرون بمعتقداتهم، ولسنا نحاول الوصول إلى الدوافع مثل مستكشفي المتفجِّرات، ولا نريدُ أن نقعَ ضحيَّةَ المغالطة الوراثيَّة- وهي الخطأ المنطقيُّ الذي يفترضُ أنَّه إذا حدَّدتُ مصدر معتقد شخص ما أكون حينَها قد دحضتُ ذلك المعتقدَ، لكنَّنا مدفوعون بحبِّ

المعرفة والتعاطُف، وأفضلَ مَنِ يعينُنا على ذلك هو سؤال "لماذا"؛ فبدلَ تقديم حُجَّة مضادَّةٍ لنقطة ما قدَّمها الشخصُ، يسألُ المستمعُ عن السبب الذي يجعل الشخصَ يؤمنُ بذلك (لماذا).

وإليك بعضَ الأسئلة التي تبدأ بكلمة "لماذا"، والتي يمكن أن تُستخدمَ في كثيرٍ من المحادثات اللاهوتيَّة والشخصيَّة، وحينَ يُظهِرُ شخصٌ ما شغفًا بشأن أمرٍ ما، سيكون هناك غالبًا سببٌ شخصيٌّ وراءه.

- لماذا أنت مقتنعٌ بذلك المعتقد؟
- لماذا يُعدُّ ذلك مهمًّا لك؟
- لماذا يضايقُك ذلك؟
- لماذا جرحك ذلك؟
- لماذا تشعرُ على هذا النحو؟

وأيضًا هناك المزيد من الأسئلة التي لا تبدأ بكلمة لماذا، لكنَّها تجسِّدُ الفكرةَ نفسَها:

- متى بدأتَ في الإيمان بذلك؟
- يبدو الأمرُ شخصيًّا جدًّا لك- هل هناك سببٌ لذلك؟
- ما الدور الذي لعبَه الله في مساعدتك لتكوِّنَ ذلك المعتقد؟

المحادثة الربَّانيَّة

بينما نقتربُ من نهاية هذا الفصل، أودُّ أن أقول بوُضوح ما قد لمَّحتُ إليه طَوالَ الوقت: معاييرنا الخَاصَّة بالمحادثات هي معايير منخفضة جدًّا، فكثيرًا ما نتعامل مع المحادثات بوصفها تبادلًا اجتماعيًّا، أو مقايضةً للأفكار، أو تفريغًا للمعلومات، وما نتوقَّعُه من المحادثات هو تقريبًا ما سنحصل عليه منها.

إنَّ ممارسة المحادثة هو فنٌّ مقدَّس؛ فالمحادثاتُ القيِّمةُ هي أجزاءٌ جوهريَّة من طُرق إنقاذ الله المستمرِّ لنا، لذا يمكننا توقُّع أنْ يزورَنا ما بين الحين والآخر وفي وسط

محادثة عاديَّة ''حضورٌ'' يتجاوز المساحة الماديِّة للغرفة، وقد تهمس إلينا ''كلمةٌ'' تتخطَّى الحكمة التراكميَّة للأشخاص المنخرطين في المحادثة.

ماذا لو وصلنا إلى فهْم أهمِّ المحادثات بوصفها صلاةً؟ حين يعتزمُ الناس أن يستكشفوا ما تحت سطح الحياة اليوميَّة، وأن يسيروا عبْر ردهات الأحاديث القصيرة إلى عتبة الغموض، يمكننا أن نكونَ على يقين أنَّ محادثتنا تجري في تواصلٍ مع ''الروح''. وتكتبُ أستاذتي في كلِّيَّة اللاهوت ديبرا □ان ديوسن هنسينغر (Deborah Van Deusen Hunsinger) أنَّ ''هناك دراما ربَّانيَّة خفيَّة في جميعِنا، تصرخُ لكي تُسمَعِ''.١١ وتسعى المحادثة المقدَّسة لكي تُنصتَ من أجل تلك الدراما الربَّانيَّة، قصَّة الفداء تلك، حكاية الضالِّ الذي وُجد- وهي الحكاية المكتوبة على

نفوسِنا، وبهذا المنظور لا يكون في المحادثة متحدِّثٌ واحد ومستمعٌ واحد، بل يكون هناك دائمًا مُستَمِعان، وإذا استمع اثنان أو أكثر بِاسْم يسوع، فسيستمعُ هو أيضًا، وليست فكرةً سيِّئة أن نتركَ في الغرفة مقعدًا فارغًا لكي يُذكِّرَنا بوجود يسوع وسطنا.

يمكننا تعديل ممارسة القراءة الربَّانية (Lectio Divina) تعديلًا طفيفًا لخلْق المحادثة الربَّانيَّة (Conversation Divina)، أي ممارسة المحادثة المقدَّسة، وأساسُ المحادثة هو الإيمانُ بأنَّ الله حاضرٌ في المحادثات ويقودُها، في المحادثات التي نقدِّمُها إليه بوصفها تقدماتٍ، وفي بعض تلك المحادثات التي لا نقدِّمُها هكذا، فنستمعُ ليس فقط إلى شخص آخر، بل إلى الصوتِ الذي يتكلَّمُ في الأصوات البشريَّة وبواسطتها ورغمًا منها، وحينها نشعرُ بحرِّيَّة التخلِّي عن التمسُّك بالأجندات المُحكمة وبالاحتياج إلى

إدارة دفّة المحادثة إلى الاتِّجاه الذي نعتقدُ أنّها من اللازم أن تتَّجه إليه، فنفتحُ أنفسَنا على فكرة السماح للمحادثة بأن تخرجَ عن مسارها خروجًا هادئًا، وأن تأخذ اتِّجاهاتٍ مدهشةً ومنعطفاتٍ مقدَّسة.

أحدُ التحدِّيات التي أواجهُها عند الاستماع إلى شخصٍ ما عند هذا المستوى هو الشعور بغمْرٍ من حائط الكلمات الذي يأتي نحوي، فإذًا حاولتُ استيعابَ كلِّ كلمة أو التعامل مع كلٍّ منها بالوزن ذاته، فإنِّي أتوهُ وأتشوَّشُ، وقد تعلَّمتُ أنَّ هدفي ليس هو محاولة حفْظ الرسالة بحيث أستطيع استعادة كلِّ كلمة، لكنَّ أفضل أنواع الاستماع ليس هو ذاك الذي يستقبلُ المعلومات مثل طبق استقبال، لكنَّ أفضل أنواع الاستماع هو ذاك الذي يخترقُ، دافعًا نحوَ أعمق الحقائق وأكثرها أساسيَّةً، ويتطلَّبُ الاستماعُ المقدَّس تمييزًا بشأن ما يُتمسَّكُ به

وما يُترَك، تمامًا مثلما أستمعُ من أجل كلمة محدَّدة من الله يُنطقُ بها وسط كلِّ كلمات نصٍّ ما، أستمع في المحادثة من أجل الكلمات أو العبارات التي تحملُ ثقلًا معيَّنًا، فليست كلّ كلمة وكلُّ فكرة تتطلَّبُ الانتباه نفسه؛ ففي بعض المرَّات يعبِّرُ شخصٌ ما عن اختلافه أو يُمضي وقتًا في موضوع يبدو أقلَّ مركزيَّةً في المحادثة، فندعُ تلك الأفكار تمرُّ، وفي مرَّات أخرى يشيرُ شخصٌ ما إشارةً عارضةً إلى فكرة أو شعور يلفتُ انتباهَنا بوصفه مهمًّا أهمِّيَّة عميقة.

في المحادثة الربَّانيَّة نستمع مُصْغين إلى الكلمات أو الأفكار المتكرِّرة. فإذا استمرَّ الشخصُ في الدوران عائدًا إلى سؤال أو علاقة أو فكرة، نعلمُ أنَّها تستحقُّ انتباهَنا، ونولي أيضًا اهتمامًا للكلمات التي تحملُ مشاعرَ عميقةً، مع ما تصاحبها من لغة الجسد

وتعبيرات الوجه التي تحملَ تلك المشاعر، وبعض اللحظات الكاشفة تأتي حين تعلقُ كلمةٌ ما في الهواءِ، ويتردَّدُ صداها بين المستمعين، وتظلُّ باقيةً حتَّى بعد أن يكونوا قد انتقلوا في المحادثة إلى نقاط أخرى، لذا نستمع مُنصِتين إلى تلك اللحظات الأصيلة الحقيقيَّة- تلك اللحظات الإنسانيَّة حيث يكشفُ الشخصُ عن نفسِه إلينا، وحين يسقطُ القناعُ حتَّى ولو لثانيةٍ واحدة، ونلتقي الشخصَ الحقيقيَّ.

كثيرًا ما يكون تأثيرُ لحظةٍ ما في المحادثة أقوى من الكلمات المنطوقة. لذا ثِقْ بغريزتك؛ فقلبُ الشخص الآخر يتحدَّثُ إليك، وقد يكون الله يتحدَّثُ إليك بواسطته، فإذا شعرتَ بالتشوُّش بسبب ما يقولُه الشخصُ، فصدِّقْ تشوُّشَك، واطلُب إليه الإبطاء أو تناوُلَ الأمرِ من زاوية أبسط؛ فغالبًا ما سيكون تشوُّشك هو ترديدُ صدى أفكاره المتشابكة، وقد يشيرُ ذلك

إلى أنَّه يتجنَّبُ لبَّ الموضوع. لذا استمع إلى صوت ‘‘الروح’’ بينما تستمع إلى الشخص الآخر، ولا تستمع من أجل الخروج بالحقِّ أو الفكرةِ التي ينبغي لك أن تتحدَّثَ بهَا إليه، بل استمع من أجل الأسئلة التي عليك أن تطرحها.

ريان، الذي كان يصارع قبلًا بشأن الاتِّجاه الذي عليه اتِّخاذه بعد الكلِّيَّة لم ينتهِ به الأمرُ في التدريس مع هيئة ‘‘علِّم من أجل أميركا’’، ولا في العمل المُرسليِّ بعد التخرُّج، فحين سألتُه ‘‘هل أنت خائف؟’’ ساعدَه السؤالِ أن يرى مأزقَه بطريقةٍ جديدةٍ، وكي يدركَ أنَّ قرارَ المسار الوظيفيِّ قرارٌ عرَضيٌّ في ما يتعلَّقُ بجوهر صراعه، وقرَّر ألَّا يسمح لخوفه بأن يدفعَه إلى أمرٍ لم يكُن مستعدًّا له، وما يذهلني باستمرارٍ بشأن التفاعلات الاستماعيَّة هو أنَّ من الممكن أن يخرجَ شخصٌ ما دون

أيِّ تبصُّر جديدٍ بشأن المشكلة التي أتى بها، ومع ذلك يرى الأمور بصورةٍ مختلفة؛ ففي ذلك اليوم لم نحرِزْ أنا وريان أيَّ تقدُّم بشأن تحديد مساره الوَظيفيِّ، لكنَّه خرج بوُضوحٍ وسلام؛ فحيث يوجد السلامُ والراحة يصبح ممكنًا أنْ تُتَّخذَ أفضل القرارات، ويساعدُنا الاستماعُ على الوصول إلى ذلك المكان.

الفصل السابع

الاستماع إلى المتألِّمين

من أسرع الأشياء التي تسبِّبُ انغلاقَ المتألِّمين هو أن تقتبس لهم أجزاءً من الكتاب المقدَّس. وبينما أكتبُ ذلك يمكنني تخيُّلُ صفَّارات إنذار "شرطة الهرطقة" تحيط بالبيت معترضةً على ما أقول! فمَعَ أنَّ الكتاب المقدَّس يحتوي على كلمات الحياة ومواعيد الله معنا، وهي الكلمات والمواعيد التي قد عزَّت قدِّيسين وأقامت خُطاة، فإنَّ اقتباس آيات من الكتاب المقدَّس أيضًا أشبَهَ بقاتل المحادثة، إذ يمكنُ أن يُستخدَمَ لإسكات الناس ولقطع طريق النوح والجرح والاكتئاب، وأحيانًا يستخدِمُ الناسُ آيات الكتاب المقدَّس استخدامًا يجعل المتألِّمين يشعرون كما لو أنَّ الله يأمرُهم بالسُّكوت.

يُبنى هذا الفصل على افتراضين، أوَّلًا، أنَّ الحياة صعبة، فإذا لم تكُن قد اختبرتَ ذلك إلى الآن، فلتنتظرْ قليلًا وستختبر ذلك لا محالة، وإذا كنتَ تمرُّ الآن

بموسم مُشمس وسط مواسم الحياة فلتستمتعْ به؛ لأنَّ العاصفةَ ليسَتْ بعيدةً، وثانيًا، يجدُ الكثيرون منَّا صعوبةً وحَيرةً في كيفيَّة الردِّ على شخص يختبر صعوبةَ الحياة؛ إذ يرهِبُنا ثقلُ المواقف المؤلمة والشعور المصاحب لها، ولا تبدو أفضلُ نيَّاتنا كافية، فإمَّا نقولُ أكثر من اللازم وإمَّا أقلَّ من اللازم، أو نقتبسُ الآية الخطأ، أو نشعرُ باحتياج يدفعنا لنقتبسَ آية أساسًا، نفعل الأمر الخطأ أو نفعل الصواب بالطريقة الخاطئة، أو يسبِّبُ ما نفعلُه أو ما نقولُه ضجيجًا مؤلمًا.

يؤسِفُني قولُ إنَّ المسيحيِّين، بحسب خبرتي، كثيرًا ما يكونون هُم الأسوأ في التعامل مع المتألِّمين. والحقيقةُ اخترتُ في مرَّات كثيرة أن أشارك مشاعري ولحظاتي المؤلمة مع غير المسيحيِّين بدلَ مشاركتِها مع المسيحيِّين؛ لأنِّي أعرفُ أنِّي سأُسمَع على نحوٍ أفضل. وفي إطار مشابهٍ قال ديتريش بونهويفر راثيًا: "يبحث الكثيرون عن أذنٍ مستمعة، فلا يجدونها وسط المسيحيِّين؛ لأنَّ المسيحيِّين يتكلَّمون حين ينبغي لهم أن

يستمعوا''.١ ويصيبُني هذا بالحزن والتشوُّش، إذ يبدو لي أنَّ المسيحيِّين هم مَن ينبغي لهم الهَروَلة نحو النيران أكثر من أيِّ شخص آخر؛ لأنَّنا نتبعُ ''مخلِّصًا'' هبط إلى الجحيم، فيجبُ ألَّا نتوقَّع أن يكونَ شخصٌ آخرُ أكثرُ استعدادًا وتأهُّلًا للاستجابة للألم مِن أولئك مَن يضعونَ الصُّلبان حول أعناقهم، لكنَّ مِن الآمن الإشرافَ على المتألِّمين عن أن ندخلَ عالَمهم مخاطِرين أن نشعر نحن كذلك بالألم.

سمعتُ زميلَ خدمة يقول: ''أنا ذاهبٌ الليلة لأكون مع شخص في المستشفى، وهو وقتٌ مناسب لأتحدَّث ببعضٍ الحقِّ''، وتسودُ هذه الفكرة في الكثير من الدوائر المسيحيَّة: أنَّ الوعظ هو بلسمُ الألم، وسواء تعلَّقَ الأمرُ بمرضٍ أم بطلاق أم بفقدان وظيفة، ففي أيَّة كارثة هناكَ احتياج إلى عِظة سديدة من الكتاب المقدَّس. غير أنَّ عندي الكثير من التحفُّظات على ذلك الأمر. أوَّلًا، يفترضُ هذا الأمر أنَّ المتألِّمين لا يؤمنون بالأمور الصحيحة أو لا يؤمنون بالحماسة الكافية، وقد

ينتهي بهم الأمرُ وقد وصلتهم رسالةَ أنَّ إيمانَهم ليس قويًّا بما يكفي لكي يرَوا موقفهم في صورته الصحيحة أو أنَّ فيهم شيئًا على غيرِ ما يُرام لأنَّهم يصارعون. ثانيًا، يُعدُّ وَعظُ المتألِّمين مثل افتراس الضعيف، فهو أشبَه بطَعْنِ جَرحِهم بسيف الحقِّ أو إخضاعهم لجراحةٍ دونِ تخديرٍ؛ فالحقُّ غير المُرحَّب به لا يشفي بتاتًا. ثالثًا، "التكلُّم بالحقِّ" في مواقف الألم يسبِّب ابتعادًا، إذ تقفُ أنت وراء منبرك أو صلاتك التشفُّعيَّة التي تبدو مثل عظةٍ أمَّا الشخصُ الآخر فهو أسيرُك المضطرُّ إلى سماعك، وهو مقيَّدٌ في مقعده بينما يستقبلُ منك رسائل الحقِّ الذي يزعجه؛ فالألمُ يجعلُ الشخصَ يشعرُ بأنَّه ضئيل ومنعزل، وتقديم الوعظ إليه يجعلُه يشعر بأنَّه أكثر ضآلةً وانعزالًا، مثل طِفل يتعرَّض للتوبيخ.

كتب د. سُوس (Dr. Seuss) قصصًا كلاسيكيَّة، لكنَّه قدَّم أيضًا بعض النصائح السيِّئة مثل: "لا تبكِ لأنَّ الأمر انتهى، بل ابتَسِم لأنَّه حدثَ".٢ لكنَّ دورَك بوصفك مستمعًا هو أن تسعى بكلِّ الطرق لكي تسمح للمتحدِّث

بأنْ يبكي لأنَّ الأمر انتهى، فلا تكَن مثل غرينش الشخصيَّة الخياليَّة التي كتبها د. سوس، ولا تسرق الحُزن، بل كُن شاهدًا على دموع المتحدِّث؛ فكلُّ دمعةَ تحملُ ألمًا، وهذه هي الطريقة الوحيدة للتخلُّص منه.

المتألِّمُ كمن يقفُ في عاصفةٍ، ويشعرُ بالبرودة ويرتعشُ مرتعبًا ومبتلًّا، فالوعظُ والتعليقات الأخلاقيَّة والنصائح لن تُخرجَه من العاصفة، فلا تخبرْ مَن هو في العاصفة بأنَّ اليومَ مُشمسٌ وجميل، فمع أنَّه سيأتي يومٌ على الأرجح حين تنقشعُ فيه الغيمة، فلن يحدثَ ذلك اليومَ بالضرورة، وليس دورُك أن تسحبَه من العاصفة، بل أن تدخلَ في عين العاصفة وتبتلَّ وصولًا إليه.

الدخول

يتمثَّلُ دورُ المستمع في الدخول، ويُعبِّرُ الرسولُ بولس عن هذا الأمر تعبيرًا دقيقًا في الأعدادِ التالية:

"مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، أبو الرأفة وإله كلِّ تعزية، الذي يعزِّينا في كلِّ ضيقتنا، حتَّى نستطيع أنْ نعزِّي الذين هُم في كلِّ ضيقة بالتعزية

التي نتعزَّى نحن بها مِن الله. لأنَّه كما تكثر آلامُ المسيح فينا، كذلك بالمسيح تكثر تعزيتُنا أيضًا. فإنْ كنَّا نتضايق فلأجل تعزيتكم وخلاصكم، العامل في احتمال نفس الآلام التي نتألَّم بها نحن أيضًا. أو نتعزَّى فلأجل تعزيتكم وخلاصكم. فرجاؤنا من أجلكم ثابت. عالمين أنَّكم كما أنتم شركاء في الآلام، كذلك في التعزية أيضًا" (٢كورنثوس ١: ٣-٧).

ما مِن إنكارٍ لحقيقة أنَّ الجماعة المسيحيَّة هي جماعةٌ تتألَّمُ؛ فرئيسُ إيماننا تألَّمَ، والرمزُ الرئيسيُّ لعقيدتنا هو رمزُ عذابٍ وموت، فليسَتْ هناك فائدة لمحاولة نَزْعِ علامة الصليب من يدي الكنيسة وقدمَيها، فليستَ علامةُ البشارة الصحَّة والغِنى، بل المسامير والدم. والخبرُ السارُّ هو أنَّ الجماعة المسيحيَّة هي جماعة تتألَّم معًا، إذ نتشاركُ في آلام بعضنا بعضًا، ونتشاركُ كما في وجبةٍ لاذعة تحلو أكثر وأكثر حين نتحمَّلُ معًا في صبرٍ، وليست التعزية بالضرورة الإنقاذ من الألم بل هي ما يأتي حين نتألَّمُ معًا. ولا يعني هذا بتاتًا أن

تتجاهل الكنيسةَ الظلم والفقر والقهر، أو ألّا نسعى لنخفِّف من الألم حين يكون في مقدورنا ذلك؛ فنحن نوبِّخُ الألم ونغضبُ في وجه الموت؛ لأنَّنا نعلم أنَّ الأمور ليست كما يجب أن تكون، لكنَّ هناك في الحياة الكثير من المرَّات حين لا تكون لدينا المقدرة على إراحة شخص من ألمِه مهما كنَّا نتمنَّى ذلك، فليست لديك القدرةً السحريَّة على نزع نَوْح شخص فقدَ عزيزًا، أو أن ترفَعَ اكتئابَه حين يُخفق في تحقيق أحد أحلامه؛ فالنوحُ والاكتئابُ قسمان أساسيَّان في شفاء ذلك الشخص، والكنيسةُ هي جماعة من الأشخاص الذين يُقرُّون بالألم، ويتعاملون معه بوصفه أمرًا حقيقيًّا، ويدخلون في ألم الآخر؛ لأنَّ ربَّنا يعرفُ ضيقاتنا، ويسوعُ يقدِّمُ حضورَه في الألم، وينبغي لنا أن نفعل ذلك أيضًا.

لكنَّنا نتحمَّسُ لكي نقدِّمَ تعزية سابقة لأوانها، أليس كذلك؟ وأطلِق على ذلك الضمان الاستباقيَّ، فإذا أمكنَنا أن نهجمَ أوَّلًا مقدِّمين الضمانَ ومجيبين عن بعض الأسئلة

التي لم تُسأل بَعْد، ربَّما يمكننا أن نحميَ أنفسَنا من المشقَّة، فنجدُ أنفسَنا نقولُ أمورًا مثل:

- "سيكون كلُّ شيء على ما يُرام".
- "تَحَلَّ بالصبر".
- "الله صالحٌ".
- "سيمرُّ هذا الوقتُ".
- "سرعان ما ستشعرُ بالسعادة على وقوعِ هذا الأمر".
- "كلُّ الأمور تحت سيطرة الله".
- "سيجعلُك هذا الأمر أقوى".
- "لن يجرِّبَك الله فوقَ ما تستطيعه".
- "يجعلُ الله كلَّ الأمور تعمل معًا للخير".

حين تميلُ لغتي إلى هذه الزاوية الدينيَّة، أكون في الغالب في حالة تقديم ضمانٍ استباقيٍّ. لكنَّ الألم ليس ببساطة الإجاباتَ المعدَّة مسبَّقًا، والكلام الروحيِّ العفويِّ. فحين

كنتُ في بداية عملي قسًّا، كانت لديَّ رغبة متلهِّفة للصلاة، وكان سؤالي الأوَّل للمريض: ''كيف حالُك؟'' وسؤالي الثاني هو: ''هل يمكنني الصلاة من أجلك؟'' وبذلك كان في وُسعي الاحتفاظ بالسيطرة والسماح لصلواتي الدقيقة التي تدرَّبتُ عليها بأن تُغرِقَ ألمه، وكنتُ بعدَها أنتقلُ إلى الغرفة التالية في المستشفى ظانًّا أنِّي أدَّيتُ دَوري، لكنَّ الأمرَ لم يكُن كذلك.

يتعلَّقُ الاستماعُ إلى المتألِّمين بإعطائهم المساحة لكي ينوحوا ويبكوا ويغضبوا ويشكُّوا؛ فلسنا موجودين من أجل إضفاء صبغةٍ روحيَّة على ألمهم، أو وضع اختبارهم في إطارٍ لاهوتيٍّ، وكلامُنا الدينيُّ وضماننا الاستباقيُّ والمحادثة المُبهجة كلّها تستهلك مساحةً، في حين أنَّنا نريدُ أن نوفِّرَ لهم مساحةً، وإلَّا فسنكون عُرضةً لتوبيخ أيُّوب:

"قد سمعتُ كثيرًا مثل هذا. معزّون مُتعِبون كلُّكم! هل من نهاية لكلام فارغ؟ أو ماذا يهيِّجُك حتَّى تجاوب؟" (أيُّوب ١٦: ٢-٣)، وعبَّرَ بونهويفر بالقوَّة ذاتها تقريبًا عن ذلك الأمر قائلًا: "يجبُ أن تكونَ هناك قاعدة حاسمة لكلِّ تجمُّع مسيحيِّين وهي أنْ يمتنع كلُّ فردٍ من قَولِ كلَّ ما يخطرُ على باله"٣، أي أنَّ الاستماعَ والصمتَ ليسا بالضَّرورة الأمرَ نفسَه، لكنَّ الصمتَ بداية طيِّبة حقًّا، فبعضُ المواقف تتَّسمُ بثقل لا يمكن سوى للصمت أن يحمل ثقلَها.

نسيرُ في الطريق الخاطئ إذا قلَّلنا من المشاعر التي يمرُّ بها الناسُ، فلا ينبغي لك أن تخبرَهم بماذا يشعرون، بل اسمَحْ لهُم بأن يشعروا بما يشعرون به في حضورك، ولا تسمح للمرض المُسمَّى "على الأقَلِّ" أن يصيبك، حيث تقول: "على الأقلِّ صحَّتُك

سليمة‘‘، أو ’’على الأقلَ كانتِ في حياتك لفترة قصيرة‘‘، أو ’’على الأقلِّ ليس الأمرُ بالسوء الذي يختبرُه أَحَدٌ آخر‘‘؛ فعبارات ’’على الأقل‘‘ تحطُّ من قيمة الألم، فاتركْ للناس ألمُهم، ففي بعض المواقف، الألمُ هو كلُّ ما يملكون.

أمرٌ مرعِبٌ، لا سيَّما إذا لم تشعر بالراحة في وجه المشاعر الصريحة، لكنَّك تحتاج إلى السماح للناس بأن يشعروا بجروحهم، ويصبح هذا الأمر على درجة خاصَّة من التحدِّي حين تكون قد فعلتَ أمرًا قد جرحَ أحدَهم، فقد تجدُ نفسَك مُسرعًا في رفْع سيف اعتذارك. فكلَّما أسرعتُ في الاعتذار، لن أحتاج إلى الاستماع إلى ألمه، ولن أشعر بالذَّنْب نفسه الذي أشعرُ به! وهنا يكونُ الاعتذار السريعُ في مصلحتك وليس في مصلحته، فإذا لم تقدرْ أن تسمعَ الألمَ الذي لعبتَ دَورًا فيه، فلن تكون هناك مصالحة

كاملة.

أحيانًا لا نشجِّعُ الناسَ فقط لكي يعبِّروا عن ألمهم، بل نساعدهم أيضًا كي يشعروا بما يشعرون به بصورة أقوى. وبوصفي قسًّا في مستشفى لرعاية المرضى الذي يُحتَضَرون، كنتُ أدهَشُ من اكتشاف أنَّ دوري كانَ في كثيرٍ من الأحيان هو تذكيرُ الناس بمدى ألم موقفِهم، ليس تطمينهم. فكانوا يأخذون خطوة في اتِّجاه وصف ألمهم، ثمَّ يرجعون خطوة إلى الوراء مُقدِّمين الجُملة الشهيرة: ”لكنَّها دائرة الحياة“، وحينها كنتُ أتدخَّلُ قائلًا: ”لكنَّ دائرة الحياة هذه قبيحة، أليس كذلك؟“، فأحيانًا، تحتاج إلى قَوْل الأمر قولًا حادًّا لكي تنفتح بوَّاباتُ السدِّ، وينهمرَ الفيضانُ. فكلَّما تعاملتَ برفقٍ متحسِّسًا خطوتك، لن يُكتشَفَ أيُّ أمرٍ مهمٍّ، فكنتُ أطالبُهُم بأن ينوحوا ويعبِّروا عن ألمِهم بأبسط طريقةٍ وأكثرها

صراحةَ، وتلك هي لَغة الشعور العميق.

العدوُّ المُهلِك للاستماع: القلق

اكتشفتِ البحوثُ العصبيَّة أنَّه حين يعبِّر شخصٌ قريبٌ منَّا عن الحُزن، تستجيبُ إليه أجسادُنا استجابةً لاإراديَّة؛ فلعقولنا "خلايا عصبيَّة مرآتيَّة" (Mirror Neurons)، وهي تحاكي تلقائيًّا ما نراه في تعبيرات الوجه ولغة الجسد لشخص آخر. فإذا قطَّب شخصٌ جبينَه، ستبدأ أفواهُنا على مستوًى صغير جدًّا في التقطيب دون قرارٍ واعٍ من جهتنا، وستُحدِث تلك الحركات التي لا يمكننا اكتشافُها المشاعر نفسها التي للشخص الآخر.٤ فإذا كان شخصٌ ما حزينًا، تلتوي شفاهنا إلى الأسفل، وتنشط قنواتُنا الدمعيَّة، ونبدأ نشعرُ بالحزن؛ فنحن مصمَّمون بردِّ فعلٍ حسَّاسٍ، وتريدُ أجسادُنا الشعورَ بألم الآخرين.

لكن حين نفتح إراديًّا أفواهَنا تلك التي

استجابت متعاطفةَ تعاطُفًا لاإراديًّا، نفسدُ كلَّ الأمور، فقد تريدُ أجسادُنا أن تشعر بألم الشخص الآخر، لكنَّ باقينا لا يريدُ ذلك، ومن بديهيَّات الطبيعة البشريَّة أن نتحاشى الألم، وكي نحقِّق هذا الهدف، نتحاشى الآخرين المتألِّمين، وإذا لم نقدر أن نتحاشاهم مادِّيًّا، فإنَّنا نتحاشاهم على مستوى المشاعر، ونحاولُ الإصلاح أو الحلَّ أو الإنقاذ أو تقديم النصائح أو جعْل الألم يذهب، الأمر الذي غالبًا ما يجعلُ الأمور أسوأ وأسوأ.

القلقُ هو العدوُّ المُهلِك للاستماع إلى المتألِّمين، فحين يصارع الناسُ مع الألم أو المرض أو الفقدان أو الشكِّ أو النزاع الداخليِّ أو العلاقات المكسورة، يثيرُ ذلك فينا القلقَ دون شك، فنسمعُ صوتَ حياتنا وضعفنا في صوتِ حياتهم وضعفهم. وكلَّما كنَّا أقرب إلى الشخص، كانت حياتنا متداخلة مع حياته

أكثر، وكان أسهل للقلق أن يبدأ بسبب أقلَ شيء ممكن. فحين يتساءل بشأن اتِّجاه حياته يبدو الأمرُ كأنَّه يتساءل بشأن اتِّجاه حياتي أنا، وحين يتألَّم يعطِّلُ هذا من شعوري بالسلامة والخير أيضًا.٥

أصعبُ أوقات استماعنا هي تلك حين تصبح الأمور شخصيَّةً لنا، فحين يزعجُنا شخصٌ ما، سواء في علاقة قريبة أم في موقف نكون بعيدين منه، يكون سببُ الانزعاج عادةً هو أن الأمرَ يقتربُ منَّا بصورة ما، وسببُ صعوبةِ سماع الشكوك وأسئلة الإيمان التي لدى آخرين هو أنَّها تثيرُ فينا شكوكَنا التي لا نقرُّ بها، ونجدُ صعوبةً في التعامُل مع التوتُّر الناشئ عن صلاح الله وانكسار عالَمنا، ويجعلُنا قلقُنا نهرول إلى إجابات مبسَّطة تبسيطًا مُخلًّا، ولا نستطيعُ الجلوس في غموضٍ مع آخرين لأنَّ هذا الغموض يأتي بنا

وجهًا لوجهٍ مع ألمنا وأسئلتنا وصراعات إيماننا.

تطوَّعتُ مدَّة ستَّة أشهر للعمل مُشيرًا في أحد بنوك الطعام التابعة لكنيستي، وكان الزوَّار يأتون بضع مرَّات في الأسبوع ويتكلَّمون إلينا قبل أن يأخذوا تبرُّعات الطعام والملابس ويذهَبوا في سبيلِهِم. كنَّا حينها في خِضمِّ أسوأ فترات الكساد التي مرَرْنا بها، وكان عدد زوَّارنا في أعلى ما يمكن، وكانت قصصُهم تدمي القلوب، وكان أحدُ الرجال مثلًا من المحاربين القدامى في حرب يتنام وكان مُشرَّدًا. وكانت هناك سيِّدة عجوز ترعى ابنها من ذوي الاحتياجات الخاصَّة، وتعيشُ على الموادِّ الغذائيَّة التي تحصلُ عليها بدل قسائم خاصَّة ببنك الطعام. وأتت أيضًا أمٌّ مع ابنتَيها الصغيرتَين قبل يومَين من الاحتفال بعيد الشُّكر.

كنتُ أنا نفسي عاطلًا، فقد سُرِّحتُ من عملي قبل أن أبدأ تطوُّعي بستَّة أشهر، وكنتُ قد تقدَّمتُ إلى عشرات الوظائف في مجالات مختلفة عديدة، لكنَّ المنافسة في زمنِ الكساد كانت قاسية، وكان ممكنًا أن يصلَ عدد المتقدِّمين إلى وظائف منخفضة الأجر إلى مئة متقدِّم، وبدأتُ التطوُّعَ في بنك الطعام لأنِّي كنتُ جزئيًّا محتاجًا إلى شيء أفعله، وكانت أوضاع العملاء الذين كنتُ أراهم أسبوعيًّا أشدُّ كآبةً ممَّا كنتُ أمرُّ به، لكنِّي لم أقدر أن أمتنع عن رؤية نفسي في مكانِهم. وكانت محادثاتنا تثيرُ بعضًا من أعمق مخاوفي بشأن المستقبل وأعمَق شكوكي في الله. كنتُ أعود إلى منزلي وأستلقَي على الأريكة ضامًّا رجليَّ إلى رأسي في حَيرةٍ شديدة. ومعَ كلِّ التدريبات التي خضتُها، فقد كنتُ أمارسُ بعضًا من أسوأ مواقف استِماعي مع عملائنا، وأنا أعلمُ أنَّه

حين أبدأ في الإسراع في فعل الأمور، يكون قلقي هو المتحدِّث نيابةً عنِّي. كنتُ أنهي المحادثات سريعًا، وأصلِّي سريعًا، وأحيلُ الناس إلى الهيئات الأخرى سريعًا، لكنَّ الاستماع الجيِّد هو استماعٌ بطيء، أمَّا القلقُ فينطلقُ مسرعًا.

القلق والحالةُ الانتقاليَّة

حين نستمع إلى متألِّم ندخلُ إلى مكانٍ انتقاليٍّ، والمكانُ الانتقاليُّ هوً مكان ما بين اثنين، هو السيْر على الحبل بين جرفين، بينما تكون معلَّقًا في الهواء، فالألمُ قد أخذ المتألِّم بعيدًا عن مكان راحته السابق لكنَّه لم يصل بعْد إلى نقطة راحة جديدة، ولا يمكنه الرجوع، ولا نعرفُ كم من الوقت ستستغرقُ هذه الرحلة المروِّعة، ولا إلى أين ستقودُه. ولا يمكننا رؤية الجانب الآخر، لذا فأغلب المحادثات الأصيلة الحقيقيَّة هي تلك التي تنتهي دون

حلَ؛ فنادرًا ما تنتهي المحادثات مع المتألَمين كما تنتهي حلقةٌ من حلقات المسلسل الكرتونيِّ ''سكوبي-دو'' (Scooby-Doo)، فلن يخرجَ الناسُ من المحادثة وقد أُصلِح كلُّ شيءٍ، وشُفيتْ قلوبُهم بالكامل، وحُلَّت ألغازُهم حلًّا واضحًا كاملًا.

إذا أردتُ أن أكون مصدر تعزيةٍ للمتألِّم، فيجبُ أن أستطيع التجوُّل معه في المكان الانتقاليِّ، فآخذُ ألمَه وما يخلقُه هذا الألمُ من توتُّرٍ على محمَل الجِدِّ، وآخذ اللحظة التي تمرُّ أنتَ بها حاليًّا- بكلِّ معناها وشكِّها وألمها- على محمَل الجِدِّ؛ لأنَّك محبوبٌ الآن، وهناك أهمِّيَّةٌ وقيمةٌ لكلِّ ما تجلبُه إلى المناقشة كما هو، دون فلتر أو تعديلٍ أو تحسين، فليس الاستماع مكافأةً للسُّلوك الجيِّد أو للعقيدة الصحيحة، فلستُ منتظرًا لكي تُصلَحَ أو تصيغ الأمور صياغةً مثاليَّة أو تؤمن بما أومن به أو

ترى الأمور كما أراها قبل أن أستمع إليك، فلو كان يسوع يستمع مثل هذا الاستماع، لأمضى وقتًا طويًلا بمفرده.

إنَّ ‘‘النور’’ هو ما يمكِّنُنا من أن نكونَ حاضرينَ مع أولئك في ظلمتهم. ويحتضنُ مثلُ هذا الاستماع الغموضَ والالتباس مُرحِّبًا بهما، بل يحتضنُ ما هو أصعب من الكل: الانتظار. فمثل هذا الاستماع قادرٌ أن يجلسَ وسطَ أسئلةٍ دون الوثب السريع بالإجابات، ويعترفُ مثل هذا الاستماع بأنِّي لا أعرف الناتجَ، وليس دوري أن أديرَ دفَّة المحادثة إلى حيث أريدُها أن تتَّجه.

لكنَّ المكانَ الانتقاليَّ مكانٌ مُقلقٌ، ولا يتحمَّلُ الكثيرُ منَّا الأمورَ الغامضة غير المعروفة، إذ نتحمَّسُ راغبين في الوصول إلى الصفحة الأخيرة لنقرأها، لكنَّ في ذلك عدم احترام للقصَّة غير المكتملة للشخص الآخر، فحينً

نحاول مساعدة متألَم، تنتهي بنا الحالَ قائلين أو فاعلين أموِرًا، دون وعي، كي نُسكِّن من قلقِنا. فلنَكُنْ أُمَناءَ مع أنفسِنا؛ فكثيرًا ما نريدُ أن يكونَ الآخرون على ما يُرام لنشعرَ نحن بأنَّنا على ما يُرام، فنريدُهم أن يشعروا بتحسُّنٍ ويَمضوا قُدُمًا في حياتهم كي ترجع حياتنا إلى وضعها الطبيعيِّ، فنحاول السيطرة على المحادثة في محاولةٍ للتعويض عن قلقنا.

ويمكنُ أن يرقى تعامُلُنا مع المتألِّمين إلى علاج الذَّات، إذ نبدأ نشعر بذلك الضيق في صدورنا وتلك الغصَّة في حلقنا، ونريدُ لقلوبنا أن تتوقَّف عن الخَفَقانِ بسُرعة، وبهذا نستغلُّ مَوقفَ الشخص الآخرِ بوصفه فرصةً لتهدئة نفوسِنا وطمأنتِها. لكنْ يفوتُنا أن ننتبهَ إليه في وسط هذه العمليَّة؛ لأنَّنا منشغلون بالإسقاط عليهم. لذا فقبلَ أن تُقدِم على الحديث في هذه المواقف، اطرح على نفسك السؤال الجيِّد

التالي: مَن أحاولُ أن أَطمئنَ في هذه المحادثة؟ هل أحاول إقناعَ شَخص آخر أنَّ موقفَه ليس على هذه الدرجة من السوء، أم أحاول إقناع نفسي أنَّ هذا الموقف ليس على هذه الدرجة من السوء؟ هل أحاول الهروَلة بهم إلى الجانب الآخر حتَّى تشعر حياتي باستقرارٍ أكثر؟

دورُ المستمع: المواجدة

ما ينشدُه الألمُ هو المواجَدة. وتعني المواجدة حرفيًّا "توجيه الشعور إلى ما في الداخل". فحين نتصرَّفُ بمواجدة نسعى لكي ندخلَ، قدرَ الإمكانِ، إلى عالَم شخص آخر. وهذه عمليَّة تخيُّليَّة حيثُ نلبسُ مؤقَّتًا ملابسَهم، ونعيشُ حياتَهم، ونفكِّر أفكارَهم، ونسمع بآذانهم، ونشعر بمشاعرهم، وبهذا نحاولُ فهْمَ مَوقفِهم قدر الإمكان من الداخل. وباستخدام هذه الطريقة لا نجزِّئُ أفكارَ الشَّخص إلى مَا نتَّفقُ وما نختلف معه فيه، أو ما نستحسنه وما

نستتكره؛ لأنّنا نحاول أن نكون هذا الشخص لفترة قصيرة، فنكون بحسب كلمات وليَم يوري (William Ury) ‘‘نخطو إلى جانب’’ الشخص الآخر.٦

إنَّ اقتناعي هو أنَّ المستمعَ الذي يعرفُ كيفيَّة ممارسة التواجد هو قادرٌ على التكلّم مع أيِّ شخص بشأن أيِّ شيء. وفي بعض المرَّات، نبتعدُ عن المتألمين لأنَّنا لم نعانِ شخصيًّا ما يمرُّون به؛ فوالدايَ لا يزالان علَى قيد الحياة لذا لا يمكنني مساعدة صديقي الذي تُوُفِّي والدُه. أو لا يمكنُني مساعدةُ زميلي الذي عرفَ بمرضه مؤخَّرًا؛ لأنِّي أتمتَّعُ بصحَّة جيِّدة، بل من الأفضلِ أن أدعَ شخصًا آخر نجا من السرطان يعتني به. غير أنَّ المواجَدةَ لا تتطلَّب أن أكون قد مررتُ بخبرات مماثلة لخبراتِ شخص آخرَ، بل لو كنتُ قد اختبرتُ الأمرَ نفسَه، قدً أقعُ في إغراء تحويل المحادثة

نحوي، أو إسقاط ذكرياتي أو ألمي أو حلولي إلى الشخص الآخر. ودون شكّ، من المفيد أحيانًا أن نعرفَ اختباريًّا ألمَ الشخصِ الآخر، لكن في الحياة يمكن أن يتفهَّمَ كلُّ شخص النوحَ والفقدانَ والخزيِ والعلاقات المفكَّكةً، فيمكننا إذًا أن نقولَ إنَّ المواجدةَ تختارُ أن تدخلَ الأماكنَ المظلِمةَ في عالَمِ شخصٍ آخر، كي ترتجفَ في البرودة وتنتظرَ معه هناك.

إفساد اللحظة

يستخدمُ والداي تعليقًا حين يعبِّرُ أحدُهما عن حماسته لشيء، ويردُّ الآخر بحماسةٍ أقلّ، فيقولُ الأوَّل: ''حسنًا، ها قد أفسدتَ اللحظة''. فمثلًا:

> ماما: ''كانِ اليومَ التقييم السنويُّ في العمل، ويقولون إنَّهم معجبون حقًّا بأدائي''.
>
> بابا: ''هل معنى هذا أنَّكِ ستحتاجين إلى العملِ لأيَّام أكثر؟''.

ماما: ’’حسنًا، ها قد أفسدتَ اللحظةَ‘‘.

نفسدُ اللحظة حين تنقصُنا القدرة أو الاستعداد لتحديد نغمة كلمات الشخص الآخر ومحاكاتها في نغمة كلماتنا. فإذا أردنا عدم إفساد اللحظة، يمكننا توظيف الاستراتيجيَّة نفسها التي نستخدمُها عند قراءة نصٍّ من الكتاب المقدَّس. فمثلًا كي نقرأ سفرَ الرؤيا، علينا وضعُه في الأسلوبِ الأدبيِّ للرؤيا النبويَّةِ، والتي تستخدمُ رمزيَّةً خفيَّةً وتشبيهاتٍ أُخرَويَّة لوصْف أشخاص وأحداث تاريخيَّة. فإذا أردنا الاستماع إلى شخص آخر، علينا تحديد ’’أسلوب‘‘ حديثه، أيً المحتوى الشعوريِّ لما يقولُه والكيفيَّة التي يقولُه بها.

الإصغاء إلى الأسلوب هو معنى ’’فرَحًا مع الفرحين وبكاءً مع الباكين‘‘ (رومية ١٢: ١٥)، فالفرحُ يستدعي الفرح، والفكاهة تستدعي الضحك، والحزنُ يستدعي الحزن، فإذا كان

أحدُهم متألِّمًا لن تفيدَه بالردِّ بأسئلةٍ منطقيَّة لا علاقة لها بشعوره. وإذا تحدَّث أحدُهم متحمِّسًا وبصوتٍ مرتفع، فردُّك مستخدمًا نغمة هادئة خافتة سيعطي شعورًا مثبِّطًا بل مسيطرًا. وبينما يحاكي بعضُ الناس الآخرين محاكاةً تلقائيَّة، يصارع بعضُ النَاس مع حالةٍ من الصممِ الشعوريِّ الذي لا يميِّز النغمات، ما يمنعُهمَ من سماع التلميحات الموجودة في أساليب الحديث المختلفة لتقديم الاستجابة الملائمة، لكنَّ الخبر السارَّ هو أنَّ من الممكن تعلُّم ذلك؛ فالإصغاء إلى الأسلوب لا يعني التمثيل أو التكلُّف، بل هو أمرٌ يتطلَّبُ الوصولَ إلى تلك المناطق في نفسِك التي تميِّزُ مشاعر الآخر واختباراته. فإذا لم تكن قد استكشفتَ المنطقةَ النائحةَ فيك، فلن تكونَ على الأغلبِ فَعَّالًا في الاستماع إلى نوح الآخرين.

إذا أخذتَ ألمَ الآخرِ وشكوكَه وصراعاته على

محمَلِ الجِدِّ، فسيبدأ هو أيضًا في اتِّخاذها على محمَلِ الجِدِّ. لكنَّ أولئك منَّا مَن هم في دوائر مسيحيَّة معيَّنة اعتادوا إزاحة أسئلة الإيمان والشكوك جانبًا بالكلام الدينيِّ العامِّ حتَّى إنَّنا لا نعرفُ حتَّى كيفيَّة قبولِ العمليَّة التي يأخذُنا فيها ألمُنا، فنقول إنَّ الله يستخدمُ كلَّ الأمور للخير، لكنَّنا لا نعرفُ كيف نشارك في عمليَّة الافتداء تلك، إذ لا نستطيع الإقرارَ بأنَّنا متألِّمون، وبأنَّ معتقداتنا مهزوزة، وطريقةَ تفكيرِنا وشعورنا وحياتنا تغيَّرتْ، فلا نقدرُ أن نصلَ إلى الخير الذي يعملُه الله؛ لأنَّنا غير قادرين على مواجَهةِ السيِّئ الذي تجلبُه الحياة. لكنْ إذا استَطاعَ بعضُنا الاستماع إلى المتألِّمين، فقد نتمكَّنُ حينها من البدء في تغيير الثقافة التي تحجبُ الألمَ وتقلِّصُه. وإذا لم نعنِّف آخرينَ بسبب صراعات إيمانهم، فقد يتوقَّفون هم أيضًا عن تعنيف أنفسِهم.

حين مات لعازر، أقامَه يسوع، لكنَّه بكى أوَّلًا، إذ رفعَ صوتَه باكيًا مشاركًا في نوح الجماعة، فتعجَّب النائحون قائلين: ‘‘انظروا كيف كان يحبُّه!’’، فيسوعُ أظهرَ حبَّه للعازر بِالبُكاء، ثمَّ سارِ إلى القبر وأقامَه، أي أنَّه دخلِ الألمَ ثمَّ دخلَ القبر، وكثيرًا ما نخذلُ المتألِّمين حين نحاول أن نشفيَهم قبل أن نبكيَ مَعَهُم.

الألمُ، الجسمانيُّ أو العاطفيُّ أو الروحيُّ، هو أمرٌ مُشوِّشٌ؛ لأنَّه يُذكِّرُنا بمحدوديَّتنا، إذ يواجهُنا بالموت، وفي بعض الأحيان يوقِّعُ المرضى وثيقةَ ‘‘عدم الإنعاش’’ (Do Not Resuscitate)، وهي وثيقة قانونيَّة تضمنُ أنَّ المسعفين لن يتَّخذوا إجراءات بطوليَّة (مثل إنعاش قلبيٍّ رئويٍّ أو أجهزة دعم الحياة) ليُنقذوهُم إذا دخلوا في حالةِ موتٍ دماغيٍّ أو توقَّفَ تنفُّسُهم. ويُثارُ داخلي تساؤلٌ بشأن ما

إذا كان علينا حسبانُ كلَ المتألَمين ألمًا خطيرًا كما لو أنَّهم وقَّعوا وثيقةَ "عدم إنعاش" لمشاعرهم؛ فلسنا نحاول حمايتهم من الألم أو حتَّى من الموت الناتج عن الأحلام الضائعة أو العلاقات الضائعة أو إحساس القوَّة الضائع، ولسنا نحاول الهرولة بهم من أحد الشعانين (السعف) إلى القيامة دون المرور بالجُمعة العظيمة، لكنَّ أمورًا كثيرة تحتاج لأن تسوءَ قبل أن تتماثَل للشِّفاء، لذا علينا ألَّا نقفَ هناك فوقَ الجُبِّ عن بُعدٍ محاولين إلقاء حَبْلِ النصيحة إليهم متشدِّقين بالدفاعات الحماسيَّة عن صلاح الله، بل ننزلُ إلى الجُبِّ معهم، ونبكي معهم، ونسمحُ لقلبنا أن يُفطَرَ مع مفطوري القلوب. ونظلُّ هناك معًا منتظرين القيامة.

قبل بضع سنوات جرت هذه المحادثة ما بين طالبتَين كنتُ أعملُ مع إحداهما، وهما كيري

وسارة.

سارة: ‘‘لا قيمةَ لي’’.

كيري: ‘‘هذا غير صحيح’’.

سارة: ‘‘ما مِن أحدٍ يحبُّني’’.

كيري: ‘‘بل الجميعُ يحبُّونكِ’’.

سارة: ‘‘الله يكرهُني’’.

كيري: ‘‘لا، ليس صحيحًا؛ بل هو يحبُّكِ أيضًا’’.

سارة: ‘‘لستُ قادرة على فعل أيِّ شيء صحيح. أنا فاشلةٌ’’.

كيري: ‘‘لا، لستِ فاشلة؛ فقط ألقِ نظرةً على كلِّ ما حقَّقتِه’’.

يبدو جزءٌ كبيرٌ من تلك المحادثة مألوفًا لدينا، ودورُ المؤمنين حولَنا هو تذكيرُنا بمَن نكونُ وتأييدُنا حين نضعفُ، وتقديمِ الله إلينا حين يبدو بعيدًا جدًّا، وكم نشعرُ بالذُّعر حين يشعرُ

أحدُ أحبَّائنا بأنّه دون قيمة، فنُهرع إليه مُدافعين كما تُهرعُ خلايا الدم البيضاء نحو فيروس مُعتَدٍ. وإذا نظرنا إلى المحادثة السابقة سنجدُ أنَّ كلَّ ما قالته كيري صحيحٌ، لكنْ إليكم المشكلة: كانت كاري تقفُ خارج البئر التي كانت سارة فيها، وكانت تنظر إلى الداخل، محاوِلةً أن تجادل سارة كي تُخرِجَها من مشاعِرها الحزينة.

من الشائع أن يتحدَّث الناسُ في صورة تصريحاتٍ وحقائق بينما هُم في الحقيقة يخبروننا بما يشعرون به، فسارة كانت تقصدُ ''أشعرُ كما لو كان الله يكرهُني''، و''أشعرُ كأنِّي فاشلة''، أمَّا كاري فكان ردُّ فعلها يصرفُ النظر عن مشاعر سارة، دون أن تدري ذلك، ومع أنَّها كانت حسَنَةَ النيَّة. فبينما كانت سارة في البئر، كانت كاري تقفُ عند فوَّهة البئر من أعلى محاوِلةً سحبَها إلى

الخارج، ولن يُجدي هذا نفعًا، لكنْ كان على كاري أن تهبط إلى البئر، ولو فعلت هذا لكانَتِ الحال أفضل:

سارة: ‘‘لا قيمةَ لي’’.

كاري: ‘‘كم يؤسِفني سماعُ ذلك. يا له من شعور مؤلم!’’.

سارة: ‘‘الله يكرهُني’’.

كاري: ‘‘يا له من شعورٍ رهيب حقًّا!’’.

سارة: ‘‘أنا فاشلةٌ؛ لستُ قادرة على فعل أيِّ شيء صحيح’’.

كاري: ‘‘يا لَحِملِك الثقيل!’’

فبدلَ ‘‘التحدُّث بالصدق’’، اختارت كاري هنا أن تتعاطَفَ مع سارة، هابطةً معها إلى بئر اليأس، والآن هما معًا، وتشعرُ كلتاهما بالضَّعف والنَّقص، وتنتظران القيامةَ، العملَ الذي يمكن أن يعملَه الله وحدَه.

لكِي تفعل هذا، تحتاجُ كاري لأن تتقمَّصَ عالَم مشاعِرِ سارة، وقد تحتاج إلى التعامُل مع مشاعرَ واختباراتٍ شبيهةٍ مرَّت هي نفسُها بها، أمَّا أصعبُ ما في ذلك والأمرُ الذي يحيِّرُ الكثيرين هو أنَّك في الحقيقة تُشجِّعُ الآخرَ على البقاء في الشعور، فليس دورُك إنقاذَه أو حتَّى محاولة جَعْله أفضل، ويكاد الأمر يبدو كما لو كنتَ تحفر البئرَ أكثر وأكثر بدلَ محاولة جذب الشخص الآخر إلى الخارج، وعليك الحذر بشأن الأسئلة في هذه المواقف؛ لأنَّ بعضَ الأسئلة يمكنُ أن تأخذَ الآخر دون قصدٍ خارجَ قلبِه وصولًا إلى عقله. فإذا سألتَ شخصًا في لحظات ألمه سؤالًا مثل: ‘‘هل شعرتَ بمثل هذا الشعور من قبل؟’’، فسترى حينها طاقتَه تتَّجهُ من جسمه إلى عقله، خارجَ مشاعره وإلى أفكاره، ولن تكونَ حينها تتعامل مع جوهر الموضوع.

يمكنني الآن سماعُ صرخات اعتراض القَرَّاء متسائلين: أنترك الناس في يأسهم؟ أنتمرَّغُ معهم في مشاعرهم دون تقديم أيِّ مَخرَج؟ أنهلِك معًا في البئر؟، وردِّي هو أنَّك ستُدهَشُ بما يمكن أن يحدث بالاستماع بمواجَدة؛ فبدل إخبار شخص ما فقط بأنَّ الله يحبُّه، تُظهر له أنَّ الله يحبُّه بتحمُّل ألمه معه.

أكثر العناصر حسَّاسيَّةً بشأن التكلُّم بصدق ليس هو المحتوى أو الاقتناع، بل التوقيت؛ فمن غير المرجَّح أن يَسمَعَ المتألِّمون ما لم يشعروا أوَّلًا بأنَّهم مسموعون. فأفضلُ العظات، وإنْ أُلقيَت في التوقيت الخاطئ، ستفشلُ فشلًا ذريعًا كما لعِظةِ زفافٍ تُلقى في مأتم، إذ سيكون الناس في حالة دفاعيَّة، أو سيصمتون تمامًا إذا استُخدم سيفُ الحقِّ في التوقيت الخاطئ، فلا تظنَّ أنَّ صمتَهم يعني موافقتَهم، لكنَّهم إذا شعروا بأنَّ أحدَهم يستمعُ

إليهم وأنَّهم محبوبون، فربَّما يقدرون حينَها أن يسمعوا مواعيد الله على الجانب الآخر، وقد يستقبلون حينَها سؤالًا مثل: ‘‘إلامَ تحتاج الآن؟’’٧، وقد يقدرون أن يبدأوا يفكِّرون في المستقبل وأيَّة حياة جديدة سيقدِّمها الله إليهم.

المستمعون الجيِّدون يبكون أوَّلًا، ثمَّ يقدِّمون شفاءً.

الفصل الثامن

الاستماع إلى حياتك

هناك الكثيرُ من الأصوات في رأسي، ويمكنني تفهُّم حالة مجنون كورة الجدريِّين، المسكون بلجئون (لأنَّه كان مسكونًا بعددٍ كبيرٍ من الأرواح) قبل أن يلتَقي يسوعَ. وكانت الأرواحُ الشرِّيرة تتحكَّمُ فيه وتطرحه هنا وهناك، وكان مشتَّتًا ومرتعبًا ومنعزلًا، وأتفهَّمُ ذلك إلى حدٍّ ما؛ فهناك أيَّامٌ يبدو فيها ذهني كأنَّه ممتلئ بلجئون من الأصوات، آلاف المرشدين والمحاربين والمشتكين المختلفين الواحد مع الآخر والكارهين بعضُهم بعضًا، ويعلو صوتُ بعضهم أكثر من الآخر، ويكونُ بعضُهُم أكثر غِوايةً، وبعضُهم طريقة والديَّ، وبعضُهم يتَّسمُ بالحماقة، وبعضُهم ينفعلُ غاضبًا مثل طفلٍ في الثانية من عمره، يهمسُ بعضُهم ويصرخُ بعضُهم الآخر. وفي مرَّاتٍ يتَّسمون بحسِّ الفكاهة واللُّطف، وفي مرَّات أخرى يتركون لديَّ إحساسًا بالتشوُّش والانقسام، لكنَّهم

بالتأكيد كثيرون، وكثيرًا ما أتمنَّى لو اندفعوا كلّهم مِن على الجرُف إلى البحر.

والآن قبلَ أن تظنَّ أنِّي في احتياج إلى المزيد من الأدوية أو أن يربطني الطبيبُ إلى فراش مستشفى الأمراض العقليَّة، اعلمْ أنَّ هناك آخرين يسمَعون أصواتًا أيضًا. وقد قال والت ويتمان (Walt Whitman): ''هل أتناقض مع نفسي؟ حسنًا جدًّا، أنا بالفعل أتناقضُ مع نفسي، فأنا ضخمٌ وفي داخلي جماهير كثيرة''. ويشبِّهُ مرشدي الروحيُّ الأصواتَ التي تعجُّ في رأسه بفصلٍ دراسيٍّ لطلَّاب الصفِّ السادس؛ فهناك طفلٌ ينظرُ من النافذة، وآخر يرفعُ يده ليُجيبَ عن كلِّ سؤال، والآخر يفكِّرُ في أمرٍ آخر، وآخر ينتظرُ الغداء بفارغ الصبر، وآخر يغشُّ في الامتحانات، وآخر يسعى إلى جذب الانتباه، وآخر يُضايقُ الباقين. وبوصفك معلِّمَهم، تحاولُ محاولاتٍ يائسةً أن تُشرفَ عليهم وتجعلهم يوجِّهون تركيزهم نحو الدرس نفسه، وأحيانًا تُغريهم بالمكافآت للسُّلوك الجيِّد، ومرَّات تضطرُّ إلى إرسال

أحدهم إلى إدارة المدرسة، ومرَّات تُحضِرُ أحدَهم ليكتبَ على السبُّورة، وتحتاج في مرٍّاتٍ لأنْ يَضَعوا رؤوسَهم على مكاتبهم ويصمتوا برهةً من الوقت.

ووجود الأصوات هو ما شجَّع على الكثير من المناقشات المدقِّقة في تقليدنا الروحيِّ بشأن التمييز، ويتضمَّنُ التمييزُ الانتباه إلى الحركات الداخليَّة للنَّفس- أفكارنا ومشاعرنا وتلقائيَّتنا ودوافعنا ومثيراتنا وكلِّ شيء آخر يحدثُ داخلَنا. وصاغ الكثيرُ من المعلمين هذه المحادثات بحسب ١يوحنَّا ٤: ١ ‟أيُّها الأحبَّاء، لا تصدِّقوا كلَّ روح، بل امتحِنوا الأرواح: هل هي مِن الله؟”، ومن ذلك النصِّ طوَّر إغناطيوس لويولا تعليمَه الروحيَّ الخاصَّ ‟بتمييز الأرواح”. والتمييزُ هو امتحانٌ، أو غربلةٌ للاختبارات الداخليَّة- ليس فقط الاختبارات ‟الروحيَّة” بل أيضًا الخاصَّة بالمشاعر والمنطق والجسد- بِغَرض تبنِّي الجيِّد منها ورفض السيِّئ. ويتضمَّنُ التمييزُ الفكرة الراديكاليَّة أنَّنا إنْ أرَدْنا سماعَ صوت الله، فلسنا على الأرجح في احتياج إلى

الصعود إلى أعالي السماوات، لكن ربَّما يمكننا البدء بالاستماع إلى حياتنا.[1]

يبدأُ تمييزُ الأصوات بهذا الأساس: ما يحدثُ فيك مهمٌّ وله معنى، ويبدو هذا الأمر بسيطًا، لكنَّ بعضَ الناس يقاومون هذه الفكرة، وأحيانًا كثيرة أسمعُ مسيحيِّين يقولون إنَّ الطريقَ إلى النُّضج الروحيِّ يتضمَّنُ "نسيان النفس"، وتوجيه كلِّ انتباهي نحوَ الله، مهتمًّا بالقليلِ عنِّي وبالكثير عنه. وبينما نهدفُ إلى تمجيد الله في كلِّ ما نعمل، فالطريقُ إلى تبعيَّة يسوع ليس هو التخلِّي عن النفس، فصحيحٌ أنَّنا ننحِّي ما هو زائل- الطرق القديمة والحياة القديمة والذات القديمة- ثمَّ نصبح مُفعمين بالحياة بتبنِّينا لحياة الخليقة الجديدة فينا، ذاتنا الحقيقيَّة الأعمق، لكنَّنا لا ننسى أنفسَنا، بل نصبح أنفسنا بالكامل. وكما قال قدِّيس القرن الثاني إرينايوس (St. Irenaeus): "مجدُ الله هو إنسانٌ حيٌّ حياةً كاملة"؛ فلسنا أحياء بالكامل حتَّى نحبَّ الله من كلِّ ذهننا وقلبنا ونفسنا وقدرتنا. ولا يمكننا أن نحبَّ الله من كلِّ نفوسنا

ما لم نفهم ونُلمَّ بأذهاننا وقلوبنا ونفوسنا وأجسادنا. وأعتقدُ أنَّ على المسيحيِّين أن يقودوا طريقَ معرفة النفس مثلما يوصينا جون كالـ□ن في كتاباته بعنوان ''الأساسيَّات'' *(Institutes)*: ''دون معرفة النفس ليست هناك معرفة بالله''.

أفكارك ومشاعرك وتلقائيَّتُك ورغباتك وقيمك وشغفك وأحلامك وأسئلتك المتكرِّرة واستجاباتك الجسديَّة، لها كلُّها معنى، وهي تحاولُ أن تعلِّمَك، وكلُّها مرتبطةٌ بعضها ببعض؛ فهي تخبرُك عن حياتك، وتشكِّلُ الأصواتُ التي تختار أن تستمعَ إليها الشخصَ الذي ستصيره، ويمكنك محاولة تجاهل هذه الأصوات أو تحاشيها، لكنَّك إنْ فعلتَ ذلك فستتصرَّف تلقائيًّا بناءً على هذه الأصوات دون وعي منك، سائرًا نحو عتبة اللَّاوعي وعالمه الداخليّ، وتلك الحقائق العاملة تحت السطح دائمًا ما يكون لها السطوة الأعلى، لكنْ بدلَ ذلك، لنستيقظْ ونتنبهْ لما يحدثُ داخلَنا، لنستمعَ إليه ونحترمه وندعه يشكِّلُنا إلى ما نصبو لأنْ نكونه. وقد

صاغ ذلك پاركر پالمر بقَوله: "قبلَ أن أستطيعَ إخبار حياتي ما أريد أن أصنع بها، عليَّ الاستماع إلى حياتي حيث تخبرني هي مَن أنا".[٢] وإذا كنَّا سنأخذ عقيدة الروح القدس الساكن فينا على محمَلِ الجِدِّ، فعلينا الانفتاح على فكرة أنَّ الله يتحدَّثُ داخلَنا، وليس فقط منِ أماكن وكلمات خارجَنا. ورُغمَ أنَّ هناك أمورًا عميقة تعجُّ داخلنا، فهل نستمعُ إليها؟

التمييزُ هو عكسُ ما يميلُ معظمُنا إلى فعله للتعامل مع الأصوات الداخليَّة، لا سيَّما السلبيِّ منها؛ إذ من الأسهل جدًّا إهمالها أو إسكاتها أو دفعها بعيدًا أو تخديرها أو خنقها باستخدامِ الطعام والشراب. وأعتقدُ مرَّاتٍ أنَّنا خلقنا عوالم كاملةً لنمنعَ أنفسَنا من الاستماع إلى ما يحدثُ داخلنا، والاختيارات المتاحة في ثقافتنا لتجنُّب الأصوات هي اختيارات بلا نهاية؛ إذ تضمنُ لنا التكنولوجيا المتاحة في جيوبنا ألَّا تكون لدينا أيَّة لحظة هادئة بمفردنا، وتَعِدُنا المجادَلات الفارغة والخلافات والصراعات على الإنترنت أنَّ في وُسعِنا دائمًا إيجاد

مَخرج نفرِّغ فيه قلقَنا؛ فنحن مغمورون تحت أكوام من التشتيت، والهروب من الواقع، والتسلية، والأنشطة المفرطة والإدمان، أمَّا العمل الزائد وجداول المواعيد المزدحمة وزيادة كلّ شيء فتجعلُ حياتنا ممتلئة ونفوسنا وحيدة، ونعلمُ جميعًا أنَّ الأشهى هو إشباع أحاسيسنا بملئها بالطعام بدل محاولة هضم المشاعر المؤلِمة.

إنَّ إيقاعَ الحياة الحديثة وأنشطتها ليست مجرَّدَ قوى تستهلكنا دون أدنى سيطرةٍ لنا عليها، كأنَّها قراصنة تكتسحُ في صَخبِ قريَتنا الساحليَّة الهادئة، بل نحن نسعدُ عادةً بالتشتُّت؛ لأنَّنا في الواقع نرهبُ ممَّا سيأتي إنْ جَلَسْنا هادئين. ويعلِّقُ ريتشارد رور قائلًا إنَّ أوَّل ما يظهرُ بعد أن يُقتاد يسوعُ إلى البرِّيَّة هو الوحوش[٣]، بأعينها المهدِّدة اللامعة في الظلام، وقد نكتشفُ أنَّ لدينا في أعماقنا ما دفنَّاه من الألم والغضب، من خسارة لم نَنُح عليها، ومن مخاوف وخطايا مستترة، علاوةً على الرغبات والأحلام التي لم تتحقَّق، لذا نهرب إلى أبعد

ما يمكن وبأسرع ما يكون، وبينما ذهب يسوعُ إلى البرِّيَّة ليواجِه الأصوات، نهربُ نحن من البرِّيَّة، بعيدًا عن الأصوات في اتِّجاه البريق الدافئ للتَّشتيت.

أمَّا مَن يعترضُ على ذلك فيسأل: أليس الاستماعُ إلى نفسك تَدريبًا في الانحسار في الذات، وعذرًا للنرجسيَّة والتركيز على النفس؟ أليس التركيز على نفسي هو تعريفُ الكبرياء ذاته؟ أليسَ من المُفترض أن نكونَ أشخاصًا محبِّين نخسرُ أنفسَنا بغَرَض خدمة الآخرين؟ أعتقدُ أنَّ الاستماع الجيِّد يبدأ بنا، إذ ستحدِّدُ الكيفيَّةُ التي تستمع بها إلى نفسك الكيفيَّةَ التي تستمع بها إلى آخرين. فإذا كنتَ تصرفُ النظر عن مشاعرك الخاصَّة، فهناك احتمالٌ كبير أنَّك ستصرف النظر عن مشاعر الآخرين أيضًا من منطلق العادة، أمَّا أولئك مَن يقدِرون على تمييز مشاعرهم، فسوف يستجيبون أفضل استجابةٍ لمشاعر الآخرين. وإذا لم تقدر أن تجلسَ مع مشاعرك المؤلمة، فمن الأرجح أنَّك ستقدِّم إلى الآخرين المتألِّمين نصائحَ وشعاراتٍ دينيَّةً تستخفُّ بألمِهم. وإذا كنتَ من

النوع الذي يصدر أحكامًا سريعة تدين أفكار عالمك الداخليِّ وتقلُّباته، فلن تقدر أن تُظهرَ للآخرين تَعاطُفًا حين يخاطرون بمشاركة مشاعرهم معك. وكلَّما كانت أصواتُك الداخليَّة أقسى، كانت استجاباتك لأخطاء الآخرين ونقائصهم أقسى أيضًا. فمن الأرجح أنَّك ستُسقِطُ عدم أمانك وقلقَكَ على الآخرين.

ليس اكتشاف النفس هو النهاية المنشودة في الاستماع إلى حياتك؛ فالنهاية المنشودة هي المحبَّة. وإذا أرَدْنا الاستماع إلى الآخرين بتَعاطُفٍ ولُطفٍ وانتباهٍ، فعلينا إذًا تعلُّم الاستماع إلى أنفسِنا بتلك الخصائص ذاتها. وإذا عَمِلْنا في المساحات الهادئة، فستَقِلُّ دوافعنا غير المسيطَرِ عليها حين تعلو الأصواتُ.

هدوء قسريٌّ: إغناطيوس لويولا

أحيانًا تتعرَّضُ حياتُنا لاهتزاز شديد، فلا نرى سوى العواصف والاضطرابات. وكما تقول مادلين لينغل (Madeleine L'Engle): ''حين أجري هنا وهناك جريًا مستمرًّا، لا أجدُ الوقتَ لأكون، وحيث لا وقتَ لأكون لا

وقتَ للاستماع".[٤] فالاستماع يتطلَّبُ أن نكون، وحين تضربُ الرياحُ ويتساقطُ الثلجُ، يكون من الصعب أن نكون، وذلك هو الوقت الذي نحتاج فيه لأنْ نشعل النيران ونتنفَّس بعمقٍ وندعَ الثلجَ يستقرُّ، ونجلسُ نحن في هدوء.

إغناطيوس لويولا، إسپانيٌّ من القرن السادس عشر، وهو مؤسِّس الرهبنة اليسوعيَّة، وهو الآن شفيعُ كلِّ المؤتمرات الروحيَّة، يشتهر بالكثير من التطويرات الروحيَّة، لكن ليس هناك أهمُّ من تعاليمه الدقيقة عن التمييز والانتباه إلى تحرُّكات النفس من جهة المشاعر. وليس صدفةً أنَّه توصَّل إلى استعلاناته الروحيَّة في موسم قسريٍّ من الهدوء والعزلة.

بعد إصابة إغناطيوس في الحرب الإيطاليَّة، أمضى شهورًا من النقاهة، وساعاتٍ من العُزلةِ في القراءة والأحلام. وتنوَّعتْ قراءاتُه اليوميَّة ما بين قصص أعمال الفرسان، والنصوص الروحيَّة عن حياة يسوع والرهبان مثل فرنسيس الأسيزيِّ. ورويدًا رويدًا في

عزلته القسريَّة، بدأ ينتبه إلى ما كان يحدُثُ فيه على مستوى المشاعر بينما كان يقرأ ويتأمَّلُ في الكتب المختلفة. وبينما كان ينتشي عند قراءته لِسِيَر رجال عظماء ومغامراتهم القويَّة، كان عالمُه الداخليُّ، بعد أن يغلق الكتاب، يتَّخذ منحًى كئيبًا، إذ كان يُحزنُه الفراغُ والمجد الزائل للمساعي الأرضيَّة حين تُقارن بما يقرأ. وحين قرأ بشأن يسوع والقدِّيس فرنسيس، تهلَّل قلبُه لكنْ بعد أن أغلق الكتاب وجدَ قلبَه لا يزال راضيًا ومُلهَمًا، فبدأ إغناطيوس يصبح واعيًا بعمل الروح القدس في حياته حين اختبر الفرح الدائم والمحبَّة والسلام والرضى- ما أسماه "التعزيات"- وكان يكتشفُ تحرُّكاتٍ لقُوى أُخرى حين كان يختبرُ الفراغ الدائم واليأس ونقصان الإيمان والاكتئاب الروحيَّ، أو ما أسماه "الكآبات".

تعلَّم إغناطيوس ما يتعلَّمُه كلُّ مَن يختبرُ العُزلة ويجرِّبُها: سرعان ما يعلو صوتُ الهدوء، ففي الصمت الخارجيِّ يرتفعُ الصوتُ الداخليُّ وعلينا أخيرًا مواجهة

الأصوات المتحدِّثة؛ فالصمتُ لا يخفتُ من الأصوات، بل يضخِّمُها. ويمكن أن يكونَ الهدوء مُرعبًا منعزلًا مهجورًا، مدينة أشباح العالَم الداخليِّ. وقال عن هذا دالاس ويلارد إنَّنا نكرهُ الهدوء؛ لأنَّ خموله وفراغه يستَحضِران الموتَ، لذا فتجنُّبُ الهدوء ربَّما هو المكافئ الداخليُّ للممارسة الحديثة لبناء المقابر بعيدًا عن مجال رؤية العامَّة.

ويتطلَّبُ السعيُ المُوجَّه إلى الهدوء شجاعةً، وهي الشجاعة للاستماع إلى نفسك دون ضَوضاء الآخرين وتَشتيتهم، دون التصديق الذي ننالُه من الزملاء والعائلة، ودون بريق الإنجازات الشخصيَّة والمهنيَّة، وهي الشجاعة للجلوس في الحقيقة الهشَّة القاسية، حقيقتك أنت! ويتطلَّبُ هذا الأمر الهدوء وليس فقط الهدوء بل الهدوء الأمين؛ إذ إنَّ عليك الاستماع إلى ما هو حقيقيٌّ فعلًا بشأنك أنت- الجيِّد والسيِّئ أيضًا، السماء والجحيم الموجودين في كلٍّ منَّا. وكم تُلهمُني جُملة ماريان رايت إيدلمان (Marian Wright Edelman):

"تعلَّمْ أن تهدأ بما يكفي لتسمع الأصيلَ والحقيقيَّ الذي في نفسِك، حتَّى تقدر أن تسمعَه في الآخرين". [٥]

محبَّة الأصوات المعادية

الهدوء والعزلة هما أرضُ التدريب للاستماع إلى أنفسِنا، إذ يمكن أن تتشبَّع حياتُنا اليوميَّة بالانشغال والهروَلة حتَّى نجدَ أنفسنا ندورُ مثل حيوان الشيطان التسمانيِّ الطائش والشرس. وحين نُبعِد أنفسنا إبعادًا واعيًا عن ذلك المكان لفترات قصيرة من الاستماع المُكرَّس، يمكننا تدريب أنفسنا على الاستماع والعيْش بتأنٍّ في كل مناحي الحياة، ويمكننا الجلوس لعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة داعين الأصوات لتتحدَّث وتعلِّمَنا.

إنَّ مفتاح الاستماع إلى حياتك هو في أن تأخذ ما تسمعه دون الإسراع في تقييمه والحُكم عليه وإدانته، إذ تعطي الأصوات إذنًا للتحدُّث، وتستمع لتُلاحظ لا لتهاجم هذه الأصوات أو تُسكِتَها، إذ تجلسُ معها مثلما

تجلسُ في غرفة المعيشة مستمعًا إلى صديق[٦]، وتسهلُ مصادقةُ بعض الهمسات- اللطيفة، المحبَّة، الواثقة- بالمقارنة بتلك التي تتذمَّرُ- الأصوات المُشكِّكة، الأصوات المُجرِّبة، الأصوات المشتكية، لكنِّي أومن بأنَّ في كلٍّ منها ما يمكن أن يعلِّمَنا، ومحبَّة أعدائك ستعني أيضًا تعلُّم محبَّة الأصوات المعادية التي في رأسك، فماذا لو تعاملنا مع الأصوات القاسية لا بازدراء بل بمواجدة؟ ماذا لو تعامَلنا معها باللُّطف ذاته الذي نتعامل به مع صديق متألِّم؟ الطريقة التي تتحدَّثُ بها الأصوات السلبيَّة هي بسبب الجروح التي لديها، فإذا سَعَينا إلى فهمها، إلى معرفة مصدرها وسبب ما تقوله، بل أيضًا الضحك معها- فسنجد أنَّها ستفقد بعضًا من قوَّتها من نحونا، فلا يبدو الاجتهادُ من إجل إسكات الأصوات بفاعليَّة الاستماع إليها وسؤالها بلُطف. وكما قال الأب رور (Father Rohr): ''في ما يتعلَّقُ بعمل النفس، يجب ألَّا نتجرَّأ بالتخلُّص من الألم قبل أن نكونَ قد تعلَّمنا الدرس الذي لديه ليعلِّمَنا''.[٧]

ما أطلق عليه إغناطيوس لويولا تسمية ‘‘الأرواح’’، وعنى به التحرُّكات الداخليَّة لمشاعر النفس، أطلقُ أنا عليه مصطلحَ ‘‘الأصوات’’.[٨] وحين أقول ‘‘تمييز الأصوات’’ أعني هذا: الاستماع إلى الأصوات الداخليَّة وتسميتها، وتسميةُ الأصوات أمرٌ حيويٌّ؛ لأنَّه يساعدُنا على فهْمِها ويُعطينا أيضًا بعضَ السيطرة عليها، ويلاحظُ وليَم يوري (William Ury) ما يلي: ‘‘في الميثولوجيا القديمة، كانت تسمية الروح الشرِّير باسمه تعطي القدرة على منعه’’[٩]، لذا أقولُ إنَّ تحديد الأصوات وتسميتها يساعدان على كَسْر لعنتها علينا، والمناداة على الأصوات يساعدُنا على الانتقال من مجرَّد التفاعل معها تفاعلًا أعمى إلى التعامل معها تعامُلًا واعيًا.

من التدريبات المفيدة محاولة تسمية الأصوات التي تتحدَّثُ في رؤوسنا، وإن كانت فكرة تسمية الأصوات

التي في رأسك تجعلك تشعرُ كأنَّك مجنون، فلتعلمْ أنَّ تنفيذ ما تخبرُك الأصوات بفعلِه تنفيذًا أعمى يجعلك أكثر جنونًا. وإليك بعضَ الأصوات الداخليَّة السلبيَّة التي أطلقتُ عليها الأسماء التالية:

الوالد: هذا صوتٌ يخبرني بما يجب أن أفعله، وبالأمور الخاطئة التي أفعلها، وبأنِّي لا أتناول ما يكفي من الطعام الصحِّيّ.

المعالِج: يحلِّلني نفسيًّا ويُشخِّص كلَّ من حولي، واضعًا مسافةً مريحة بيني وبين الأشخاص، ليحميَني من حميميَّة حقيقيَّة ومن احتياجي إلى النظر إلى نفسي.

المُدَّعى عليه: كلُّ ما يحدثُ لي هو خطأ شخصٍ آخر، فقط كنتُ في حالي لكنَّ الآخرين يجرحونني دونَ سبب.

الناقد: يشاهِدُ الآخرين مثلما يشاهد فيلمًا، ويتصيَّدُ أخطاء الكلِّ، لا سيَّما حين يرتكبون أخطاءً تُشبه أخطائي.

المحامي: هذا صوتٌ ينسجُ حُجَجًا دفاعيَّة رائعة تدافع عن أعمالي، حتَّى حين لا يتَّهمنُي أحَدٌ بأيِّ شيء.

المتشائم: كلَ ما يُحتملَ فشلَه سيفشلَ، وسأخسر وظيفتي، وسيتحوَّل عنِّي كلُّ أصدقائي، وسأموت في بالوعة للصرفِ الصحِّيّ.

المتفرِّجون: يشبهون تلك الشخصيَّات في عرِوض الدُّمى مَن يجلسون في الشرفات ساخرين من الكلّ.

طالب المدرسة الإعداديَّة: شابٌّ فاقد للأمان خجول وعلى درجة عالية من الوعي القلِق بالذات. هو نرجسيٌّ أيضًا ويظنُّ دائمًا أنَّ الجميع ينظرون إليه.

المتنمِّر: يصيحُ في الأصوات الأخرى دائمًا آمرًا إيَّاها أن تصمت.

إنَّه تدريبٌ مريح أن تعيِّن أسماء للأصوات التي في رأسك، ويمكنك، إن أردتَ، أن تكون أكثر تحديدًا وتطلق على الناقد الذي في رأسك اسم مُدرِّسك صاحب الشخصيَّة نفسها، فسيكون الأمر أكثر إمتاعًا، والفكرةُ من هذا التدريب هي خَلْق بعض الانفصال عن الأصوات، حيث يمكِّنُك هذا الانفصال من الاستجابة بطريقةٍ مختلفةٍ حين يتحدَّثون، فأنت أكثر من مجرَّد

الأصوات التي داخلك؛ فأنت لست فقط تلك الأصوات. وحين تقبَلُ هذه الفكرة، يمكنك تحديد أنماط تلك الأصوات ومتى تتحدَّثُ بصَخَبٍ، ويمكنك حينها الاستجابة بمواجدةٍ.

لا أتوقَّعُ أنَّنا سنمحو تمامًا الأصوات السلبيَّة من تسجيلاتنا الداخليَّة، لكنِّي أعتقدُ أنَّ في وُسعِنا السماحَ رويدًا رويدًا لأصواتٍ أخرى أن تكونَ ذاتَ تأثيرٍ أعظم في أفكارنا وتصرُّفاتنا. وحينها يمكن أن تعلو الأصوات المُحبَّة المتعاطفة اللطيفة رقيقة القلب، والتي عادةً ما تتحدَّثُ برقَّة، إذا تبنَّينا دعوةَ الله القائلة: ‘‘هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا’’. وحين تبدأ الأصوات الداخليَّة في التشبُّه بصوت يسوع، وليس بأصوات الحمقى، نخطو حقًّا نحو غِنى حياة الاستماع.

الاستماع إلى المشاعر

الأمرُ الثوريُّ بشأن تناوُلِ إغناطيوس للتمييز، وهو الأمرُ الذي لا يزال ثوريًّا في بعض الدوائر المسيحيَّة، هو تأكيده أنَّ المشاعر يجب أن تؤخذ على محمَلِ الجِدِّ،

بل أن توضعَ في مركَزٍ روحانيَّتنا، فالمشاعر عند إغناطيوس هي مؤشِّرات لحضور الله أو لغيابه، وذلك اللاهوت القائل: ‟لا تثقْ بمشاعرك، بل ثِقْ بكلمة الله” وهو لاهوت سائد في بعض الدوائر المسيحيَّة، هو لاهوتٌ كان إغناطيوس ليجدَه غريبًا.

وأدرَكَ إغناطيوس أنَّ حياة الروح، بما لها من هبات المحبَّة والفرح والسلام والرجاء، تتضمَّنُ محتوًى شعوريًّا قويًّا، وليس هذا أمرًا يجبُ أن نخشاه؛ فالخوف من المشاعر أو الانزعاج منها قد يقودُنا إلى التركيز الزائد على الجوانب الفكريَّة للإيمان، فضلًا عن وَضْع ثقة غير متكافئة بقدرات أذهاننا على فهم الأمور العميقة لله، فإذا كنَّا خليقة جديدة ولنا حياة تتَّسمُ بنسمة الروح المستمرَّة فينا، أفلا يعني ذلك أنَّ مشاعرنا أيضًا مفديَّةٌ، ومُخلَّصةٌ من ‟العواطف” الطائشة، ومتغيِّرةٌ إلى المؤشِّرات الصحِّيَّة لحضور الله ولحالاتنا الداخليَّة؟ حين تَفكَّر تلميذا عمواس في ليلتهما مع ذلك الغريب الذي كان يبدو مألوفًا، تعجَّبا لأنَّ قلبَيهما كانا يلتهبان

فيهما بينما كان يتحدَّث. إذًا يأتي جزءٌ أساسيٌّ من الحياة الروحيَّة المسيحيَّة من الانتباه لتلك اللحظات التي تلتهبُ فيها قلوبُنا؛ لأنَّنا قد نكتشفُ في تلك الأوقات أنَّنا لسنا وحدَنا.

مع أنَّنا نودُّ في عصر ما بعد التنوير أن نناديَ بأنَّ الصدارة هي للعقل، فلا يزال البشرُ محكومين بالمشاعر. ورغم أنَّ جنسَنا البشريَّ يتميَّز بالمخِّ الأكثر تطوُّرًا، فلا تزال القشرة الدماغيَّة لدينا (المتحكِّمة في مناطق التفكير العقلانيِّ في المخّ) تحاول اللحاق بالمناطق الأقدم المسؤولة عن الاستجابات الشعوريَّة؛ فمشاعرُنا تحرِّكنا لنتصرَّف ونختار، ثمَّ تحاول أذهانُنا اكتشافَ السبب. ولا يعني ذلك أنَّنا أسرى مشاعرنا، وأنَّنا نعاني العجزَ تُجاهَها، بل يعني أنَّه من غير الممكن أن نهملَ الدَّورَ الضخم الذي تلعبُه المشاعر في حياتنا وإيماننا؛ فالمشاعر مؤشِّراتٌ داخليَّة لحالتنا وللصواب والخطأ، في أحوالنا وعلاقاتنا، إذ تحفِّزُنا مشاعرنا لنتصرَّف ونختار، وهي أدواتٌ أعطانا إيَّاها لقياس

حالة قلوبنا ونفوسنا، ومحاولة إهمال أحاسيسنا أو دفعها بعيدًا ليس منظورًا صحِّيًّا أو ناضجًا. وتكشفُ الدراسات النفسيَّة أنَّ الذكاء الوجدانيَّ (Emotional Intelligence EQ)، وهو قدرتُنا على فهم مشاعرنا ومشاعر الآخرين وتقديم الاستجابات المناسبة، هو أهمُّ في نجاح الحياة من مُعامل الذكاء العقليِّ (Intelligence Quotient IQ).

علينا الاستماع إلى مشاعرنا قبل البدء في تقديم الوعظ إلى هذه المشاعر. فلننتظرْ قبل أن نخبرَ هذه المشاعر ما تفعلُه حتَّى تخبرنا هي ماذا تفعل الآن؛ فللبكاء وقت وللضحك وقت، وللحزن وقت وللرقص وقت، وليست هناك مشكلة إنْ شعرتَ بأنَّك لستَ على ما يُرام، لكن يبدو الأمرُ كما لو أنَّ الناس والإعلانات يخبروننا باستمرار بما علينا أن نشعر أو لا نشعر به. وتوبيخُنا لأنفسنا لكَوننا غير عقلانيِّين أو إخبارنا لأنفسنا بما يجب أن نشعر به لا يُجدي نفعًا؛ فعبارات "يجب" هذه تقفُ في طريق الاستماع الحقيقيِّ

الأصيل. لذا فلنسمحْ لمشاعرنا بأن تأتي وتذهب كيفما شاءت، دون الحُكم عليها أو إخفائها أو تصحيحها.

يبدو كأنَّ بعضَ المسيحيِّين يحسبون المشاعرَ كما لو كانت هي صوت المُجرِّب في البرِّيَّة. فإذا لم تُسكَت تلك الأصوات ستقودك في طريق الضلال، وأقولُها بمفردي هنا إنَّ أصوات مشاعرنا ليست هي صوت الشيطان. وإذا تصادفَ وتجاذبْتَ أطراف الحديث مع الشيطان نفسه، فلتشعر بحرِّيَّة أن تُلقي عليه بعضَ آيات الكلمة المقدَّسة، ولتُرسِل الصوت عائدًا إلى الجحيم من حيث أتى. ولا أظنُّ أنَّه قُصِدَ من اختبار يسوعَ في البرِّيَّة أن يكونَ صورةً للحياة الشعوريَّة اليوميَّة؛ فشعورُك بالخوف أو الغضب ليس هو الشرِّير، ويختلفُ الاستماع إلى خوفك عن السماح لخوفك بأن يتحدَّثَ بالنيابة عنك. ولا ينبغي أن تضعَ شعورَك على منضدة الجراحة للتخلُّص منه؛ لأنَّك إن فعلتَ فسينتهي بك الأمرُ نازعًا قلبَك.

سيتضمَّنُ معظم عمل تمييزنا فرْز الأصوات الداخليَّة

لمشاعرنا ولأفكارنا المُحمَّلة بالمشاعر، فنستمِعُ إلى مشاعرنا ونسمِّيها. وأولئك الذين يشعرون بالأُلفة في عقلِهم أكثر من قلبهم- مَن يجدون أنفسَهم يردُّون على أسئلة بشأن المشاعر بإجابات تتضمَّن أفكارهم بشأن مشاعرهم، فسيستفيدون من تبسيط هذه العمليَّة.

ينصحُ معالجٌ، وهو صديقٌ أيضًا، بالتكلُّم عن المشاعر بطرق بسيطة، كما لطفلٍ، من أجل اختراق الميكانيكيَّات الدفاعيَّة المعقَّدة التي لدينا نحن البالغين، والأحاسيس الأساسيَّة الخمسة- السعادة والحزن والغضب والخوف والخزي- يعبَّر عنها في كلمات: "سعيد" و"حزين" و"غاضب" و"خائف" و"مجروح"، وفي جزء من تدريبي في الخدمة الرعويَّة، كنتُ أجلسُ عدَّة شهور في مجموعة صغيرة نتشارك عباراتٍ أحسبُها في قيمةً الجواهر مثل: "حين اعترض مُشرفي على ما فعلتُه، شعرتُ بأنِّي غاضبٌ" أو "حين انتقد الرجلُ المُسنُّ العظة التي قدَّمتُها، شعرتُ بأنِّي مجروح" (كان لهذه الجملة الأخيرة

صدى اتَّفقَ معه كلُّ الوعَّاظ الموجودين في الغرفة)[١٠]، وأحيانًا كان الأمر يبدو سخيفًا، لكنْ كنتُ أصغرِ أعضاء المجموعة بفارق خمس عشرة سنة على الأقلِّ، وكان يُدهِشني أنَّ أشخاصًا أكبر منِّي بعشرين أو ثلاثين سنة كانوا يعانون في فهم مشاعرهم الأساسيَّة والتعبير عنها. وفي بعض المرَّات تنمو لدى بعضنا مواهبُ التكلُّم بوصفها طرقًا لسَتْرِ المشاعر التي قد كبتناها منذ كنَّا أطفالًا.

واحد من أفضل الدوافع لتعلُّم الاستماع إلى مشاعرك، حتَّى وإنْ تطلَّب ذلك بعض المحادثات المُحرجة، هو شعورٌ آخر: الراحة. فإذا استطعت وضع التسمية الصحيحة لشعورٍ ما تمرُّ به، فسيلاحظ جسدُك هذا الأمر، وتقترحُ ديبرا □ان ديوسن هنسينغر تدريبًا اسمه "التركيز"، حيث تجلس في هدوء وتُمضي وقتًا مع اختبارٍ مررتَ به أو مع أمرٍ ما يُزعجك.[١١] وبينما تتأمَّل فيه تلاحظ ما يحدث في جسمك- غالبًا ستلاحظ بعض الضيق أو الطاقة العصبيَّة أو غصَّة أو

اضطراب في المعدة- ثمَّ تحاول إيجاد الكلمة المناسبة لوصف ما تشعرُ به، فتقلِّبُ كلمات مختلفة وتنتبه إلى الكيفيَّة التي يستجيبُ بها جسمُك، وحين تجدُ الاسم الصحيح لشعورك، سيسترخي جسمُك ويتنهَّدُ مُطلِقًا نفسًا عميقًا.

من الممتع مشاهدة الآخرين وهم يختبرون هذا في محادثةٍ ما، وحين كنتُ مرشدًا روحيًّا لشخص يصارع بعضَ الأمور مع والدَيه المتقدِّمَين في العمر، كان يدورُ في الأفكار والمشكلات في ذهنه دون الوصول إلى أيِّ حلٍّ مُرضٍ، وكان ردُّ فعلي بسيطًا بساطةً مملَّة، إذ قلتُ له: ‘‘يبدو لي أنَّ الموقف العائليَّ الذي تمرُّ به يجعلك تشعرُ بأنَّك قَلِقٌ قلقًا عميقًا’’، ولا أعتقدُ أنَّ من الممكن لهذه العبارة أن تُعدَّ مُلهِمةً بتاتًا، لكنِّي حين قلتُ كلمة قَلِقٌ، تغيَّرتْ ملامحُ وجهه، وارتخت كتفاه (عادةً ما تشير الكتفان المرفوعتان المشدودتان إلى القلق)، ولمعت عيناه، وأطلقَ تنهيدةً عميقة واسترخى كلُّ جسمه. وما إنْ تحرَّرَ من التأثير المقيِّد للقلق المُفرط،

باتَ قادرًا على اتِّخاذِ قراره.

تحيَّة مشاعرنا

نستمع إلى مشاعرنا في أفضل صورة حين نتحاور مع أنفسِنا. وتتضمَّن الناحية الأولى من حوار النفس هذا إقرارَنا بالشُّعور حين يظهرُ وكأنَّنا نحيِّيه. وللأمانة مررتُ بلحظاتٍ في عالمي الداخليِّ حين كنتُ أحيِّي بعضَ مشاعري وأقولُ مثلًا: ''أهلًا بك أيُّها القلقُ''، وهذا مفيدٌ لا سيَّما حين تكون وسطَ محادثة مع شخصٍ آخر وينطلقُ صوتُ شعورٍ ما، فحين تقدِّمُ تحيَّة صامتةً إلى القلق أو الجرح أو الغضب الذي يظهرُ، أو حين تلاحظ التغيُّر الدقيق الحادث في جسمك حتَّى وإنْ لم تقدر أن تَصيغَه في كلمات، فأنت بذلك تجرِّدُه من قوَّته في تلك اللحظة، ويقلُّ احتمالُ أن تتحدَّث أو تتصرَّف بناءً على هذا الشعور، وبذلك تتجنَّبُ أن تكونَ أفعالك مجرَّدَ ردِّ فعل فقط؛ فلستَ تركِّز عليه في هذه اللحظة، ولا تجتهد لتصرفَ النظر عنه أو تُسكتَه، بل تلاحظُه، وتستمع إليه استماعًا سريعًا. فالعملُ المجتهد في سبيل تكميم

الشعور أو إدانة نفسك بسبب هذا الشعور هو في الحقيقة تركيزٌ عليه. لكن عوضًا عن ذلك، فلتُحيِّ الشعور بِوُدٍّ ثمَّ عُدْ إلى المحادثة الجارية.

بعد ذلك يمكنُك استكشاف الشعور الذي ظهرَ استكشافًا أكثر عنايةً، بمفردك أو مع صديق أو معالج، والآن يحين الوقتُ الذي تُظهِرُ فيه للشعور أو الدافع أو ردِّ الفعل الذي كان قد ظهر استماعًا عميقًا بطرحِ أسئلةٍ:

- في أيِّ جزء من المحادثة أو الاختبار ظهر الشعور؟ ما الذي جلبه؟ ماذا فعل أو قال الشخصُ الآخر قبل أن يأتي هذا الشعور؟
- ماذا كان الشعور الذي اختبرتُه؟ كيف يمكنني أن أسمِّيه؟ غضب أم جرح أم خيبة أمل أم خزي...إلخ؟
- كيف كان ردُّ فعل جسمي تُجاه ذلك الشعور؟
- ما مدى شدَّة إحساسي به؟

- هل أشعرُ به كثيرًا؟
- لماذا شعرتُ به في تلك اللحظة؟ كيف كانت استجابتي؟
- هل توجد كلمة أو ذكرى مرتبطة بذلك الشعور؟
- ما مصدر الإحساس؟ في أيِّ الأوقات الأخرى من حياتي أتذكَّرُ إحساسي بذلك الشعور؟

ليس الاستماع إلى المشاعر مجرَّدَ اختبار قائمة من القواعد؛ فالفكرة الأساسيَّة هي الوصول إلى مصدر الشعور والحصول على بعض الفهم بشأن سبب إحساسك به، وهذا ليس سهلًا؛ فللمشاعر درجات متفاوتة من الشدَّة ومن ظلال المعاني، ويمكنها أن تأتيَ من أماكن مؤلِمة وقديمة جدًّا، والوصول إلى الطبقات الأعمق هو تحدٍّ هائل، ما يزيدُ الأمرَ تعقيدًا هو أنَّ للمشاعر نفسها طبقاتٍ تحتها؛ فهي مؤشِّراتٌ تشير إلى أمرٍ ما وراءها، ولا

سيَّما إلى احتياجاتٍ، فالمشاعر السلبيَّة تشيرُ إلى احتياج غير مسدَّد؛ لأنَّ في كل شعورٍ سلبيٍّ احتمالًا لاحتياج ما وراءه. تقول هنسينغر إنَّ تحديدَ المشاعر لا يكفي بينما نستمعُ إلى الآخرين وإلى أنفسِنا أيضًا، فعلينا استكشاف الشعور وتحديد مكان الاحتياج القابع تحتَه. فمثلًا، "لا يوفِّر تحديدُ شعور الوحدة للشَّخص معلوماتٍ تكفي ليتمكَّنَ من التصرُّفِ، لكنَّ الاستكشاف المتعاطف للوحدة سيحدِّدُ الاحتياج الدقيق المُضمَّن تحت تلك الوحدة"[١٢]، ثمَّ يصبح الاحتياج المُضمَّن تحت الشعور حافزًا للإتيان بتصرُّفٍ ما للتعامل مع ذلك الاحتياج.

الغضبُ هو شعورٌ يتَّسمُ بصعوبةٍ خاصَّة في تعامُل الناس معه تعاملًا بنَّاءً، لا سيَّما حين يكونون قد تعلَّموا في عائلاتهم أو كنائسهم أنَّ الغضب خطيَّة، وأشكُّ جدِّيًّا في أنَّ يسوعَ قلبَ

الموائد في الهيكل وعلى وجهه ابتسامةً دينيَّة هادئة. تعلمتُ قبل بضع سنوات مبدأً (يُختَصَر بالإنكليزيَّة بالحروف التالية "AHEN")، فالغضب (Anger) يأتي من جرحٍ (Hurt)، والذي يأتي من توقُّعٍ (Expectation)، وهو يأتي من احتياجٍ (Need)[١٣]، والغضبُ شعورٌ وقائيٌّ قويٌّ يمكنه مساعدتنا بواسطة موقف صعب، لكنَّه أيضًا يُدعى "شعور الواجهة" بمعنى أنَّه في الغالب يُظهِر نفسَه أوَّلًا لكنَّ تحتَه هناك مشاعرَ حسَّاسةً أكثر، مثل الجرح أو الحزن، فالغضبُ بالتأكيد هو أحدُ تلك المشاعر الأضعف، إلى أن نكون في مكانٍ أكثر أمنًا.

الغرض الثاني من الغضب هو أن يقودَنا إلى مشاعر عميقة تحته، ويقدِّمَ إلينا دلائلَ تشيرُ إلى كيفيَّة شفائنا، ومن أجل الحفر إلى ما هو أعمق، عليك أن تكونَ قادرًا أن تقول لنفسك:

أنا غاضبٌ، إذ تريدُ أن تشعرَ بالغضب دون السماح لذلك الغضب بأن يستهلكك، وهو ما يمكن حدوثه إنْ سمحتَ له بقيادتك نحو المشاعر والاحتياجات الأعمق والأكثر رعبًا والتي تكون تحته. ومرَّة أخرى يتعلَّق الأمرُ هنا بطَرْح أسئلةٍ على غضبِك والاستماع إلى إجاباته، ويمكن أن يشكِّل مبدأ "AHEN" (الغضب، الناتج عن الجرح، الناتج عن التوقُّع، الناتج عن الاحتياج) أسئلتك؛ فمثلًا، إذا وجدتَ نفسَك غاضبًا من شريكة حياتك لأنَّها تتأخَّر دائمًا، فيمكنك التعامُل مع الأمر كالآتي:

- بماذا أشعرُ؟ أشعرُ بأنِّي غاضبٌ.
- ما الجرحُ الذي تحتَ هذا الغضب؟ أشعرُ بأنِّي أقلُّ أهمِّيَّة من عملها.
- ما التوقُّع تحتَ الجُرح؟ أتوقَّعُ أنْ أكون أهمَّ من وظيفتها.

- ما الاحتياج الذي تحتَ هذا التوقّع؟ أحتاج إلى الشعور بقيمتي وبأنِّي محبوب.

بذلك تكون قد سمحتَ لغضبك بأن يؤدِّيَ غرضَه ويعمل لمصلحتك، فلا تتعطَّل به متذكِّرًا الطرق التي يُساء فيها إليك مِرارًا وتَكرارًا. وبمجرَّد أن تكونَ قد وصلتَ إلى احتياجاتك العميقة، يمكنك التصرُّف للتعامل مع الأمر، وستجدُ أنَّ من الأسهل كثيرًا أن تتحدَّث إلى الشخص الآخر بشأن هذا الأمر في هذه الحالة؛ فالمحادثات بشأن الاحتياجات مثمرةٌ أكثر كثيرًا من المحادثات بشأن الغضب.

حتَّى سلوكنا وأنماط حياتنا غير الصحِّيَّة فتشير إلى احتياج غير مُسدَّدٍ، والمسيحيُّون لا سيَّما في الدوائر الأكثر مُحافَظةً، يكرِّسون الكثير من الطاقة من أجل "مقاطعة" الخطيَّة، وغالبًا ما توجَّهُ هذه اللغة نحوَ

الجنسانيَّة، خاصَّةَ احتياجنا إلى ‘‘مقاطعة’’ الشهوة الجنسيَّة. ورغم أنَّ النيَّة نبيلةٌ، فإنَّ الطاقة غالبًا ما تكون موجَّهة في الاتِّجاه الخطأ. ويشبه الأمرُ قصَّة البطل هرقل (Heracles) من الميثولوجيا الإغريقيَّة، والذي اكتشف أنَّه في كلِّ مرَّة يقطع فيها رأس الحيَّة الوحشيَّة ‘‘العدار’’ (Hydra) كان ينبت لها مكان الرأس المقطوع رأسان، فنحن نكرِّسُ كلَّ طاقتنا لكبح الشهوة، وهو ما يؤدِّي في الغالب إلى مضاعفتها. فإنْ أخبرك أحدُهم ألَّا تفكِّر في الكائن أحاديِّ القرن، فسوف تفكِّر في أحاديِّ القرن، وما لا نفعله هو السماح لرغباتنا بأن تعلِّمَنا وترشدنا إلى مصدرها؛ فهناك منطق وراء الخطيَّة لأنَّ السلوكيَّات والأنماط الفرديَّة ليست عشوائيَّة، بل تشيرُ إلى غياب الصلاح في حياتنا، فهناك فجوةٌ، أو احتياجٌ غير مسدَّد، وغالبًا ما تشيرُ الشهوة

الجنسيَّة أو الإدمان إلى الوحدة، والتي قد تشيرُ إلى علاقات مكسورة أو ألم لم يُحلّ، أو احتياجاتٌ غير مسدَّدة إلى المحبَّةِ والقبول، أو ببساطة إلى غياب الصداقات الجيِّدة. وأحيانًا إذا استمعتَ إلى خطيَّتك استماعًا عميقًا قد تكتشفُ المفتاح إلى مقاطعتها.

الاستماع إلى جسمك

أدركُ أنَّ عبارة ''استَمِعْ إلى جسمك'' قد تجعل بعض المسيحيِّين يشمئزُّون مرتعبين، لكنِّي أودُّ الإشارة إلى أنَّ الاشمئزاز نفسه هو استجابة جسديَّة، وربَّما عليك الاستماع إليه، وأقول إنَّه من المستحيل أن نستمع إلى مشاعرنا دون الاستماع إلى أجسامنا؛ لأنَّنا نختبرُ المشاعر في أجسامنا. فالاضطراب الذي تشعر به في المعدة أو الشدُّ في كتفيك أو الثقل الذي تشعرُ به في جفنَيك، أو العرق في الكفَّين- تلك جميعًا إشارات جسمانيَّة واضحة

تشيرُ إلى مشاعر، لذا فإنِ انقطعْنا عن أجسادنا، فسننقطع عن أحاسيسنَا أيضًا.

أتذكَّرُ جيِّدًا أحد الأحاديث مع جاكلين والتي كانت تشرحُ لي ما حدث في جلسة علاج استثنائيَّة؛ فقد كانت هي ومعالجتها تتناولان آراءها بشأن جسمها دون إحراز تقدُّم ملموس. ثمَّ عملَتْ معالجتُها أمرًا مبدعًا: فقد جعلت جاكلين تجلس على مقعد، ثمَّ وضعت مقعدًا فارغًا أمامَها، وطلبَتْ إلى جاكلين أن تتخيَّل جسدَها جالسًا في هذا المقعد، ثمَّ سألتْها أيضًا أن تتكلَّم إلى جسمها وتستمع مُنصتةً إلى ما يقولُه ردًّا على ما تقولُه هي. وقد أخبرَتني بما يلي: ''كان الأمرُ غريبًا جدًّا، لكنْ لم يسبقْ أنِ نجحَ أيُّ أمرٍ آخر، لذا حاولتُ، ثمَّ قلتُ بضعةَ أمورٍ لجسمي. أتَعْلمُ ماذا قال لي جسمي ردًّا على ما قلتُه؟ لا شيء! لم يكن هناك ما يقولُه''. وخَلصتْ إلى أنَّه بسبب كراهية

النفس، كانت قد أمضَتْ أعوامًا وأعوامًا في إسكات جسمها وإهماله، فكان جسمُها قد فقد صَوتَه، بينما انفصلت هي عن جزء مهمٍّ من نفسِها.

قرأتُ مؤخَّرًا أنَّ الأميركيِّين لا يتحمَّلون الجوع مثلما تتحمَّله أيَّة حضارة أخرى في التاريخ، فالأميركيُّون يأكلونَ كمِّيَّات ضخمة ويتناولون الوجبات الخفيفة طوال اليوم لتجنُّبِ الإحساس بالجوع؛ لأنَّ حتَّى أقلَّ درجات الجوع تسبِّبُ لهم قلقًا مفرطًا وتغيُّرات مزاجيَّة. وسببٌ أساسيٌّ لمشكلة السُّمنة هناك، والتي تُعدُّ مشكلةً ضخمةً حتَّى ما بين رجال الدِّين، هي أنَّنا لا نعرف كيف نستمع إلى ما تحتاج إليه أجسامُنا وما لا تحتاج إليه، فلا نعرفُ متى يُفترضُ أن نأكل ومتى لا نأكل؛ حيث تميلُ الدوافع والرغبة الشعوريَّة الشديدة إلى إملاء متى وماذا نأكل، لكنَّنا مصابون

بالصمم من ناحية الإشارات الحقيقيَّة لأجسادنا، وليس هذا ببساطة أمرًا يختصُّ بالصحَّة، بل هو أيضًا أمرٌ روحيٌّ، ويزيدُ اقتناعي بأنَّه إذا أردتَ أن تعرف حالة ذاتك، فلتنتَبهْ إلى الكيفيَّة التي بها تأكل وتشرب.

حين تقرِّرُ أن تأكل أكلًا صحِّيًّا أكثر؛ وأنْ تأكل كمِّيَّاتٍ أقلّ قد تكتشفُ حزنًا أو مشاعر خفيَّة أخرى قد دُفِنتْ سابقًا داخلك، وذلك أحد الأسباب التي من أجلها صام المسيحيُّون على مرِّ القرون؛ فالصوم موجَّهٌ نحو الله لكنَّك حين تصومُ لا يمكنك بعدُ أن تتجاهل حالة عالمك الداخليِّ، فلا يمكنك استرضاء الحيوانات المتوحِّشة الناهشة داخلَك بإلقاء الطعام إليها، إذ عليك مواجهتُها. في هذا السِّياق قال ريتشارد فوستر إنَّه حين يُمضي وقتًا طويلًا في الصوم، يكتشفُ غالبًا الأمورَ التي تسيطرُ عليه[١٤]؛ فالصومُ هو وسيلةٌ أخرى لتضخيم

الأصوات.
تنشأ عدمُ قدرتنا أو عدم رغبتنا في سماع إشارات أجسادنا من الخطِّ الحادِّ الواضح الذي نرسمُه في كثيرٍ من الأحيان ما بين الجسد والروح، إذ نميلُ إلى حسبان حياة الجسد أمرًا ثانويًّا مقارنةً بتطوير حياة النفس غير الأرضيَّة. فالروحُ هو مجالُ الله، والصلاة هي لغةُ الملائكة، والجسدُ هو مجالُ الضرورة البسيطة، أي تلك الشهوات المُلحَّة التي تصرفُ انتباهَنا عن عملنا الأحقِّ. وقد نتهكَّمُ من محادثات بشأن الأمور ''الأساسيَّة'' مثل الطعام والنوم، لكي نركِّزَ على موضوعات لها ''وزن أكبر'' مثل الصلاة أو الخدمة أو كيفيَّة قراءة الكتاب المقدَّس، لكنَّ التقليد المسيحيَّ العظيم تمحوَرَ دائمًا حول التجسُّد والقيامة، أي الفكرة الصادمة المتمثِّلة في أنَّ الله اتَّخذَ في يسوع جسمًا بشريًّا، وعاش مثل

إنسانٍ يتنفّسُ ويأكلَ ويسيرُ؛ فالشخصُ البشريُّ بأكملِه هو دائمًا ساحةُ العمل المغيِّر من الله. ويقولُ الأستاذ دي□يد بَنِر: ''أن تكون بشرًا يعني أن توجدَ في جسدٍ، لذا فالروحانيَّة التي تُخفقُ في اتِّخاذ الجسد على محمَل الجِدِّ تقوِّضُ إنسانيَّتَنا لا محالة''[١٥]، أمَّا الروحانيَّةِ التي تتبعُ نموذج يسوع، فسوف تتضمَّنُ قبولَ حياة الله في الحياة البشريَّة اليوميَّة الاعتياديَّة الموجودة في الجسد، في انتظار اليوم الذي فيه ستُجدَّدُ وتُمجَّدُ أجسادُنا بالكامل.

ولا يتعلَّمُ بعضُنا الاستماع إلى أجسادنا إلى أن يصل الصوتُ إلى أعلى درجة، بحيث لا يمكننا تجاهله بعدُ- أي حين نشعرُ بالألم. ومثاليًّا لا نريدُ الانتظار حتَّى تلمسُ أيدينا الموقد قبل أن تنتبه إلى إشارات أجسادنا، لكن يبدو أن الأمر يحدث بهذه الطريقة؛ فالإصابة الجسديَّة أو انكسار القلب الشديد يجذبُ انتباهَنا

ويُذكّرُنا بمدى تداخُل مشاعرنا ونفوسنا وأجسادنا، وفيٍ المحاسن والمساوئ المرتبطة بتقدُّم العُمر نبدأ في ملاحظة إيقاعات أجسادنا وحركاتها وصريرها وضعفاتها، ولا أعرفُ لحظة التحوُّل حين تتغيَّرُ الإجابة عن سؤال ''كيف حالُك؟'' مِن كلمة ''بخير!'' إلى جُملة ''حسنًا، التهابُ المفاصلُ يزعجُني، وظهري يؤلمُني كثيرًا...'' لكن يبدو أنَّ هذه اللحظة تأتي إلى الكل، والفكرةُ هي أنَّه بتقدُّم العمرٍ تبدأ أجسادُنا في التكلُّم أكثر، معطيةً لنا فرصةً أكبر للاستماع، وعند نقطة معيَّنة تجبرنُا أجسادُنا على بدء الاستماع، لذا أقترحُ أن نبدأ في الاستماع بينما الأمرُ لا يزال في صورة الاختيار.

لم يدرك زميلي في السكن شون مدى تعبه إلى أن سُرِّحَ من عمله، فقد كان يعملُ ستِّين ساعة في الأسبوع على مدى شهور. وحين لم

يكُن في مكان عملِه، كان مخّه لا يزال يعملَ: في سيَّارته بينما هو في طريق العودة إلى المنزل، وعند تناوُله العشاء، وفي منتصف الليل، وكان يحاربُ من أجل الحفاظ على منصبه. لكنَّ الكسادَ أثَّر فيه، مثلما أثَّر في كثيرين آخرين، وفي ذلك المساء بعد أن فقد منصبه، جلسَ على الأريكة دون حركة، ثمَّ أدرك مدى إرهاقه، وكان منهكًا ليس فقط من التعب الجسمانيِّ بل أيضًا من تعبٍ وجدانيٍّ وذهنيٍّ بل روحيٍّ أيضًا. إنَّه ذلك النوع من التعب الذي تشعرُ به حين تكرِّسُ كلَّ طاقتك من أجل أمرٍ ما، ولا يقدِّمُ إليك هذا الأمر شيئًا في المقابل، فتكون مثل مَن يحاول نفخ بالون مثقوب.

تطلِق روث هيلي بارتون على ذلك المستوى ""الخَطِر"" من الإعياء[١٦]، وهو النقطة التي تكون فيها متعَبًا حتَّى إنَّك لا تلاحظ تعبَك.

النقطة التي فيها تبدأ الشكوك والغضبُ والسلوكُ المندفع الغريب عن شخصيَّتك في التسلُّل إليك، لكنَّك لا تعرفُ السبب، فقط تعرفُ أنَّك لا تشعرُ بالراحة في جسدك. ومن خبرتي بوصفي مستقبِلًا للإرشاد الروحيِّ، وبوصفي مرشدًا لآخرين أرى أنَّه لا يوجد مَن هم مثل رعاة الكنائس في مستوى التعرُّض للتعب الخطِر والمستمرِّ، وجزءٌ من ذلك يتعلَّقُ بطبيعة العمل. وما لم تقُم بهذا العمل، لن تعرف مدى الاستنزاف الذي تمرُّ به في المساعدة في حمْل الأثقال الروحيَّة والعاطفيَّة والمختصَّة بالعلاقات لمئاتِ الناس. وفوق ذلك كتابة عظة جيِّدة كلَّ أسبوع، والأكثر غدرًا من ذلك هو التبرير اللاهوتيُّ الذي نقدِّمُه عن إرهاقنا، حين نحتفي بمدى تعبنا، على أساس أنَّ ابن الإنسان لم يكُن له أين يسند رأسه، ولذلك لا توجد مساحة لكي أستريحَ أنا أيضًا!

فكَن حَذِرًا حين تبدأ في سماع عباراتٍ في الكنيسة مثل ‹‹الاستنزاف حتَّى النهاية من أجل يسوع››؛ لأنَّ من المقبول أن نكون ‹‹متَّقدين نشاطًا من أجل الله››، لكنَّنا نحصل أيضًا على قسطٍ مناسبٍ من الراحة.

لا نفتخرُ في الإعياء، لكنَّ لحظات التعب الخَطِر تلك تدفعُنا لنستمع استماعًا أمينًا رصينًا إلى ما يخبرُنا به جسدُنا، ويتضمَّن الاستماعُ إلى أجسادنا، تمامًا مثل الاستماع إلى مشاعرنا، طرْح أسئلةٍ جيِّدة. وإليك بعضَ هذه الأسئلة:

- ماذا يعطيني طاقةً أو مَن يعطيني إيَّاها؟ ماذا يستنزفُ طاقتي أو مَن يفعلُ ذلك؟
- متى أشعرُ بأنِّي في كامل حيويَّتي؟ ومتى أشعرُ بأنِّي في أكثر حالات إنهاكي؟
- ما الذي يجعلني أشعرُ براحة؟ كم يلزمني من النوم؟

- متى يكون جسمي في أقصى درجات انتباهه للصلاة؟ هل هناك أعمالٌ أو أوضاعٌ جسمانيَّة تساعدُني على الصلاة؟
- ما الطعامُ الذي يجعلني أشعر بأنِّي خفيف ومفعمٌ بالطاقة؟ وما الطعامُ الذي يجعلني أشعر بالثقل والخمول؟
- ما إيقاعات جسمي اليوميَّة؟ أيُّ أوقات اليوم تكون لديَّ أقصى طاقة؟ وأيُّ الأوقات تكون لديَّ أقلُّ طاقة؟ كيف أكيِّفُ أجزاء حياتي المتنوِّعة من أجل العمل مع تلك الإيقاعات؟
- ما الذي أشعرُ بالانجذاب إليه أو مَن أشعرُ بذلك نحوه؟ ما الذي أشعرُ ناحيته بالمقاومة أو مَن يكونُ ذلك؟ لماذا؟

ينبعُ السؤالُ الأخيرُ من تركيزٍ في روحانيَّة إغناطيوس على "الانجذابات" و"النفور"، والتي رأى إغناطيوس أنَّها مؤشِّرات جسمانيَّة على إرشاد الله في حياتنا. وينبغي لنا الاستماع

إلى ما يقولَه جسدُنا لا سيَّما في اتِّخاذ القرارات بينما نفتكرُ في اختيارات مختلفة. فإذا كان ثمرُ الروح هو سلامٌ ومحبَّة، فسوف يصاحبُ دعوةَ الله للعمل إحساسٌ بالسلام والمحبَّة، ولستُ مقتنعًا تمامَ الاقتناع بذلك؛ لأنَّ دعوةَ الله للكثير من الأنبياء بدتَ مصحوبةً بالرُّعب والبغضة. لكنَّ القاعدة العامَّة هي أنَّه حينِ نختبرُ سلامًا في أجسادنا، لا سيَّما حين نفكِّرُ في قرار صعب، فهذا السلامُ هو دلالةٌ قويَّةٌ على قيادة الله. فإذا شعرنا بانجذابٍ قويٍّ نحو اختيار ما ومقاومةٍ نحو آخر، مهما حاولنا إقناع أنفسنا بالعكس، يمكننا البدء في الثقة بالانجذاب الذي في أجسادنا الذي يشدُّنا نحو أحد الاختيارات[١٧]؛ فكثيرًا ما نكاد نقتربُ من حافة الجنون بتقليب مشكلةٍ ما في ذهننا مرارًا وتكرارًا بينما يعرف جسمُنا الإجابة بالفعل.

يتعلَّقُ جزءٌ من تعلُّم تمييز الأصوات بملاحظة ما يمكن أن يُسمَّى نصَّ السيناريو، وهو القصص الدليليَّة بشأن هُويَّاتنا ومصائرنا والتي تُعرَضُ في رأسنا مثَل الأفلام، وهذه رواياتٌ داخليَّة، وكثيرًا ما تكون روايات غير ممتحنة، بشأن مَن نحن، وكيف يجب لحياتنا الاستمرار، وماذا نستحقُّ، بل نتساءَل أحيانًا عمَّن يكون الله نفسه. وكثيرًا ما تُكتِب النصوص في عمر باكر، بينما يخبرنا ممثِّلو السلطة بمَن نكون نحن وبنقاط قوَّتنا وضعفنا، وبمَن يكون أصدقاؤنا وأعداؤنا، وكيف سنجدُ النجاح والسعادة في الحياة. وبينما بعضٌ من هذه القصص صحيحٌ وحقيقيٌّ، فإنَّ بعضَها الآخر ليس كذلك. وللأسف عادةً ما تكون النصوص الملآنةُ بالفجوات والأكاذيب هي ما يحمل أكثر قوَّة، فتعلق في رؤوسنا مثل ألحان أغنيَّة يصعبُ التخلُّص منها:

أنا محبوبٌ فقط حين أكون جيِّدًا.
سيوفِّرُ لي المالُ ما أحتاج إليه من الأمان.
يجب أن أفعل ما يتوقَّعُه الآخرون منِّي كي أكون ناجحًا.
سأكون سعيدًا سعادة حقيقيَّة فقط حين أكون متزوِّجًا ولديَّ أطفال.
قيمتي هي في الاهتمام بالآخرين.

يقدِّم المشير الرعويُّ جون سا□يدج (John Savage) مثالًا آخر لنصٍّ كارثيٍّ: ''حين يُخبَر طفلٌ بأنَّه غبيٌّ أو مغفَّل أو أحمق، وتُكرَّر هذه الكلمات كثيرًا، فهناك احتمال كبيرٌ أنَّ متلقِّيَ هذه الأوامر سيبدأ في تصديقها واتِّخاذها مُضفِيًا عليها طبيعة ذاتيَّة داخليَّة متبنِّيًا إيَّاها''.[١٨] وقد يُمضي هذا الشخصُ ما تبقَّى من حياتِه وهو يعيشُ بحسب ذلك المعتقد، أو يحاول يائسًا إثباتَ أنَّه ليس غبيًّا. وقد يتوقَّعُ من

الآخرين تأكيدَ تلك الرسالة، ومن ثمَّ يُفسِّرُ ما يقولونه ويفعلونه بواسطة ذلك السيناريو، بغضِّ النظر عمَّا يقصدونه هم.

بعد سنين من العلاج أستطيعُ الآن الاعتراف بأنِّي انجذبتُ إلى الخدمة الرعويَّة جزئيًّا بسبب النصِّ الدائر في رأسي القائل إنِّي لستُ جيِّدًا بما يكفي، وأعرفُ أنِّي لستُ وحدي في تلك الرحلة، ونُقِرُّ دون شك بدعوة الله التي تسود فوق دوافعنا، لكنَّ أولئك منَّا مَن ينجذبون إلى الخدمة لا سيَّما في عمر باكر، تدفعهم كثيرًا المشاعرُ العميقة من عدم الكفاءة. لكنْ مَن أكثر استحقاقًا من الخادم؟ فإذا نجحتُ بوصفي راعيًا فسأكون على ما يرام، أليس كذلك؟ وربَّما إذا أنقذتُ آخرين من ألمِهم فسأجدُ حلًّا لألمي، وإذا استطعتُ إبهار الجماهير فسأربحُ أخيرًا قبولَ والديَّ، ففي مراحل البداية يعطي الانتباه والإعجاب الذين تتلقَّاهما في الخدمة

شعورًا بالتأييد والشرعيَّة، لكنْ بمجرَّد أن تعيدَ اكتشافَ النقاطِ العديدةِ لعدم كفاءتك (ولا يحتاج ذلك إلى وقتٍ طويلٍ)، تحدث غالبًا خيبةُ الأمل والشكُّ والإنهاك الشديد، وحينها حتَّى المديح الوافر من أعضاء كنيستك لن يشفيَ بتاتًا جروحَك، ولن يعيدَ كتابةَ نصِّ السيناريو الذي لديك.

النصوص المزيَّفة هي ما التقاه يسوع في البرِّيَّة، تمامًا مثل آدم وحوَّاء والشعب العبرانيِّ من قبله. ونحن لا نعرفُ بالتفصيل كيف "ظهر" العدوُّ ليسوع، لكنَّ أحد الاحتمالات هو أنَّه تحدَّثَ مثل صَوتٍ في رأسه، إذ قدَّمَ المُجرِّبُ إليه خطابًا بشأن مَن هو والشكل الذي يجب أن يكون عليه مُلك المسيَّا؛ فابنُ الله ينبغي أن يحكم بالقوَّة والبريقِ، ويأكل من أفضل الطعام في كلِّ الأرضِ، والنصُّ الضمنيُّ هنا هو: ما مِن شك

أنَّه يجب ألّا تكون خادمًا متَّضعًا أو أن تشربَ من كأس الآلام أو أن تموتَ على صليبٍ.
يتعارضُ نصُّ تجربة يسوع تعارضًا مباشرًا مع نصِّ المعموديَّة المُعطى في المشهد السابق؛ فهناك وقبل أن يبدأ خدمته أو يفعلَ أيَّ شيء ملحوظٍ، يسمعُ يسوع صوتًا مختلفًا: ‘‘أنت هو ابني الحبيب، الذي بك سررتُ’’. أمَّا نصُّ التجربة فيصرخ: ‘‘عليك إثباتُ أنَّك حبيبٌ، فلتُسكِتِ المشكِّكين الذين لا يؤمنون بأنَّك ابن الله واعتنِ بنفسك’’، ويهمسُ نصُّ المعموديَّة قائلًا: ‘‘أنت محبوبٌ في هذه اللحظة، ويمكنك الاطمئنان في الهُويَّة التي أعطاك إيَّاها الله، وسيعتني الله بك’’. وكان على يسوع حينَها، وعلى كلِّ واحدٍ منَّا الآن، أن يقرِّرَ إلى أيِّ النصوص سنستمع، فهل أصدِّقُ أنِّي محبوبٌ من الله؟ أم أن عليَّ إثبات ذلك؟ قرَّر أسلافُنا الأوائل أنَّ الله كان يمنعُ

عنهم بعض الأشياء، أمَّا يسوع فقرَّر أنَّه كان لديه كلُّ ما كان يحتاج إليه.

الإنصات إلى الأسئلة

لا يمكن أن تكون لك مهنة أو نداء وظيفيٌّ إلَّا لو كنت مستمعًا، وكلمة ''مهنة'' (Vocation) تأتي من كلمة لاتينيَّة معناها ''دعوة''. وتتطلَّب الدعوة داعيًا ومستمعًا، وفكرةُ أن تكون لك مهنة معناها أنَّ هناك صوتًا ما حرَّكك، أنَّ أمرًا أعمق من اهتمامك أو تقدُّمك الشخصيِّ استدعاك.

وسرعان ما تصبح المحادثات بشأن الدعوة محادثاتٍ بشأن المسار الوظيفيِّ، كما لو أنَّ مساركِ الوظيفيَّ هو دعوتك المتعلِّقة براتبك ومستحقَّاتك الماليَّة. ونرى الآن رفاهة الحياة الحديثة للمسيحيَّة في القدرة على امتهان وظيفة على مستوًى محترف، بينما كان الرسول بولس نفسه يصنع خيامًا ليجلبَ

الإنجيل إلى الأمم. وأتوقّعُ أنَّ الكثيرَ من العُمَّال المسيحيِّين يحتاجون إلى دَعْم دعوتهم بالعمل الخارجيِّ، ولا يمكننا توقُّع أن يدفع لنا الاقتصادُ من أجل تبعيَّة صوت يسوع.

كنتُ أظنُّ أنَّ إيجاد نداء وظيفتي سيعني اكتشاف الإجابات والهبات التي لديَّ في ما يخصُّ مشكلات العالم ونقائصه، وأنِّي سأعرفُ دعوتي حين أصادف ما يمكنني إصلاحُه وحين أجدُ مَن يمكنني إنقاذُه، أمَّا الآن فأعتقدُ أنَّ دعوتي ليست هي الإجابات، بل الأسئلة التي أقدِّمُها إلى العالم، وربَّما يقدِّمُ لنا الداعي الأسئلة، وربَّما يعني السَّعي نحوَ نداء الوظيفة الاستماع منصِتين إلى الأسئلة.

قال رينر ماريا ريلكا (Rainer Maria Rilke): ‘‘كُن صبورًا من جهةِ كلِّ ما لم يُحلَّ بعدُ في قلبك، وحاول أن تحبَّ الأسئلة نفسها، مثل الغرف المغلقة، ومثل الكتب المكتوبة بلغة

أجنبيَّة، فلا تسعَ الآن إلى الإجابات، والتي لا يمكن أن تُعطى لك الآن لأنَّك لن تقدر أن تحياها؛ فالفكرةُ هي أن تعيش الكلَّ، فَعِشْ الأسئلة الآن". [١٩] فغالبًا ما تكون الإجابات مقبوضٌ عليها في يد مُغلقة، تحيط بها الأصابع بشدَّة، ويمكن أن تعزلنا الإجابات وتبقينا في المكان نفسه، تاركةً إيَّانا نتساءل متعجِّبين لماذا لا يأتي إلينا الآخرون ولماذا لا يصِلون إلى استنتاجاتنا ذاتها. أمَّا الأسئلة فتحاول التوازن فوق أطراف أصابعنا المفرودة، المفتوحة، المرحِّبة، الداعية إلى الإمكانات الجديدة والتنقيحات والتحسينات، فالأسئلة تحرِّكُنا نحو العالمِ ونحوَ الجماعة، جاذبةً آخرين إليهما وجاذبةً إيَّاك نحو عالَم الآخرين.

سمعتُ مرَّة رئيسًا تنفيذيًّا لهيئة عالميَّة غير هادفة إلى الربح يقولُ إنَّ رسالة المؤسَّسة هي

“تلك الرسالة التي تجعلَك تنهض في الصباح”، وأنا هنا أبحثُ عن الأسئلة التي تجعلني أنهضُ في الصباح، كما أريدُ أيضًا من حينٍ إلى آخر تلك الأسئلة التي تُبقيني مستيقظًا في الليل، إذ أريد أن أحيا الأسئلة وأحبَّها، وأريدُ أن تكون حياتي سؤالًا حيًّا.

سيحاول الناسُ إخبارنا بما ينبغي للأسئلة أن تكون، وهي في الغالب ستكون أسئلتهم هم، ويمكننا توفير الكثير من القلق والطاقة بتكريس أنفسنا لأسئلتنا، بدلَ محاولة طرح الأسئلة التي “يجب” أن نطرحها، فما من ترتيب هرميٍّ للأسئلة؛ لأنَّ أسئلتَك شخصيَّةٌ جدًّا ويجب أن تنطلق من نفسِك أنت. فالأسئلة عميقةٌ بعُمق النفس، وستدرك ذلك حين تصادفها؛ لأنَّها ستُعبِّئُك بشغفٍ هائلٍ لن تعلمَ ما تفعلُ به.

ستكون أسئلتُنا الخاصَّة بالنداء الوظيفيِّ أسئلة

عريضة فاحصة، تتخطى الأسئلة اليوميَّة الضروريَّة للبقاء الشخصيِّ، فسؤال ‘‘كيف أُطعِم نفسي؟’’ هو سؤالُ بقاءٍ، أمَّا سؤال ‘‘كيف أتعامل مع التوزيع غير العادل للطعام الصحِّيِّ في منطقتي؟’’ فهو سؤالُ نداءٍ وظيفيٍّ، لذا نستمعُ مُصغين إلى الأسئلة الفاحصة التي تصلُ إلى أبعد من متناول أيدينا- تلك الأسئلة المتَّجهة نحو الله، لكنَّها ليست بالضرورة أسئلة دينيَّة، بل الأسئلة التي دافعها المحبَّة، والتي تتطلَّبُ إيمانًا، الأسئلة المتعمِّقة في الرجاء. وستعكسُ أسئلتُك شخصيَّتَك، فأنا مثلًا غالبًا ما ستكون أسئلتي مُجرَّدة لأنِّي أَملُّ سريعًا من الأمور العمليَّة، أمَّا أولئك مَن يبتهجون بالأسئلة العمليَّة فسينجزون أكثر منِّي كثيرًا.

السؤال الذي كان كما يبدو يجعل يسوع ينهض في الصباح هو ‘‘كيف أقودُ الناسَ إلى

ملكوت الله على الأرض؟’’ وكان هذا هو سؤال حياته، وساقه هذا السؤال إلى حيث يذهب، بدءًا من البيوت المقدَّسة مرورًا بالمنازل سيِّئة السمعة، ومن أماكن كان يجلسُ فيها إلى رأس المائدة إلى أماكن كان هو فيها أقلَّ الكل؛ فالأسئلة الصحيحة تطيرُ بك وتأخذك إلى أماكن جديدة وأناس جديدة، وتُحرِّكُك إلى الأمام نحوَ الخطر، دافعةً إيَّاك لتستمرَّ حين تواجه الصعوبات والعوائق.

ما الأسئلة التي تجعلك تنهض في الصباح؟ تقولُ جيسيكا، والتي تعمل في هندسة المناظر الطبيعيَّة، إنَّ السؤال الذي يحرِّكُها هو ‘‘كيف أصمِّمُ المساحات العامَّة حتَّى تزدهر فيها المجتمعات، ويجتمعُ إليها الناس معًا؟’’ ويسألُ صديقٌ آخر كان قد عانى الإساءات في الطفولة: ‘‘كيف يمكنني تحرير ضحايا الإساءات من الخزي ومساعدتهم ليعرفوا أنَّهم

محبوبون؟’’ ويسأل أبٌ: ‘‘كيف يمكنني مساعدة طفلتي لتكُون ذاتها الحقيقيَّة؟’’ والسؤال الذي يدفعني إلى الأمام أكثر من أيِّ سؤال آخر الآن هو: ‘‘كيف يتغيَّرُ الناسُ؟’’ وقد دفعني ذلك السؤال إلى الكتابة وإلى خدمات مختلفة وتدريبات روحيَّة قديمة للتقليد المسيحيِّ، علاوة على العلاج الشخصيِّ، فأنا مدفوعٌ لأعرف كيف نتغيَّرُ من شخص ما إلى آخر، متَّجهين من عمقٍ إلى ما هو أعمق إلى صوة المسيح.

ستكون أسئلتك مرنة، وستتغيَّر بتحرُّكِك في مراحل مختلفة من حياتك وعلاقاتك، وأسئلتُكِ بوصفكِ أمًّا لأطفالٍ صِغار ستكون مختلفة كثيرًا عن أسئلتكِ حين يكبرون ويتزوَّجون، والسؤال الذي يُشعِل قلبَك في سنِّ الثلاثين قد ينطفئ في سنِّ الخمسين؛ فيسوعُ مثلًا كان نجَّارًا حتَّى سنِّ الثلاثين، فالأسئلة المعطاة لنا

ستتغيَّرُ؛ لأنّها بداية فصلٍ وليست النهاية. لذلك علينا المثابرةِ في الاستماع مُنصِتين إلى الأسئلة في كلِّ مرحلة من مراحل الحياة.

الاستماع إلى النوتة الموسيقيَّة خاصَّتك

تخيَّل مؤلِّفًا موسيقيًّا ماهرًا جدًّا وموهوبًا جدًّا حتَّى إنَّ في وُسعه وَضْعَ لحن موسيقيٍّ لحياتك، إذ يمكنه كتابة نوتة موسيقيَّة تعكسُ ما في حياتك من إيقاعٍ وحجم الصوت ونغمة الصوت والسرِّعة والتصاعدات والانخفاضات والأنماط المتناوبة من الحركة والتوقُّف، فهل تعتقدُ أنَّ السيمفونيَّة التي سيكتبُها ستكون سيمفونيَّة ستستمتعُ أنت بالاستماع إليها؟

طرحتُ ذلك السؤال على مجموعة من الناس الذين كانوا في أحد المؤتمرات، وكان بعضُهم موسيقيِّين كلاسيكيِّين محترفين، وكانت المحادثة التي تلت ذلك السؤال محادثة مُفعمة

بالحيويَّة، إذ سأل أحدُهم أوَّلًا: ‘‘ما الذي يجعل من قطعةٍ موسيقيَّةٍ ما قطعةً رائعة؟’’ فاتَّفقَ كثيرون على أنَّ القطعة الموسيقيَّة الرائعة الخالدة تكونُ معقَّدةً، وفيها أفكار متنوِّعة، وتتحرَّكُ بسرعات مختلفة، وتُعزفُ بتغيُّرات في حجم الصوت. ونحن نريدُ أن تكون حياةُ كلٍّ منَّا حياةً تُعزفُ مثل المؤلَّفات الموسيقيَّة العظيمة، والتي ستتميَّزُ بتفرُّدها مثل تفرُّد كل شخص، وفي الوقت نفسه ستستحقُّ الاستماع إليها مرارًا وتكرارًا. نريدُها حياةً تُلهِمُ مَن يسمعُها.

اتَّفقنا أيضًا على أنَّ حياةَ كلٍّ منَّا تُعزفُ بإيقاعاتٍ لا تمثِّلُ دائمًا ما يوصف بأنَّه موسيقا جيِّدة، فقالت واحدةٌ من الحضور إنَّ حياتَها بدت كأنَّ الإيقاعات المتقطِّعة تهيمن عليها- مثل نغماتٍ قصيرة منفصلة- وكانت تعني بذلك أنَّ حياتها بدت كأنَّها تقفز من نشاط

سريع إلى النشاط التالي دون علاقة واضحة ما بينَهما، وعبَّر كثيرون عن رثائهم لكَون حياتهم الشخصيَّة والمهنيَّة تبدو كأنَّها تعُزَفُ دائمًا كما في صراخٍ وبزمنٍ سريع حيث تُدغَم النغمات، وقد اتَّفَقَ الجميعُ تَقريبًا على احتياجهم إلى كسْر حركاتهم بنقاط توقُّفٍ أكثر وأطول، وتُقنا جميعًا إلى أصوات خافتة أكثر، وإلى إيقاعات أبطأ وأهدأ.

في النهاية ستكون النوتة الموسيقيَّة التي تعزفها حياتُنا هي صدى للأصوات التي فينا؛ فرغم أنَّنا سنعزفُ بطرق مختلفة ورغم أنَّ الفصول المختلفة في حياتنا ستُنتِج إيقاعاتٍ مختلفة، فالمرجَّح هو أنَّ الحياةَ الخارجيَّةَ الصاخبةَ المزدحمةَ هي مؤشِّر إلى حياة داخليَّة صاخبة ومزدحمة، أو أنَّ الحياة الخارجيَّة البطيئة مفرطة الهدوءِ قد تشيرُ إلى مخاوف وجروح لم تُعالج داخلَنا أيضًا. فإذا

أردنا سماعَ ما يحدثُ فينا، يمكنُنا البدء بالاستماع إلى الإيقاعات والأصوات الموجودة في ما نعيشُه من حياتنا الخارجيَّة.

الفصل التاسع

مجتمعُ الاستماع المعكوس

لا تخرجُ الإعلانات التي تقدِّمُها كنيستُنا عن النمط المعتاد، فهناك الجمل المعتادة مثل: تعال يومَ الأحد لتستمع إلى رسالتنا: ‘‘أين الله وسط الألم؟’’ وعظة هذا الأسبوع: ‘‘إبراهيم وإسحاق: القصَّة الخفيَّة’’، وخدمة الأحد صباحًا في التاسعة والحادية عشرة صباحًا: ‘‘المحبَّة الحقيقيَّة الوحيدة’’، والتوقُّع هنا واضحٌ تمامًا: إذا أتيتَ إلى الكنيسة، فستستمعُ، فوظيفة الكنيسة هي الوعظ، وتعليم الكتاب المقدَّس، ومشاركة آراء الله بشأن أمور اليوم، ووظيفتُك أنت هي الاستماع إلى رسالتنا، فلدينا منبرٌ وأمَّا أنت فلديك أذنان!

تخيَّلْ لو كان النمطِ معكوسًا، فماذا لو جاء الناسُ إلى الكنيسة ليُسمَعوا بدلَ مجيئهم ليتلقُّوا الوعظ؟ ماذا لو عُرِف عن جسد المؤمنين أنَّه مجتمعُ استماعٍ أكثر منه مجتمع وعظ؟ ماذا لو كانت الكنيسة مجموعةً من الناس

لها ديناميَّات الحديث والاستماع مقلوبة؟ تخيَّل مجتمعًا من الاستماع المعكوس، حيث يُسمِع أولئك مَن يُتوقَّعُ منهم الاستماع، فأنا أحلمُ بمكانٍ حيثُ يستمعُ القادة إلى التابعين، ويستمع البالغون إلى الأطفال، ويستمع الرجال إلى النساء، وتستمعُ الأغلبيَّة إلى الأقليَّة، والأغنياء إلى الفقراء، والأعضاءُ إلى مَن هم مِن خارج.

لو كان ممكنًا تحقيقُ أن تكون الكنيسة مجتمعًا من الاستماع المعكوس، فلا بدَّ أن يبدأ ذلك من قادتنا. فحين يبدأ أولئك مَن هم في القمَّة في الاستماع مثل أولئك مَن في القاع، فسنبدأ في الحياة مثل يسوع، لكنْ للأسف، مع كلِّ الكلام عن القيادة الخادمة لم ألتقِ الكثيرَ من الرعاة والقادة المسيحيِّين الآخرين مَن هم مكرَّسون للاستماع، إذ لن تصبح راعيًا شهيرًا بالاستماع، إذ يبدو الكثيرونِ منَّا متعجِّلين، والعَجَلة والاستماع الجيِّد عدوَّان لدودان. ومع ذلك فأوَّل عَملٍ لقائد خادم هو الاستماع. ومَن يُحدِّدُ جودةَ الاستماعِ في كنائسنا بنسبة

كبيرة هو مستوى تعهُّد قادتنا بالاستماع.

قبل أربع سنوات، أجريتُ مقابلة شخصيَّة للتقدُّم إلى منصبٍ في الكنيسة لخدمة طلَّاب الجامعة والشباب، وإليكم جزءًا من المحادثة:

قادة الكنيسة: ‘‘ما البرامج التي تخطِّطُ لتنفيذها إذا حصلتَ على المنصب؟’’

أنا: ‘‘للأمانة، لا أحبُّ اقتراح صيغة محدَّدة مسبَّقًا آتي بها إلى مكانٍ جديد، وأعتقدُ أنَّ البرامج يجب أن تنسابَ انسيابًا طَبيعيًّا من المجتمع الخاصِّ بالناس الذين سأعملُ معهم. ولأنِّي لا أعرف مَن هم بعْدُ، فلا أريدُ إقحام البرامج عليهم؛ لأنَّها قد لا تناسبُهم، لذا فالمهمَّة الأولى لي ستتضمَّن دعوتي للناس لنخرج لتناول القهوة معًا، وسأطرحُ الأسئلة وأستمعُ، لكي أعرفَهُم وأحدِّدَ احتياجات الجماعة’’.

قادة الكنيسة: ‘‘آه، حسنًا، وكم ستستغرقُ تلك المرحلة بالتحديد؟’’

لم أحصل على الوظيفة.

حين يقود جماعاتِنا أشخاصٌ لا يثمِّنون الاستماع، قد تنتهي بنا الحال بخدمات وأشكال تأتي من سياقات أخرى، لكنَّها لا تناسبُ مَن نَقودُهم تحديدًا. وقد رأيتُ ذلك كثيرًا في الكنائس الجديدة، حيث يستوردُ أناسٌ حِسنو النيَّة برامجَ كانت ناجحةً نجاحًا كبيرًا مِن كنيسة أُخرى إلى جماعة جديدة، لينتهيَ بها الأمرُ في تعثُّر شديد. فخدمةُ المجموعة الصغيرة شديدة النجاح في كنيسة ضخمة في إحدى الضواحي لن تُترجم جيِّدًا في كنيسة صغيرة في مدينة في حيٍّ متعدِّد الخلفيَّات، فعلينا تعلُّم الاستماع محليًّا لنخاطبَ حياةَ الناس الفعليَّة واحتياجاتهم، وليس حياة أناسٍ في مكانٍ آخر، وعلينا ليس فقط الاستماع مرَّة واحدةً بينما نشرَعُ في غرس كنيسة جديدة أو برنامج آخر، بل علينا أيضًا الاستمرار في الاستماع لأنَّ كنائسنا وأحياءنا تتغيَّر تغيُّرًا مستمرًّا.

جماعةُ المستمعين

حلمي للكنيسة هو أن نُعرف بوصفنا جماعة المستمعين، وأن يكونَ استماعُنا متعدِّد الاتِّجاهات،

حيث تتّجه أذنٌ إلى الخارج والأخرى إلى الداخل، وأن يكون استماعنا جزءًا لا يتجزَّأ من خدمتنا في الاهتمام الرعويِّ وإدارة الكنيسة.

الاستماع إلى الداخل. كنتُ مؤخَّرًا مشاركًا مع كنيسة عقدت ما أطلقوا عليه "مواقع استماع"، حيث حدَّد قادةُ الكنيسة عدَّة أوقاتٍ مفتوحة في أحياء مختلفة لكي يأتي أعضاءُ الكنيسة ويشاركوا بآمالهم وإحباطاتهم بشأن الكنيسة، وكان الدور الوحيد للرعاة والشيوخ هو الاستماع وطرْحِ الأسئلة، وكانوا حذرين ألَّا يحدِّدوا نقاط عملٍ لكلِّ موقع استماع، لكي يعطوا الناسَ الفرصة ليشاركوا كلَّ ما يريدونَ مشاركته، ولا أتذكَّرُ أيَّ نتائج محدَّدة أو اتِّجاهات اتُّخِذتْ نتيجةً لمواقع الاستماع تلك، وحين أسترجعُ ذلك أعتقد أنَّ ذلك كان هو الهدف المنشود، فالاستماع كان هو في حدِّ ذاته الهدف، فالاستماع من ناحية الرعاة والشيوخ كان طريقةً لإظهار الانفتاح والاتِّضاع والخضوع للروح القدس المتحدِّثِ بواسطة الكنيسة كلِّها، وكانت مواقع

الاستماع وسيلةَ لإظهار المحبَّة والِاحترام لناس الكنيسة، ووسيلةً للاعترِاف بدَور كلِّ شخصٍ في الجماعة والخدمة وقيمة كل صوتٍ فرديٍّ.

جال أيضًا في خاطري مدى ندرة مثل ذلك النوع من استماع الكنيسة، واحتياجنا إلى تحديد اجتماعات خاصَّة كي يشعر الناسُ بأنَّهم مَسموعونَ، وهذا النوع من الاستماع، حيث يُعكس الاتِّجاه العاديُّ من الاستماع، هو عنصرٌ لا غنى عنه للناس وللكنيسة لينموَ الكلُّ إلى صورة المسيح، إلى التعبيرِ الاستماعيِّ في صورة الملكوت المقلوب الذي نادى به يسوع، وأفكِّرُ هنا في يسوع حين وضعَ طفلًا في وسط الحشد وقال: ‘‘مَن لا يقبَلُ ملكوت الله مِثل ولد فلن يدخلَه’’ (مرقس ١٠: ١٥)، وفي هذا دعوتُه للبالغين ليستمعوا إلى الأطفال، وليس فقط لدعوة الأطفال ليأتوا إلى الأمام كي نقدِّم إليهم عظةً تناسب الأطفال، بل لندعهم يقدِّمون إلينا عِظتِهم.

أفكِّرُ في تفاعل يسوع مع المرأة السامريَّة خارج

المدينة عند البئر بوصفه دعوةً للرجال ليستمعوا إلى النساء، والأعضاء ليستمعوا إلى مَن هم من خارج، عاكسًا النزعات الثقافيَّة المدمِّرة. أو مثلًا تعليق يعقوب بشأن دخول شخص غنيٍّ يرتدي ثيابًا فاخرة في المجمع، فيُعطى مَوقعًا جيِّدًا، بينما تخبرُ مَن يرتدي ثيابًا رثَّة أن يجلسَ عند قدمَيك، فتُظهر بذلك انحيازًا غير عادلٍ، لكنْ بدلَ ذلك نتركُ مقاعدَنا للفقراء وذوي الثياب الرثَّة والمنبوذين، أولئك المختلفين عنَّا، ونجلسُ نحن عند أقدامهم ونستمع إليهم، وندعهم يعلِّموننا. فكما قيل: ليست المشكلة في أنَّ بعض الناس في مجتمعنا يعوزُهم صوتٌ، إنَّما يعوزُهم مستَمِعون.

الاستماع من أجل الوحدة. يدوِّي صوتُ الدعوة إلى الوحدة بواسطة كنائس من كلِّ الأحجام والطوائف، لكنْ ما الذي يصنعُ وحدةَ الكنيسة؟ ينادي كثيرون بأنَّ الوحدة تأتي من المعتقد المُشترك، لكنَّ تلك الجماعات التي تؤكِّد تأكيدًا شديدًا العقيدة المشتركة كثيرًا ما ترسمُ خطوطًا حادَّة فاصلة ما بين مَن هم في الداخل- أي مَن

يؤمنون بكلِّ ما نؤمن به- ومَن هم مِن خارج- أي مَن لا يتَّفقون معنا، أو كما يُفسَّر عادةً مَن هم على خطأ. وقد يبدأ هذا الخطُّ على باب الكنيسة حيث يفصلُ ما بين المؤمنين وغير المؤمنين، لكنَّ هذا الخطَّ يبدأ في التسلُّل إلى داخل الكنيسة نفسها، قاسمًا ما بين المؤمنين الحقيقيِّين والمؤمنين المزيَّفين.

ونجدُ أنفسَنا نتقهقر إلى أن نغلق على أنفسنا في غرفٍ نسمعُ فيها فقط أصواتًا مثل أصواتنا- أصواتًا تقولُ كلماتنا نحنٍ لكنَّها تخرجُ فقط من أفواه آخرين، ويعكسُ هذا نزعةً ثقافيَّة أكبر. ويُظهِر كتابٌ مهمٌّ اسمه "التصنيف الكبير" (The Big Sort) لمؤلفه بِل بيشوب (Bill Bishop) كيف يتكتَّلُ الأميركيُّون تكتُّلًا متزايدًا في أحياءٍ حيث يحيطُ بهم أناسٌ يفكِّرون ويتصرَّفون ويصوِّتون في الانتخابات مثلهم، فأميركا تسيرُ نحو الاستقطاب أكثر وأكثر، على المستوى الثقافيِّ والجغرافيِّ. ويبدو أنَّ كنائسنا تتبعُ نزعةَ أحاديَّة الثقافة تشبهُ كثيرًا ما يحدث في الأحياء السكنيَّة، فلسنا فقط

نصمُّ الآذان عن الذين يختلفونَ عنّا في الخبرات أو المنظور، بل لسنا مُضطرِّين إلى سَماعِهِم في المقام الأوَّل.

هذه نزعةٌ مرعبة، لكنِّي لستُ مقتنعًا أنَّ المجتمعاتِ التي تبدو من الخارج متجانسةً هي متشابهة حقًّا مثلما تبدو، وأعتقدُ بل يمكنني القولُ إنِّي أعرف أنَّ كنائسنا تمتلئ بأناس لها مدى واسع من الآراء السياسيَّة واللاهوتيَّة والاجتماعيَّة، وقد لا يكون الأمرُ الأوَّل هو نقصان التنوُّع، لكنَّه نقصان قبول التنوُّع، وهو عدم القدرة على الاستماع إلى أناس يقولون أمورًا قد لا نتَّفقُ معها أو قد لا تعجبنا. وهناك الكثيرون ممَّن يظلُّون صامتين في مجتمعاتنا، وكثيرًا ما يكون هذا الصمت مَصحوبًا باستياء يغلي تحت السطح للحفاظ على السلام، إمَّا لأنَّهم يريدون تجنُّبَ النزاع وإمَّا بسبب خوفهم من النتائج المترتِّبة على التعبير عن آرائهم. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّنا لن نجد مجتمعاتٍ تستمعُ إذا كان الناس يخافون العقابَ الناتج عن تبنِّيهم لآراء بديلة.

حين يتحدَّثَ العهدُ الجديدُ عن الوحدة، فهو لا يتكلَّمُ في الغالبيَّة العُظمى من الوقت عن اتِّفاقٍ عقائديٍّ مثاليٍّ، بل عن المحبَّة؛ فالذي يوحِّدُنا في الكنيسة هو الحبُّ الذي ينسابُ بيننا بقوَّة الروح القدس. وحين نستمعُ أحدُنا إلى الآخر ونسمحُ للآخرين بأن يكونوا على طبيعتهم وأن تكون لهم أفكارُهم الخاصَّة، حينها نحبُّ بعضُنا بعضًا.

إنَّ رجائي الدائم هو سماعُ قسٍّ يقفُ أمام جماعة المتعبِّدين قائلًا ما مضمونه: "نحنُ جسدُ المسيح، أبناءُ الله، وأحبَّاء الروح القدس، ولا يعني ذلك أنَّنا جميعًا متماثلون، فلسنا كذلك، فلنا أفكارُنا المختلفة، ونختبر مشاعر مختلفة، وبيننا اختلافاتٌ في الخبرات والمنظور والماضي والرجاء الذي للغد، ولنا اختياراتُنا السياسيَّة المختلفة، ونقرأ الكتاب المقدَّس قراءات مختلفة، بل نفهمُ الله فهمًا مختلفًا، وبينما تمتدُّ جذور كنيستنا إلى التقليد المسيحيِّ العظيم الذي يُحافظ على أسس العقيدة التي أقرَّتها الكنيسةُ حول العالم لآلاف السنين، لكنَّنا نقرُّ أنَّ الناس يأتونَ من خلفيَّات مختلفة ويتحرَّكون

بسرعات مختلفة، ونفتخرُ بالأسئلة والشكوك والصراعات التي لكلِّ واحدٍ منَّا، ولن نحاول بتاتًا إسكاتها أو صرف النظر عنها؛ فالمحبَّة هي ما يربطُنا معًا، والأمر الوحيد الذي تتطلَّبُه المحبَّة هو أن تكونَ على طبيعتك، وهدفُنا هو الوحدة وليس التماثل، ونسعى لنكون جماعة أصيلة حقيقيَّة، لا جماعةً متطابقة تطابقًا مصطنَعًا. ومعنى ذلك أنَّنا سنختلفُ، بل سنختلف اختلافات حادَّةً أحيانًا، لكنَّنا سنبقى جالسين إلى المائدة نفسها، وسنظلُّ مستمعين إلى أولئك المختلفين معهم، ووحدتُنا هي في تعهُّدنا باستماع الواحد إلى الآخر".

الاستماع إلى الخارج. كانت المسيحيَّةُ في الماضي تتمتَّعُ بامتياز توقُّع أن يستمع الناسُ إلى رسالتنا، أو على الأقل أن يتظاهروا بالاستماع، لكن في عصرٍ فقدتْ فيه الكنيسة بعضًا من تأثيرها وحظوتها، قد يغرينا اختيارُ رفْع صوتنا لكي نُسمع، فمع إحساس أنَّنا مثل أقلِّيَّة مُضطهدة، قد نحاربُ محاربةً أشدَّ ونعظ وعظًا أكثر صخبًا، آملين أنَّ صراخَنا سيفتحُ آذان ثقافةٍ توقَّفتْ عن

الاستماع إلينا، لكنْ بدلَ ذلك، أحسبُ هذا الوقت فرصةً جيِّدة للكنيسة لتستمع. فبعد أنْ كنَّا جيوشًا من الوُعَّاظ، يمكننا الآن وضع الناس في الصفوف الأولى من جبهة الاستماع، ففقداننا النسبيُّ للقوَّة هو فرصةٌ لنا لنتعلَّم ما يثمِّنُه ويريدُه جيرانُنا وثقافتُنا، فبدلَ أن نكونَ أشخاصًا متسلِّحين بإجابات، يمكننا اكتشاف الأسئلة التي يطرحها الآخرون؛ فهذا عصرٌ يجبُ فيه على الكنيسة أن تنالَ حقَّ أن تُسمَعَ، لكنَّ عليها أن تناله عن استحقاق، ولا أعرفُ طريقةً لفعل ذلك أفضل من الاستماع أوَّلًا.

آذان إلى الأرض المحيطة

أخبرني سكوت ماكنايت أنَّه يعتقدُ أن أكثر الجماعات المسيحيَّة فاعليَّة هم أولئك مَن "لهم آذان مقتربة إلى الأرض"، المستمعين إلى تحرُّكات الثقافة المحيطة١، فمن المعروف أنَّه كي تكون لنا القدرة على محبَّة أقربائنا، علينا أن نعرفَهم أوَّلًا.

كانت لي الفرصة وقت الجامعة للمشاركة في كنيستَين على بُعد ثلاثين ميلًا (نحو ثمانية وأربعين كيلومترًا)

شرق لوس أنجلوس، وكانتا تبعدان خمسة أميال (نحو ثمانية كيلومترات) إحداهما عن الأخرى، وكانت كلتاهما جزءًا من جماعةٍ أكبر، لكن علاقاتهما مع الجيران كانت مختلفة اختلافًا شديدًا، فعلى مدار السنوات الخمسين السابقة، كانت المدينة قد شهدت تغيُّرًا كبيرًا، فبعد أن كانت الأغلبيَّة من البِيض، أصبحت الغالبيَّة العظمى من السكَّان من أصلٍ إسپانيٍّ، ومتعبِّدو الكنيستَين، مَن كانوا مزدهرين في السابق، تضاءلوا حيث انتقل أعضاءٌ من المنطقة إلى السكنٍ في الضواحي القريبة، ووجدَتِ الكنيستان صعوبةً في معرفة كيفيَّة التكيُّف مع التركيبة السكَّانيَّة الجديدة للمنطقة.

استجابت الكنيستان لهذا النزوح بطريقتَين مختلفتَين تمامًا، فإحداهما تحوَّلتْ إلى الداخل متجاهلةً التغيُّر الثقافيَّ حولَها، وصارت دون صِلةٍ بجيرانها، وكان أعضاء الكنيسة الباقون يجيئون من الضواحي التي هربوا إليها ليَحضُروا الكنيسة، فقط مرورًا بالمنطقة

التي توجدُ فيها الكنيسة. ومع أنَّهم أناس لطفاء، فلم يكُن لديهم اهتمامٌ يكفي لتقديم حُسن ضيافةٍ إلى أشخاص جُدد أو لإيجاد نقاط التقاء بجيرانهم الأقرب. واليوم هناك خمسة عشر شخصًا يأتي إلى الكنيسة لحضور العبادة الأسبوعيَّة، وهي واحدة من الحالات الحزينة التي ينتظرُ فيها القائمون على الكنيسة وفاةَ الأعضاء لكي يتمكَّنوا من بيع العقار.

أمَّا الكنيسة الأخرى، وتقعُ إلى جهة الشمال قليلًا وتوجدُ في منطقة أكثر سكَّانًا، فاتَّخذتْ منهاجًا مختلفًا، إذ أرسلوا بعضَ الأعضاء ليُجروا دراسةً عن المنطقة، وذلك لجَمْع بعض المعلومات من ناحية، لكنْ أيضًا ليلتَقوا جيرانهم، وكانوا يريدون معرفتهم ومعرفة إحتياجاتهم واهتماماتهم وصراعاتهم، أي بكلمات أخرى استمَعوا إليهم، وما سمعوه غيَّرهَم وغيَّر طبيعة خدمتهم، وكان الاحتياج الأوَّل الذي ظهرَ إلى السطح هو الاحتياج إلى مكانٍ آمنٍ يذهبُ إليه الأطفالُ بعد المدرسة، فبدأتِ الكنيسةُ برنامجًا تعليميًّا لفترة ما بعد

المدرسة، وعيَّنوا بعض الطَّلّاب من جامعات مجاورة ليقدِّموا مساعدتهم، وهذا هو ما جعلني أعرف عن الكنيسة. ونما البرنامجُ التعليميُّ حتَّى أصبح مركزًا مجتمعيًّا للتدريب والتنظيم المجتمعيِّ، والآن هناك أعضاءٌ من الكنيسة ومن الأحياء القريبة والبعيدة يعلِّمون في فصول دراسيَّة للأطفال وللوالدين، ويقدِّمون فرصَ تدريبٍ وتوظيفٍ، وهناك أيضًا حديقةٌ تعاونيَّة ومركز لتدريب الحاسوب.٢

اليوم، ورغم أنَّ الكنيسة لا تزال صغيرةَ الحجم، فإنَّ فيها جماعةَ متعبِّدين متعدِّدة الأعراق واللغات؛ لأنَّهم اختاروا أن يحوِّلوا أذنَهم نحو مجتمعهم مُصْغين إليه.

الاستماع إلى قصَّة مجتمعك

كانت لي الفرصة مؤخَّرًا للسير مع مايكل ماتا (Michael Mata) مدير التطوير الحضريِّ (في المدن) لهيئة وورلد جن أميركا (World Vision US). ويصطحبُ ماتا مجموعاتٍ ليسيروا في الأحياء، معلِّمًا إيَّاهم كيفيَّة تقييم الأبنية والرموز الموجودة في المجتمع

المحلَيِّ، وهي ممارسةَ يمكن كثيرًا أن تمارسَها الكنائس والمجموعات المسيحيَّة الأخرى، وهي التدريبُ الروحيُّ القائم على السير في المجتمع المحلِّيِّ لمسافة طويلة، والتدريبُ على الاستماع معًا إلى القصَّة التي يقصُّها المجتمع المحلِّيُّ.

في هذا التدريب تسيرُ بالحيِّ في مجموعة صغيرة وتطرحُ أسئلة عمَّا تلاحظُه وتختبرُه، وجعلَنا ماتا نطرحُ أسئلةً من قَبيل:

- كيف تُستخدمُ المساحةُ هنا؟ هل هناك إحساسٌ عامٌّ بأنَّ الناس مرحَّبٌ بهم هنا؟ هل هناك مكانٌ مخصَّص للمشاة أو حاراتٌ للدرَّاجات؟ هل توجد قضبان على النوافذ أو بوَّابات عالية أو سياجات؟
- ما أنواع البيوت التي يسكنُ فيها الناسُ هنا؟ وكيف يُعتنى بها؟ وما متوسِّطُ عدد مَن يسكنون في بيتٍ أو شقَّة؟

- ما العلامات السياسيَّة التي تلاحظَها؟ وما طبيعةُ اللوحات الإعلانيَّة؟ ما الرسائل التي تحملُها؟ إلامَ تشيرُ هذه الرسائل بشأنِ مَن يعيشون هنا والكيفيَّة التي بها ينتخبون ممثِّليهم السياسيِّين؟ وما عاداتهم الشرائيَّة؟
- ماذا تسمعُ؟ ما اللغات التي يتحدَّثُ بها الناس هنا؟ هل تسمعُ أطفالًا يلعبون أو يبكون؟
- ما أنواع المركبات التي تراها؟
- ما الرموز التي تلاحظُها؟ الدينيَّة منها أو الاقتصاديَّة أو السياسيَّة؟
- مَن ترى؟ وكم يبلغون من العُمر؟ ما الخلفيَّات العرقيَّة الموجودة؟ وما مستواهم الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ؟
- مَن رموز السلطة هنا؟ هل الشُّرطة؟ وهل وجودُهم مُرحَّب به أم لا؟

إذا استمعتَ جيِّدًا، ستجدُ أنَّ ما تسمعُه في كلِّ حيٍّ هو أمرٌ متفرِّدٌ، فما تسمعُه في حيٍّ تسكنُه

طبقةٌ دنيا سيكون بالتأكيد مختلفًا عمَّا تسمعُه في ضاحية تقطنُها طبقةٌ عليا، لكن يمكن أن تُطرح هذه الأسئلة في أيِّ سياق مع بعض التعديل، وعمليَّة الاستماع معًا هي بأهمِّيَّة الاستنتاجات التي تصلُ إليها المجموعةُ.

الأهمُّ من ذلك هو أنَّ ماتا كان يُصرُّ أن نبحثَ ليس فقط عن المشكلات الموجودة في المجتمع، بل أيضًا عن علامات للرَّجاء؛ ففي أحياءٍ معيَّنة من السهل السقوط في يأسٍ شديد نتيجةَ عدد المشكلات والتوتُّراتٍ التي تلاحظُها، لكنَّه كان يجعلنا نستمع مُنصِتين إلى الموارد والهبات والإمكانات ونقاط القوى الموجودة في المجتمع، حتَّى إنِ احتجنا إلى الابتكار والتخيُّل. فمثلًا، إذا وجدنا مساحةً فارغةً، نتخيَّلُ إمكانيَّة استخدامها بوصفها مكانَ تجمُّع مناسب أو حديقة، وبينما كنَّا نتكلَّم بشأن أيِّ الموارد التي يمكن تعزيزُها أو

تنميتها في مجتمع ما، كنتُ أفكِّرُ في الرسول بولس وهو في أثينا، حين لاحظ الأوثان الدينيَّة في المدينة، ولا سيَّما ذلك المُكرَّس "لإله مجهول"، فانزعجَ بولس بسبب التشوُّش الدينيِّ الموجود في المدينة، لكنَّه رأى أيضًا في ذلك التمثال الخاصِّ فرصةً للمناداة بالمسيح، إذ سمع الأثينيِّين في تَوقهم إلى الله وإلى معرفة قوى الكون العظيمة. إنَّ استماعنا إلى مجتمعاتنا سيتضمَّنُ النوحَ والتعاطف مع ألمهم، لكنَّه سيتضمَّنُ أيضًا إيجاد علامات للرَّجاء والانفتاح والرغبة الروحيَّة في أحيائنا، مثلما صاغها مايكل فروست (Michael Frost) قائلًا: "استَمِع إلى الحيِّ الذي تسكنُ فيه، فسكَّانُه يخبرونك كيف تشفيهم".٣

يمكن أن تكونَ احتياجات كنائسنا ومدننا وأحيائنا مُربِكة. وحين نرى مشكلات عالَمنا عن بُعد، قد نشعرُ بالعجز، ومع زيادة

الانشغال في حياة كلٍ منّا، نتردَّدُ قبل إضافة أنشطة أخرى. لكنَّ المفتاح هو في القُرب، فبينما هناك أصواتٌ افتراضيَّة ليس لها اسمٌ ولا شكل، هناك أيضًا الشخص الموجود أمامي. وقد قالت الأمُّ تيريزا مرَّةً: ‘‘لا تهتمِّ بشأن الأعداد، بل ساعِدْ شخصًا واحدًا في كلِّ مرَّة، وابدأ دائمًا بأقرب شخص’’. فليس من اللازم الذهاب إلى أقصى الأرضِ لتستمع إلى احتياجات الآخرين، فإنْ لم تكُن على يقين بما عليك فعله ومَن عليك مساعدته، فلتستمعْ إلى أقربِ شخص، أينما كنتَ، وكُن مستعدًّا لأن تتغيَّر نتيجةً لما تسمعُه.

الخاتمة

ينتهي الكلُّ بالاستماع. حين كنتُ أعملُ في المستشفى الخاصِّ بالعناية بالحالات المتأخِّرة (المحتَضَرينَ)، كنتُ دائمًا أخبرُ الأُسَرَ بأن يستمرُّوا في التكلُّم إلى

المرضى، لأنَّه قد يكون بإمكانهم السمع، وعلى مستوًى عميق، بعُمق النفس ذاتها، بغضِّ النظر عن مدى ما يبدو من عدم استجابتهم. إذ يمكن أن يسمَعَ مَن هُم على عتبة الأبديَّة الهمساتِ وأناشيدَ المحبَّة التي تقدِّمُها أُسَرُهم إليهم حاسبينَ إيَّاها هدايا الرحيل.

الاستماعُ هو أوَّلُ أمرٍ نفعله في الحياة، وهو آخر أمر نفعله في الموت؛ فليس لنا اختيارٌ في الموقفَين، لكنَّ لدينا بالفعل اختيارًا في كلِّ المواضع التي بينهما. والحقيقةُ الأمينةُ هي أنَّه لا مجدَ في الاستماع؛ فهناك مجدٌ أكثر في التكلُّم عن الاستماع، أكثر من المجد الموجود في الاستماع نفسه، وهو مثل قرارات السنة الجديدة في التدريبات الخاصَّة بالعلاقات. ليس الأمر برَّاقًا ولا جذَّابًا ولا محمِّسًا، بل أولئك مَن نالوا سمعًا جيِّدًا قد لا يدركون الأمرَ معظم الوقت.

لكنْ حين تتعهَّدُ أن تتعمَّقَ في الاستماع، ستجدُ أنَّ الاستماع ”يتحدَّثُ“ بطرقٍ أقوى من الطُّرق التي يمكن أن يتحدَّثَ بها الكلامُ نفسه، فلا يمكن أن تُضاهيَ أعمقُ

عِظةٍ إذا قُدِّمتْ بأمهَرِ طريقةٍ خبرةَ أن ينالَ الشخصُ استماعًا حقيقيًّا. وقد لا يصطفُّ الناسُ في انتظار مصافحتك بعد أن تكونَ قد استمعتَ إليهم، لكنَّ عشرةَ آلاف كلمة جميلة لا يمكنُها التعبير عن المحبَّة مثلما يقدر الاستماعُ المتأنِّي الصبور.

الاستماعُ هبةٌ، وهو هبةٌ من الله لنا، أو هبةٌ تُشعلُ الحميميَّة، وتساعدُنا لننموَ لنكونَ خُدَّامًا وتلاميذ، أو هبةٌ تَعدُ بالتعلُّم المستمرِّ واكتشاف النفس، أو هبةٌ تساعدُنا لئلَّا نفقدَ بتاتًا العطيَّة الطفوليَّة المتمثِّلةِ بالاندهاش، أو هبةٌ تجعلُنا على يقينٍ بإرشادِ اللهِ وإدراكِ حضوره، أو هبةٌ يقدِّمُها الله- في إطار الاكتشاف المذهِل أنَّ الله نفسَه يستمعُ إلينا حقًّا- وهي عطيَّة نقدِّمُها نحن إلى آخرين، في دعوةٍ مفتوحة نتلقَّى فيها كلَّ ما يختارون مشاركته معنا.

فهل تقبلُ بسرورٍ هِبةَ الاستماع؟

الملاحظات

المقدِّمة

1. David Benner, Sacred Companions: The Gift of Spiritual Friendship and Direction (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2004), 158.
2. John Gray, Men Are from Mars, Women Are from Venus (New York: Harper-Collins, 1992).

الفصل الأوَّل: حياةُ الاستماع

سجَّل الاقتباسَ أحد طُلَّاب هندريكس، ويُدعى ديل بيرك (Dale Burke)، على

http://seacoast-church.org/howard-endricks-quotes.

2. Shane Hipps, The Hidden Power of Electronic Culture (Grand Rapids: Zondervan, 2005), 71.
3. Seth S. Horowitz, “The Science and Art of

Listening," The New York Times, November 9, 2012, http://mobile.nytimes.com/2012/11/11/opinion/listening-is-so-much-more-than-hearing.html?_r=0.
4. Don Ihde, Listening and Voice: Phenomenologies of Sound (Albany: State University of New York Press, 2007), 81.
5. John M. Gottman, The Seven Principles for Making Marriage Work (New York: Harmony Publishers, 2000), 45.
6. Scot McKnight, The Blue Parakeet: Rethinking How You Read the Bible (Grand Rapids: Zondervan, 2008), 98.
7. Louise Story, "Anywhere the Eye Can See, It's Likely to See an Ad," The New York Times, January 15, 2007, www.nytimes.com/2007/01/15/business/media/pagewanted=1&_r=0.
8. Christine Rosen, "The Myth of Multitasking," The New Atlantis, no. 20 (Spring 2008): 105-10, available online at www.thenewatlantis.com/publications/the-myth-of-multitasking.

9. Kendall Paladino, “Mother Teresa Saw Loneliness as Leprosy of the West,” The News-Times (Danbury, CT), April 17, 2004, www.newstimes.com/news/article/Mother-Teresa-saw-loneliness-as-leprosy-of-the-250607.php.
10. Rosen, “The Myth of Multitasking,” www.thenewatlantis.com/publications/the-myth-of-multitasking
11. Skye Jethani, The Divine Commodity (Grand Rapids: Zondervan, 2009), 47-52.

مقتبسٌ في: Idhe, Listening and Voice, 7.

المرجع السابق نفسه

14. Walter Ong, Orality and Literacy (New York: Routledge, 1982), 71.
15. Hipps, Hidden Power of Electronic Culture, 71.

الفصل الثاني: الملكُ المستمع

1. Edward Hickman, ed., Works of Jonathan Edwards, vol. 2 (Edinburgh: Banner of Truth

Trust, 1974), 113.
2. Mother Teresa and Brian Kolodiejchuk, Come Be My Light: The Private Writings of the Saint of Calcutta (New York: Image, 2009).

الفصل الثالث: الاستماع إلى الله

1. Ruth Haley Barton, Invitation to Solitude and Silence (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2010).
2. Willard, Hearing God, expanded ed. (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2012).
3. Dallas Willard, The Divine Conspiracy: Rediscovering Our Hidden Life in God (New York: Harper, 1998), 66.

من قصيدة "Hound of Heaven" لفرنسيس تومسون (Francis Thompson).

هذه الفقرة هي تلخيصٌ صغير لمحادثة عظيمة جرت بيني وبين صديقي الراعي المشيخيِّ كيرك وينزلو (Kirk Winslow).

أجزمُ أنَّ توماس ميرتون (Thomas Merton) قال هذا الأمرَ في مِكانٍ ما، لكنِّي لم أستطع العثور على المصدر مع كلِّ محَاولاتي.

7. David Benner Opening to God (Downers Grove, IL: Inter-Varsity Press, 2010), 26.

أوجدَ أصلان (Aslan) عالم نارنيا (Narnia) بغنائه إيَّاها فوُجدت، فيا له من أسدٍ غريب!

9. Henri J. Nouwen, “Moving from Solitude to Community to Ministry,” Leadership Journal, Spring 1995.
10. Willard, Hearing God, 42.

المرجع السابق نفسه، صفحة ١٧٥-١٧٦.

12. Henri Nouwen, The Way of the Heart (New York: HarperOne, 2009), 28.
13. John Calvin, Institutes of the Christian Religion, vol. 1, ed. John T. McNeil, trans. Ford Lewis Battles (Louisville, KY: Westminster John Knox, 1960), 7.4.
14. Willard, Hearing God.
15. T. S. Eliot, “Ash Wednesday,” in The Complete Poems and Plays of T. S. Eliot (London: Faber and Faber, 2004).

16. Robert Gelinas, Finding the Groove: Composing a Jazz-Shaped Faith (Grand Rapids: Zondervan, 2009), 44.
تأتي معظمُ قصَّة كولترين من الكتاب الرائع لجيليناس.

المرجع السابق نفسه، صفحة ٤٥.

المرجع السابق نفسه. يمكنُك تجربة الاسترخاء والاستماع إلى ''حبٌّ سام'' داخلًا في أعماق الليل مع صوت الله، إذ يمكن أنَّ يغيِّر حياتَك.

19. Lewis Porter, John Coltrane: His Life and Music (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2000), 232.
20. Willard, Hearing God, 56.
عند هذه المرحلة، أتوقَّعُ أن تتعجَّب من نفسِك متسائلًا لماذا تقرأ كتابي بدلَ كتاب ويلارد!

21. Raging Waters Conference, Fuller Seminary, April 2011.
أعيدُ عنا صياغةَ ما قاله كارل بارت في ''العقائد الكنسيَّة'' (Church Dogmatics)، وقد قالها في فَصاحةٍ أكثر وإسهابٍ أكثر كثيرًا، وأنا على يقين أنَّه الآن مع الربِّ يجتهدُ في مجلَّداتٍ أخرى.

23. Nowen, The Way of the Heart, 28.

يردُ الاقتباسُ في:

Jerry Sittser, The Will of God as a Way of Life: How to Make Every Decision with Peace and Confidence (Grand Rapids: Zondervan, 2004), 87.

المرجع السابق نفسه، صفحة ٩٠.

الفصل الرابع: الاستماع إلى الكتاب المقدَّس

الشكرُ لسوزان هاوتش (Susan Howatch) على عبارة "القُوى الساحرة" ومن أجل سلسلة "ستاربريدج" (Starbridge) كلِّها، لا سيَّما "صور لامعة" (Glittering Images)، والتي عرَّفتني الاتِّجاهَ الروحيَّ، علاوةً على أنَّها رحلة رائعة.

2. Michael Casey, Sacred Reading: The Art of Lectio Divina (Liguori, MO: Triumph Books, 1996), 58. تشبيهُ خزانة الأدوية مُقتبسٌ من العمل نفسه، صفحة ٤٧.

يُطلِق يوجين بيترسون على ذلك "الكتابة المشجِّعة على الاكتشاف" في كتابه:

The Pastor: A Memoir (New York: .HarperOne, 2012), 239

4. Eugene Peterson, Eat This Book: A Conversation in the Art of Spiritual Reading (Grand Rapids: Eerdmans, 2009), 24.
5. Chris Webb, The Fire of the Word: Meeting God on Holy Ground (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2011), 60.
6. Peterson, Eat This Book, 88.
7. Scot McKnight, The Blue Parakeet: Rethinking How You Read the Bible (Grand Rapids: Zondervan, 2008), 41.

المرجع السابق نفسه.

المرجع السابق نفسه.

لنتَّفق بكلِّ أمانة أنَّ قصَّة ‹‹موبي دِك›› كان يمكن أن تكونَ أقصر كثيرًا، فقد بدأتُ في قراءتها حين كنتُ في السابعة عشر، وانتَهَيتُ منها قبل أسبوع فقط (من كتابة هذه السطور).

انظر إلى محادثة رائعة عن صلاة إغناطيوس في:
Gary Neal Hansen’s Kneeling with Giants: Learning to Pray with History’s Best Teachers (Downers Grove, IL: InterVarsity

Press, 2012).
12. Peterson, Eat This Book, 91.
ساعدني على صياغة هذه الطريقة:
Spiritual Disciplines Handbook: Practices That Transform Us (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2005).
الاقتباسان مأخوذان من:
Reading Scripture with the Church Fathers (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1998), 41.
15. Peterson, The Pastor, 71.

الفصل الخامس: الاستماع إلى الخليقة

1. Epistola CVI, sect. 2, in The Early English Church, translation from Edward Churton (1840), 324.
2. Calvin, Institutes of the Christian Religion, vol. 1, ed. John T. McNeil, trans. Ford Lewis Battles (Louisville, KY: Westminster John Knox, 1960), 72.
المرجع السابق نفسه، صفحة ١٧٩.

قال كارل بارت إنَّ يسوع المسيح ''هو مفتاح سرِّ الخليقة''، لكنِّي أعتقدُ أنَّ يسوع هو السرُّ نفسه حقًّا.

(Karl Barth, The Doctrine of Creation 3.1, Church Dogmatics [Edinburgh: T&T Clark, 2004]).

شكرًا لليتن فورد على الإشارة إلى هذا الاتِّصال ما بين الكلمة والعالَم، وعلى تفسير قصَّة المجوس. انظر أيضًا إلى كتابه الرائع:

The Attentive Life: Discerning God's Presence in All Things (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2014).

6. Augustine, Confessions, trans. R. S. Pine-Coffin (London: Penguin, 1961), bk. 10, chap. 6, 212.
7. Richard Foster, Sanctuary of the Soul: Journey into Meditative Prayer (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2011), 141.

اقتبسَه:

Trent Gilliss, "On Beauty: Places to Play and Pray," On Being, October 6, 2013, www.onbeing.org/blog/on-beauty-places-to-play-and-pray/6015.

حين أخلعُ نظارتي في أثناء المشي التأمُّليِّ، نادرًا ما أوشك على الاصطدام بالسيَّارات! ربَّما حدث ذلك أربع أو خمس مرَّات فقط!
الاقتباس مذكورٌ في:

A Jonathan Edwards Reader, ed. John E. Smith, Harry S. Stout and Kenneth P. Minkema (New Haven, CT: Yale University Press, 2013), 7-8.

11. Janna Levin, "The Sound the Universe Makes," TED Talk, March 2011, www.ted.com/talks/janna_levin_the_sound_the
12. Rob Bell, "Why We Should Care About Advent," Relevant Magazine, November 29, 2010, www.relevantmagazine.com/god/deeper-walk/features/23640-why-advent.
13. Eugene Peterson, Christ Plays in Ten Thousand Places: A Conversation in Spiritual Theology (Grand Rapids: Eerdmans, 2008), 67-69.

كلُّ هذا الجزء متأثِّرٌ تأثُّرًا كبيرًا بهذا الكتاب لبيترسون، فلستُ ماهرًا بما يكفي للوصول إلى هذه

الأمور بنفسي!

تعديل على ما قاله بيترسون: ‘‘نستيقظُ إلى عالَم لم نصنعْه’’ (المرجع السابق نفسه، صفحة ٥١).

قدَّم روب بل عظةً رائعة عن هذا الموضوع في كنيسة ‘‘Mars Hill Bible Church’’، ضمنَ سلسلة ع ن ‘‘الله صديق البيئة’’، ويستعينُ هذا الجزء بأفكاره.

هذا الجزء أيضًا من سلسلة ‘‘الله صديق البيئة’’.

17. Ford, The Attentive Life, 22.
18. Phyllis Tickle’s introduction to The Divine Hours: Prayers for Summertime (New York: Image, 2006).

    هذا أكثر المصادر المعاصرة المفضَّلة لي عن صلاة الساعات، وهناك أيضًا تطبيقٌ على الهواتف المحمولة لصلاة الساعات.

19. Henri Nouwen, A Cry for Mercy (New York: Image, 2002), 43.

    عرفتُ هذا بواسطة:

    Christine Valters Paintner’s book Water, Wind, Earth, and Fire: The Christian Practice of Praying with the Elements (Notre Dame,

IN: Sorin Publishers, 2010).

أعتقدُ أنِّي حصلتُ على هذه الفكرة من حلقة من حلقات "The West Wing"، حيث كانت المناقشة بشأن حالة محتملة من مرض جنون البقر في الولايات المتَّحدة، لكنِ اتَّضحَ أنَّ الأمر غير صحيح، لكنَّ سي. جاي. ليو (Leo, C. J.) وجَد (Jed) دخلا في نزاع بشأن الأمر مدَّة ساعة كاملة، وكانت حلقة جيِّدة.

من كتاب:

The Problem of Pain (New York: HarperCollins, 2014).

23. The Green Bible (New York: Harper, 2006), I-36.

رومية ٨: ٢٢ - ٢٣، والجذر اللغويُّ اليونانيُّ هو (Stenazo)، والذي يعني يئنُّ أو يتنهَّد انظر الإصدار الرائع:

National Association of Evangelicals, Loving the Least of These, http://nae.net/loving-the-least-of-these.

وكم يُسعدُني أنَّ الإنجيليِّين يصلون بالتدريج إلى

إدراك هذه الأمور.

26. John Vidal, “A Great Silence Is Being Spread Over the Natural World,” The Guardian, September 3, 2012, http://m.guardian.co.uk/environment/2012/sep/krause-natural-world-recordings?cat=environment&type=article.

الفصل السادس: الاستماع إلى الآخرين

أظنُّ أنِّي سمعتُ عبارة ‹‹الاستماع إلى قلوب أولئك مَن حولي›› أوَّل مرَّة في كتاب:

Norm Wakefield’s Between the Words: The Art of Perceptive Listening (Grand Rapids: Revell, 2002).

في العبريَّة ليـ□ شماع (Lev Shema).

تتناولُ ديبرا □ان ديوسن هينسينغر هذا الأمر باستفاضة في كتابِها:

Pray Without Ceasing: Revitalizing Pastoral Care (Grand Rapids: Eerdmans, 2006).

4. H. Jackson Brown, The Complete Life’s Little Instruction Book (Nashville: Thomas Nelson,

2000), 116.
رأيتُ ذلك الاقتباس يُنسبُ إلى نحو ٧٤٢ شخصًا مختلفًا، والمدهشُ أنَّ القدِّيس فرنسيس ليس بينَهُم!

6. Dietrich Bonhoeffer, Life Together (New York: HarperOne, 2009), 93.
يحدثُ هذا بصورة أقلَّ في الكنائس المشيخيَّة.

على ما يبدو لم يكتُب القدِّيس فرنسيس هذه الصلاة، ولم تظهر حتَّى بدايات القرن العشرين، ولا أعرفُ سبب أن كثيرًا من الاقتباسات التي تُنسَبُ إلى القدِّيس فرنسيس يتَّضحُ أنَّه مُلفَّق؟

9. Wakefield, Between the Words, 49.
توم هاميلتون (Tom Hamilton) في "شرق عدن" (East of Eden)، هو مَن قيل فيه أنَّ له "أذنًا صالحة"، وقد انتحرَ لاحقًا.

11. Hunsinger, Pray Without Ceasing, 52.

الفصل السابع: الاستماع إلى المتألِّمين

1. Dietrich Bonhoeffer, Life Together (New York: HarperOne, 2009), 97.
قد يكون د. سُوس هو قائل العبارة، وربَّما غيره؛

فهذا الاقتباسُ يُنسَبُ إليه على نحوٍ واسع دون مصدر مُحدَّد.

3. Bonhoeffer, Life Together, 97.

اقرأ عن هذا الأمر الذي يتناوله بعمق:

Daniel Goleman’s Social Intelligence: The New Science of Human Relationships (New York: Bantam Books, 2006).

تتناول ديبرا □ان ديوسن هنسينغر القلق والاستماع في جزء كبير من كتابِها:

Pray Without Ceasing: Revitalizing Pastoral Care (Grand Rapids: Eerdmans, 2006), 80.

6. William Ury, Getting Past No (New York: Bantam, 1993), 52.

تقول ديبرا □ان ديوسن هنسينغر في كتابها (Pray Without Ceasing, 64): ”حين يركِّزُ الشخصُ فقط على المشاعر ويُخفقُ في تحديد الاحتياجات الضمنيَّة ما وراء هذه المشاعر، يمكن للشخص أن يقعَ ببساطة في فخِّ تكرار المشاعر السيِّئة التي يشعرُ بها“.

تأتي عبارة "الاستماع إلى حياتك" من فردريك بوشنر (Frederick Buechner) في كتاب عنوانه "الاستماع إلى حياتك".

Listening to Your Life (San Francisco: HarperSanFrancisco, 1992).

2. Parker Palmer, Let Your Life Speak: Listening for the Voice of Vocation (San Franisco: Jossey-Bass, 1999), 4.

تردُ الفكرةُ في:

Ruth Haley Barton, Invitation to Solitude and Silence: Experiencing God's Transforming Presence (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2010), 43.

4. Madeleine L'Engle, Walking on Water: Reflections on Faith and Art (Colorado Springs: Waterbrook, 2001), 13.
5. Marian Wright Edelmen, The Measure of Our Success: A Letter to My Children and Yours (New York: HarperPerennial, 1993), 70.

إذا بدا لك هذا الأمرُ شبيهًا بما يُعرفُ بالتركيز الكامل للذهن (Mindfulness) فليست هذه مصادفة. جرِّب قراءة:

Jon Kabat-Zinn's Full Catastrophe Living: Using the Wisdom of Your Body and Mind to Face Stress, Pain and Illness (New York: Delacorte Press, 1990).

7. Richard Rohr, Everything Belongs: The Gift of Contemplative Prayer (New York: Crossroad, 2003).

حين أسمعُ كلمة "الأرواح" أتذكَّرُ الشخصيَّات الثلاث الزائرين في قصَّة "A Christmas Carol".

9. William Ury, Getting Past No: Negotiating in Difficult Situations (New York: Bantam, 1993), 39.

في هذا السياق، يتحدَّثُ الكاتبُ بشأن تكتيكات الجدل الجائرة.

في أوَّل مرَّة أقدِّمُ فيها تعليمًا في كنيسة، وكنتُ وقتَها طالبًا في كلِّيَّة اللاهوت، قدَّمتُ تعليمًا عن أمثال المسيح، وبعد المرَّة الثانية والتي ظننتُ أنَّها كانت جيِّدة جدًّا، جاءني رجلٌ مسنٌّ إلى الصفوف الأولى بينما غادر الجميعُ، وكانت عيناه تومضان ببريق جعلني أعدُّ نفسي لتلقِّي الإطراء، تأكيدًا علىً مواهبي الروحيَّة المبهرة، فلما جاءني الرجلُ ابتسمَ

ومال إليَّ قائلا: ’’حين تقدِّم تعليمًا لا ينبغي أن تضع يدَك في جيبك‘‘، فشعرتُ حينها كمَن أرادَ أن يركلَ عكّاز الرجل ويهرب! (لم أفعل ذلك بالتأكيد).

11. Deborah Van Deusen Hunsinger, Pray Without Ceasing: Revitalizing Pastoral Care (Grand Rapids: Eerdmans, 2006), 86.
12. Hunsinger, Pray Without Ceasing, 95.

أوَّل ما سمعتُ فيها عن مبدأ ’’AHEN‘‘، كان حين أرسلتُ تغريدة على موقع تويتر في صفحة كارا زيمرمان (Kara Zimmerman)، وبحثتُ عن الفكرة على ’’غوغل‘‘ ولم أجد شيئًا عنه مُطلقًا على الإنترنت، لذا أعتقدُ بحسب ما لديَّ من معلومات متاحة أنَّ كارا قد ألَّفتِ التعبير. رائع يا كارا؛ فهذا تعبيرٌ مفيدٌ جدًّا!

14. Richard Foster, Celebration of Discipline, 20th Anniversary ed. (San Francisco: HarperSanFrancisco, 1998), 55.
15. David Benner, “Toxic Spirituality,” personal blog, October 20, 2012, www.drdavidgbenner.ca/toxic-spirituality.
16. Barton, Invitation to Solitude and Silence, 60.

وذلك دون شك مع افتراض أنَّ الانجذابَ يتَّسقَ مع مبادئ الكتاب المقدَّس والعقيدة التاريخيَّة للكنيسة.

18. John Savage, Listening and Caring Skills in Ministry (Nashville: Abingdon, 1996), 120.
19. Rainer Maria Rilke, Letters to a Young Poet (Seaside, OR: Merchant Books, 2012), 21.

الفصل التاسع: مجتمعُ الاستماع المعكوس

كان ذلك في كاليفورنيا في شهر آذارٍ/مارس ٢٠م، وكنتُ قد أخبرتُ سكوت قبلها بأنِّي أؤلفُ كتابًا عن الاستماع فقال لي: "الكتابة عن موضوع مثل هذا حافلةٌ بالتحدِّي. وحين أخبرتُ زوجتي أنَّك تكتبُ كتابًا كاملًا عن الاستماع، قالت لي: «يبدو ذلك مملًّا حقًّا»"، وتشجيعٌ مثل هذا هو ما يجعلني مَن أنا اليوم!

تُسمَّى هذه المجموعة "Pamona Hope". انظر: .www.pomonahope.org

3. Michael Frost, "How to Listen to Your Neighborhood," April 19, 2012, www.vergenetwork.org/2012/04/19/michael-

frost-how-to-listen-to-your-neighborhood.

ويبدو أنَّه يقتبس هنا الدكتور وليَم أوسلر (Dr. William Osler) والذي قال: "استمع إلى مريضِك، فيُخبرَكَ هو بالتَّشخيص".